نظرية الأدب في ضوء الإسلام

القسم الثاني

الأدب والمرأة

الدكتور
عبد الحميد بوزوينة

دار البشير
للنشر والتوزيع

نظرية الأدب في ضوء الإسلام

القسم الثاني

الأدب والمرأة

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

٢١٠,٤٨

عبد عبد الحميد بوزوينة

نظرية الأدب في ضوء الإسلام/ عبد الحميد بوزوينة .ـ عمان:
دار البشير، ١٩٩٠م.

جـ٢ (٢٦٨) ص

ر.أ (١٩٩٠/٧/٤٢٦)

١ـ الإسلام والأدب أـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution

Jerusalem Jewel Center / Al-Abdali
Tel. (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708)
P.O. Box: (182077) / (183982)
Amman - Jordan

دار البشير
للنشر والتوزيع

مركز جوهرة القدس التجاري - العبدلي
هاتف ٦٥٩٨٩١-٦٥٩٨٩٢-فاكس ٦٥٩٨٩٣-تلكس ٢٣٧٠٨
ص.ب ١٨٢٠٧٧-١٨٣٩٨٢ - عمان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحیم

الأدب والمرأة

يقول الحكماء: المرأة نصف المجتمع، إذا صلحت صلح المجتمع كله، وإذا فسدت فسد المجتمع كله. هذه الحكمة ـ وإن عمل الفكر في تخير ألفاظها، وإنشاء تركيبها الأسلوبي ـ واقعية، مستمدة من واقع الشعوب وأحوال المجتمعات.

ولكن إن فقه فن الحكمة هذه القضية وعرفها، فإن فنون الأدب في الأغلب الأعم ما زالت تجهلها بل تتجاهلها عن تعمد مقصود، لأن موجهي الآداب والفلسفات والفنون ـ وبخاصة في هذه الفترة المعاصرة ـ يريدون تحطيم دعائم الانسانية، والقيم الخلقية، ورد البشرية إلى الحيوانية الجامحة، والهمجية البدائية، برداء العلم المزعوم والتقدم الهش.

هذا، وإن محتوى الحكمة يدور حول خطورة مركز المرأة الاجتماعي، ودورها الكبير في توجيه الأمة الوجهة المرادة، وباختصار: إنها سلاح ذو حدين: فهي قد تكون حاملة مشعل النهضة الكبرى، ودافعة عجلة التاريخ نحو الرقي والسؤدد، وتكون شبحاً مخيفاً، وناراً متأججة لا تبقي ولا تذر.

وقد يستهين كثير من المثقفين والمفكرين ـ ومنهم النقاد والأدباء ـ بهذا الأمر الجليل، حينما يعالجونه ويطرحونه على بساط البحث. وتظهر استهانتهم في أنهم لا يتعبون عقولهم في فحص وغربلة الركام الضخم الذي يدور حول هذا الموضوع، كأن ما فيه يتصف باليقين، ولا ينال الشك العلمي منه منالاً ما، مع أنه في الحقيقة هراء وضلال، عدمه خير من وجوده.

لقد حان الوقت لرفض كل مظاهر التقليد الفكري والأدبي، لأن عصرنا

ليس عصر تبعية وتقليد ومحاكاة، وإنما هو عصر منهجية علمية، ومنطق تحليلي معمق. فحريّ بنا إذاً ألا نعطل عقولنا أمام سحر الغرب الرأسمالي، أو الشرق الشيوعي، بل علينا أن نضع الأمور في الموازين الصحيحة، التي ترينا أن هذا باطل فنرفضه، وهذا حق فنتشبث به ونعمل على إحقاقه.

بناء على هذا، يمكنك أن تقول: أن معظم ما ألّف وكتب حول موضوع المرأة في ميادين الأدب والنقد فاسد، لا يصلح لنا ولا لأجيالنا، بل هو معول هدم كبير، ينضاف إلى المعاول الأخرى التي همها كل همها تحطيم مقوماتنا الحضارية من الأساس.

والسبب الذي أراه قد ولّد هذه المشكلة الفكرية والأدبية هو انعدام الصلة بين الثقافة الإسلامية الأصيلة ورجال الفن الأدبي، بحيث أن هؤلاء ظنوا أن انفصال الحياة الأوروبية بكل مجالاتها عن الدين المسيحي، يمكن إحداثه في العالم العربي، بالنسبة لعلاقة الأدب بالدين الإسلامي لكن ظنهم هذا زعم خاطىء، صنع في معامل الفكر الجاهلي، وصدّر إلينا لإيجاد شقة كبيرة بين التعاليم الربانية، وواقع الناس المعنوي والسلوكي والمادي.

وقد وقع فعلاً فصام نكد بين التوجيهات الإسلامية، وجل مجالات حياتنا المعاصرة، فضلاً عن مجال الأدب والفن الذي روّج لهذه الفكرة الخبيثة وطبقها في ميدانه، إلى درجة أن الأدب المكتوب بالعربية لا يختلف عن الآداب الأجنبية في ذلك، إلا في جانب الشكل اللغوي لا غير.

نستخلص من هذا أن موضوع المرأة في ميدان الأدب قد استغل شر استغلال، مثله في ذلك مثل المواضيع التي عالجناها سالفاً، بحيث نلاحظ أن الأغراض التي استهدفت تحقيقها الجاهلية قد درست دراسة دقيقة، وحيكت من طرف المستشرقين: أعداء العقيدة الإسلامية.

وفيما يلي نظرة تاريخية خاطفة، تلقي أضواء كافية على أهم المراحل التي مرت بها أحوال المرأة إلى يومنا هذا، متبوعة بالحلول الحقيقية لمشكلاتها، كي

يكون الأدباء المصلحون على بصيرة بها. وهذا هو المسلك الوحيد الذي ينجي الأدب العربي المعاصر من انحرافاته الإيديولوجية الخطيرة، والموبقات الكبيرة التي وقع فيها.

نظرة تاريخية عامة:

لقيت المرأة في العصور القديمة صنوفاً من الاضطهاد، وأنواعاً من الخذلان والصغار، فقدت كرامتها، وضاعت حقيقتها الإنسانية، كأنها مخلوق ثانوي لا يؤبه لوجوده، ولا يعتنى بكينونته. وأمامك بعض مظاهر اضطهادها، لتكون صورة صادقة تجلي لنا ما نقول:

أ - **في الهند**: كانت المرأة مهانة، لا دور لها إلا التبعية المخلصة لسيدها الرجل: تخدمه كما يخدم العبيد أسيادهم، وتنحني لأوامره انحناء طاعة تامة وخضوع كامل. والغريب أنها أخضعت لاعتقاد بشري سفيه، ألا وهو: أنها يجب أن تحرق نفسها مع زوجها الميت، تعبيراً عن استمرارية وفائها، أما العكس فلا.

هذا، وان أشباه حكماء الهند كانوا يزعمون أنها شر من الأفاعي والسم والأوبئة والزلازل، مما يجعلنا نستنتج أن الفكر البشري قد انحط أيما انحطاط، بسبب أنه نأى عن رسالات السماء الراشدة.

ب - **في بلاد الروم**: اتخذت المرأة متاعاً جسدياً، يلهو به الرجل ليقضي نزواته، كما جعلت قينة وجارية في القصور، تسقي أمراء الجيوش والحكام الخمر، وتمتع أنظارهم برقصاتها الخليعة، إلى غير هذا من أفانين الدعارة والتفسخ الخلقي.

كما كانت تسبى في حالات انتصار الرومان على قومها، فتغيب عن عائلتها وأولادها بقية حياتها، وقد تجنّ حينما يقتلون ذويها أمامها، وهي لا تملك حراكاً ولا قدرة.

ومن الاستنتاجات التي توصل إليها المؤرخون أن سبب سقوط الحكومات

والامبراطوريات ـ وبخاصة الامبراطورية الرومانية ـ هو حالات التفسخ الخلقي، التي كان للمرأة فيها النصيب الكبير، وذلك بأن تخنث الحكام ولانوا وأكلهم الترف، وتغلبت عليهم الشهوات، فضاعت مقاليد الأمور من بين أيديهم إلى غير رجعة.

جـ ـ **اليونان**: على الرغم من ظهور الفلاسفة: كأفلاطون، وسقراط، وأرسطو، ونشأة علوم كثيرة: كالطب، والهندسة، والرياضيات، فإن أحوال المرأة اليونانية لا تقل سوءاً عن أحوال أخواتها في سائر بقاع العالم. فهذا الفيلسوف أفلاطون لم يعترف بها كإنسانة: ففي كتابه (المدينة الفاضلة) ادعى أنّها أحسن حظاً، حينما يسوّى بينها وبين كلب زوجها. فهي إذن عبدة، لا تحسن التفكير ولا التوجيه ولا حتى تربية أولادها.

أما الأدب اليوناني فحدث عنه ولا حرج، فقد ربط المرأة بالجنس، وجعل صراع بعض الأبطال يدور حول هذا الهدف الخسيس. أما المركز الحقيقي للمرأة واعتبارتها الإنسانية، فهذا كله كان مجهولاً، وإن وجد فهو من حظ الرجل لا من حظها.

د ـ **الجاهلية العربية**: كل تلك الأمم وغيرها كانت تتخبط في خضم الجاهلية الكبير، على الرغم من وجود اختلافات نسبية بينها. وفي هذا الإطار نجد جاهلية العرب قد حطت من شأن المرأة، عادّة إياها متاعاً ليس خيراً من الأمتعة الأخرى، ومن مظاهر هذا الانحطاط الذي أصاب أحوالها ما يلي:

١ـ شيوع الزنا، وكثرة البغايا، واتخاذ خيمات خاصة بالفجور.
٢ـ كثرة القصائد والدواوين التي عكفت على تصوير جسد المرأة.
٣ـ وأد البنت وهي حيّة، مع الزعم الباطل بأنها تجلب العار والفاقة ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون**﴾.
٤ـ يرث المرأة أبناؤها مع بقية المال الذي تركه لهم أبوهم، ويجوز أن يتزوجها أحدهم.

٥ـ تسبى من قبيلتها المنهزمة، لتصير عبدة يفعل بها سيدها ما شاء: يبيعها أو يقتلها أو يستذلها شر استذلال.

ولا أشير هنا إلى دور الإسلام في تقويم أحوال هذه البشرية آنذاك، ولكن سأترك هذا الحديث ريثما أنتهي من تتمة النظرة التاريخية، لأنني أريد أن أشفع المشكلات بالحلول الحقيقة، التي جاء بها الإسلام لصالح الناس في كل زمان ومكان.

وننتقل الآن إلى المرحة التاريخية الثانية.

مرحلة العصور الوسطى: هذه التسمية خاصة بمنطقة أوروبا. أما منطقة العالم الإسلامي آنذاك، فهي بالنسبة إلى تلك تمثل المرحلة الذهبية، من ناحية التقدم العلمي والمدني الذي تأثرت به ميادين الحياة، بغض النظر عن التفسخ الذي أصاب قضايا الأخلاق، والاجتماع، وتطبيق القيم الإسلامية. وهذا التنبيه الاستطرادي أردنا ذكره هنا، لبيان أن التعليم العربي عندنا، وبخاصة تعليم التاريخ، تأثر بهذه التسمية الاستشراقية الخطيرة، التي تهدف إلى الحط من مكانة حضارتنا الإسلامية.

هذا، وان المرأة الأوروبية عانت من الاضطهاد والظلم ما عانت، فقد كانت مع زوجها وما يملكانه متاعاً يتصرف فيه الإقطاعي كيفما شاء، لذا ذاقت الأمرّين، وذاقت من أفانين البؤس والفاقة والاستعباد الشيء الكثير الذي يندى له جبين الإنسانية.

والمرحلة الإقطاعية هذه أثرت إذن في أحوال المرأة تأثيراً كبيراً، فجعلتها قابعة في كوخ حقير، يسيطر عليها الجهل والمرض والفقر أحقاباً طويلة، إلى أن جاءت مرحلة جديدة ليست خيراً منها: هي مرحلة البرجوازية.

مرحلة البرجوازية: اشتد الصراع بين رجال الإقطاع ـ وهم ملاك الأرض الكبار ـ وبين رجال الصناعة الذين تركزت أعمالهم ونشاطاتهم الاقتصادية في

المدن الكبرى، وهو صراع مصيري اضطر كل من الطرفين إلى أن يدافع عن وجوده بشتى الأساليب الممكنة. وقد نجحت البرجوازية في نهاية المطاف، فاستولت على مقاليد الاقتصاد، بطريقة ماكرة هي: إغراء الفلاحين: عبيد الأرض، بالحياة العصرية في المدن، مما دفعهم إلى الفرار من الأرض، بل من الاستعباد إلى الحرية.

وقد صوّروا لهم أنهم أحرار في اختيار المدينة والمسكن والعمل، لكن الحقيقة هي أنهم انتقلوا من استعباد إلى آخر، لا يختلف عنه إلا في الأشكال والمظاهر: كان في الماضي عبداً للأرض، فصار الآن عبداً ذليلاً للمصنع.

وتواصل تهاطل الحيل البرجوازية التي أريد بها استنزاف قوى الإنسان، فكانت منها حيلة ماكرة ما دارت إلاّ بخلد شيطان الانس، ألا وهي: إخراج المرأة خارج البيت لترتبط بالمصنع بخاصة، كما هو الشأن بالنسبة لزوجها. وتمثلت الخطة في تقليل أجور العمال، وترغيب النساء في العمل لإعانة أزواجهم، بل تجاوز الأمر إلى الأطفال. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على غرضين شيطانيين هما:

١ـ ربط كل أفراد المجتمع بعجلة الاقتصاد وأطماع البرجوازيين ربطاً محكماً، يؤدي إلى استغلال كل القوى الاجتماعية الممكنة (رجال، نساء، أطفال) لصالحهم.

٢ـ إسقاط المرأة بصورة تدريجية وبلباقة، في دوامة التفسخ الأخلاقي، وهاوية الانحلال الذي يشلّ القيم والمقدسات، بل يجعلها عدما بعد وجود.

وفي هذا المضمار نشط رجال الفكر البرجوازي في إقناع الناس بكل هذه الأمور، مستعينين بذكائهم وتأويلاتهم العقلية الملتوية المزيفة، فأمست الشعوب الأوروبية قطعاناً، تساق «بحكمة» ومكر خبيث تجاه شهواتها. وأصاب المرأة في هذه الأجواء المضطربة ما أصابها من ضياع شخصيتها، وإهمالها التام لوظيفتها الأساسية وهبوطها إلى درك الحيوانية. فلم يرها الناس إلا متعة جسدية

لا غير، شأنهم في ذلك شأن الحيوانات الوحشية. أما مكانتها الإنسانية، وأما اعتباراتها الاجتماعية، وأما حقوقها البيتية كزوجة بالنسبة إلى زوجها، وكأم بالنسبة لأولادها، فكل هذا قد زال وتلاشى، وذهب أدراج الرياح.

وإن أردت أن تفتش عن المرأة في العهد البرجوازي، فإنك لست واجداً إياها في بيتها، تربّي أولادها تربية حسنة، وتعامل زوجها معاملة صالحة، ويعاملها أيضاً تلك المعاملة، ولست واجداً إياها في مسجد أو معبد، في حلقة تتعلم أمر دينها، لتقيم حياتها على أساسه، وإنك لست واجداً إياها تزور عائلتها في جو من الحرارة العاطفية القوية، والمشاعر الإنسانية النبيلة.

إنك ستجدها فقط في الأماكن التالية:

- **في المصنع**: تعمل بجوار الرجل أمام الآلة، مرهقة جسدها الضعيف الذي ما خلق لمثل هذا. إنه ظلم واضح وضوح الشمس في ربيعة النهار، وما زال هذا الظلم إلى الآن مغلفاً بزعم باطل: هو مساواة المرأة والرجل في كل شيء، ولكن كيف نسوّي بينهما في البنية الجسدية؟ أفي الإمكان إقامة مصنع تحويلي، ندخل النساء فيه من جهة، ليخرجن من جهة أخرى رجالاً؟ أهذا منطق مقبول؟

- **في الكازينوهات والكباريات**: تلفيها راقصة أو مغنية، أو زانية، أو كل هذا معاً. إنها تبيع جسدها للناس بدريهمات قليلة، والرجل الحيواني لا يأبه لمصيرها، ولا لأخلاقها، ولا لإنسانيتها، إنما همه كل همه إشباع شهواته الشيطانية الجامحة.

- **في عمليات الإشهار والترويج**: يعرف البرجوازيون أن السلعة لا تلقى رواجاً كبيراً بين الناس، إلا إذا صوّرت بجوارها إمرأة حسناء، تملك وسائل الإثارة الجنسية. والذي يسافر إلى أوروبا أو أمريكا بخاصة، يشاهد هذه الظاهرة في كل مكان: على واجهات المتاجر، والشوارع، والمجلات، والصحف، ومقدمات الأفلام، والتلفزة، وهلم جرا.

وطبيعي أن البرجوازية يحلو لها أن تكون المرأة وسيلة فعالة، تجلب لها المنافع والأرباح المالية الطائلة. أما تحطيم القيم الخلقية، وإفساد المجتمعات، وانهيار الأسر والعائلات، فهذا لا شأن لها فيه، لأنه لا يقاس عندها بالدينار والدرهم.

مرحلة الرأسمالية: وليس هناك أي خلاف أو فرق بين هذه وتلك، اللهم إلا أن هذه المرحلة الجديدة تعد توسعة للسابقة وتعميقاً لها، مما زاد الطين بلة، فتفاقمت الأمور، وأدلهمّ الخطب، وازدادت أوضاع المرأة سوءاً.. وما زال الحال مستمراً في الهبوط والانحطاط إلى يومنا هذا. وما زالت المخططات اليهودية تترى وتتواصل، لمواجهة كل محاولات الإصلاح التي تظهر هنا أو هناك.

* * * * *

وأود أن أركز على الأسباب الكبرى المعاصرة، التي تقف الآن وراء معضلة انحراف المرأة، وتفسخ قيمها الخلقية، وحيوانية سلوكها المنحل، والتي تزيدها تعقيداً، وذلك فيما يلي:

١ـ **الحربان العالميتان**: لقد عانت البشرية من ويلات الحروب الكثيرة، التي أدلعت نيرانها أسباب تافهة وأطماع مادية، وأهواء خبيثة، وأخص بالذكر الحربين العالميتين: الأولى والثانية.

ولا يخفى على الجميع وخامة النتائج التي تولدت عن هاتين الحربين الكونيتين، ومنها:

أ ـ لقد أودت بحياة عشرات الملايين من البشر في جل أصقاع العالم، بدون رحمة ولا شفقة ولا إنسانية.

ب ـ التمثيل بالأسرى والسكان تمثيلاً لا يفعله الوحش بفريسته.

جـ ـ تحطيم القوى الاقتصادية على اختلاف أنواعها: فانحطت الزراعة، وتحطمت المصانع الضخمة الكثيرة، وخربت الطرق التجارية الهامة. ونتج عن

هذا كله: الفاقة، والبؤس، والحرمان، والموت جوعاً.

د ـ انتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة الخطيرة بين الجنود بخاصة، ثم تفشت في أوساط الشعوب والأمم المظلومة.

هـ ـ ازداد السباق نحو التسلح: فاستحال الاقتصاد الحربي قطب الرحى في النشاطات كلها، وأعطيت إياه المرتبة الأولى، بينما صارت الاقتصاديات المعاشية ثانوية، لا ينظر في قضاياها إلا في الأخير.

و ـ تحطمت أمم كثيرة، وتلاشت علاقات إجتماعية عديدة، لتحل مكانها فوضى عارمة.

ي ـ زاد عدد النساء على حساب عدد الرجال بكثير، بسبب أن الملايين من الجنود والسكان قد لقوا حتفهم أثناء المعارك والقصف.

وطبيعي أن المجتمع الذي تكثر فيه النساء، وهو خال من القيم الخلقية، يميل حتماً إلى الزنا وإشباع النزوات الجنسية بمختلف الأساليب والأشكال، وبخاصة حينما يحدثنا المؤرخون عن رجوع الجنود من ساحات المعارك، محرومين من كل شيء، فيعيشون في الأرض فساداً، ويستهينون بالضوابط الخلقية، وينتهكون كل عرض وشرف، غير مبالين بحرمات الأسرة وعاداتها الإنسانية الثابتة.

هذا، وقدجابه كل دولة شاركت في الحرب مباشرة أو غير مباشرة مشكلة قلة اليد العاملة فدعت إلى تحرير المرأة، وتشغيلها في مختلف مناحي الحياة الاقتصادية، وهذا أدى بصورة حتمية إلى المزيد من الاختلاط والإباحية، وتفكك الأسر وضياع الأولاد، وظهور الأولاد غير الشرعيين.

٢ـ ظهور الفلسفات الإلحادية: هذا العامل له ارتباط شديد بالسابق، من حيث أن جل الفلاسفة الأوروبيين والأمريكان تأملوا في نتائج الحروب والمعارك، فرأوا فيها سفاهة الحياة، وعدم جدوى القيم في توجيه المجتمع ومقاومة الانحراف، فبحثوا عن الخلاص من هذه الأزمات، زاعمين أنه يتمثل في توفير

المـاديات كلهـا للإنسـان، على حسـاب الروحيات. ومن هنا تأثرت وضعية المرأة، فصارت تشكل في هذه المفاهيم الفسلفية المادية متاعاً جسدياً، وزاوية واسعة من زوايا هوى الإنسان وشهواته الجامحة.

انـطلاقـاً من هذا، تأثـرت عقـول الشبـاب في معـظم أصقـاع العالـم، بالانحـرافـات الفلسفية، والخيالات الفكرية الخاطئة، واصطبغت بصبغتها، وتلونت بألوانها الجاهلية، إلى درجة أنك تلاحظ أن أجهزة الإعلام في العالم كله تفتخر بالنتاج الفكري الجاهلي، وتتسابق نحو الدعوة إليه، وتلهث وراء كل مطبوع ومنشور ومسموع، لتقدم من هذا كله نماذج للأجيال الفتية.

لهذا تلوثت العقول، واضطربت الأفكار، وتناقضت المفاهيم، واستحالت الحياة العقلية مصيدة ضخمـة، تتسـاقط فيهـا الضمائر البريئة، بأساليب من الخبث، لا يعلمها حق العلم إلا خالقنا عز وجل.

والفلسفات الإلحادية كثيرة لا تقع تحت حصر، ولكن أخطرها:

أ ـ الشيوعية: التي تستحل كل عرض وشرف، وتبيح كل محرم.

ب ـ الـوجودية: وهي التي يتزعمها سارتر الملحد الإباحي بكتاباته القصصية والفلسفية، وهي تدعو إلى الحرية المطلقة، والاستقلالية الفردية التامة، ورفض كل تبعية إجتماعية.

جـ ـ البراجماتية: وهي فلسفة تدعو إلى نظرية النفعية، التي تتلخص أساساً في اتخاذ المنفعة المادية مقياساً لصحة الأفكار والمعتقدات والأشياء، وكل ظاهرة من ظواهر الوجود.

هذه الفلسفـات وغيرهـا هزت أركـان الأخـلاق، وعلمت الشباب الشك المطلق، والرفض الكلي لكل شيء: في الدين، في الاجتماع، في العادات الحسنة، في المنطق السليم، في المعاملات الصحيحة، وهلم جرا.

٣ـ الفـرويـديـة: هو اتجاه خطير جداً على مستقبل البشرية قاطبة، ويتزعمه

يهـودي هو سيجموفـد فرويد، الذي نشط في ميدان علم النفس الاكلينيكي (أو العيادي)، وادعى في نهاية المطاف أنه توصل إلى نتائج مهمة، منها:

أ ـ اعتبار اللاشعور في الحياة النفسية هو المجال الحقيقي الذي يمثل شخصية الإنسان، واختار له مصطلح (الهو).
ب ـ اعتبار (الأنا) أو الحياة الشعورية محل نفاق مع الأشخاص والمحيط الاجتماعي.
جـ ـ اعتبار (الأنا الأعلى) أو القيم الخلقية والاجتماعية المكتسبة عن طريق التربية، جانباً خطيراً يهدد سلامة منطقة (الهو) النفسية.
د ـ منطقة الهو هذه لا تعدو أن تكون الغريزة الجنسية لا غير. أما سائر الغرائز الأخرى، فيعدها فرويد فروعاً وامتدادات وتجليات لها.
هـ ـ الدين هو مجرد تسامي الغريزة الجنسية، لتتخذ شكلاً مقدساً.

هذه النتائج وغيرها تمثل خلاصة ما توصل إليه هذا اليهودي، بعد دراسات مشبوهـة، وتـطبيقات منهجية خاطئة. ولا نريد أن نسرد جوانب هذه النظرية بالتفصيل، ولا ننوي أن نناقشها مناقشة دقيقة، إذ ليس هذا محلها (يستحسن الرجوع إلى دراسات محمد قطب بخاصة، وعلى رأسها: الإنسان بين المادية والإسلام ـ التطوير والثبات في حياة البشرية). ويكفي أن نبدي في هذه العجالة بعض الملاحظات التالية:

أ ـ رفض نظرية فرويد معظم العقلاء النفسانيين الغربيين، والأعجب أن جل زملائه الأقربين لم يعجبهم هذا التحليل الحيواني، ومن هؤلاء: أدلر ويونغ.
ب ـ نظريته مبنية على دراسة حالات غير سوية، أي حالات المرضى النفسانيين من المجانين والمعتوهين القابعين في المستشفى. فكيف يصح تطبيقها على الأسوياء، وهم الذين يمثلون الغالبية الساحقة في المجتمع؟
جـ ـ القول بأن اللاشعور هو الحياة الحقيقية يعد ادعاءاً باطلاً، لأن الإنسان يفكر ويسعى وينشط حين يكون شاعراً بمواقفه كلها. أمّا إذا زعمنا أن اللاشعور

هو محرك الحياة، فكأننا نقول: أن الحياة يحركها مجانين، لا يفقهون ما يفعلون.

د ـ لا يجوز بتاتاً إعطاء الأولوية للغريزة الجنسية على حساب الغرائز والدوافع الحيوية الأخـرى. إذ كيف تستقيم الحياة بالجنس فقط؟ هذا، وإن مجـال الغريزة الجنسية ضيق، ينحصر في وظيفة واحدة وثانوية من وظائف الأسرة.

وإذا عدّ نظام الأسرة هذه الوظيفة ثانوية، فلأنها مجرد وسيلة لتحقيق وظائف أساسية وخدمتها، ومنها:

(١) المحافظة على الإنسان ـ رجل أو امرأة ـ من الضياع في دوامة الشهوات.
(٢) إنجاب الأطفال.
(٣) تقوية الروابط بين الأسر والعائلات على المستوى الاجتماعي.

هـ ـ يريد فرويد أن يجعل الحياة النفسية محكومة كلها بالجنس بشكل حتمي، وفي هذا إنكـار تام لمقوم كبير من مقومات الشخصية، وهو: الحرية أو ملكة الاختيار التي تجعل الانسان لا يتقيد إلا بما يقتنع به.

و ـ ادّعـاء أن الدين تسام جنسي هو ادعاء باطل من أساسه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتجلى لنا أن هذا الادعاء من إفرازات العداء، أو الحقد على كل ما هو غير يهودي، سواء أكان ديناً أم أخلاقاً أم غير ذلك.

ي ـ ويكفي دليلاً على خبث النظرية الفرويدية هذه، تبنّي الماسونية لها في إحـدى بروتـوكولاتها، إذ تقول «إن ماركس منا، وفرويد منا، ودوركايم منا». وطبيعي أن هؤلاء الثلاثة يهود.

هذه هي الأسبـاب الثـلاثـة ـ الحـربـان العـالميتان، الفلسفات المادية الإلحادية، الفرويدية ـ التي عملت على تشويه حقيقة المرأة، وإخراجها من عالم إنسانيتها، وحصر ماهيتها في الفرج والشهوات.

ولا يخفى على المتتبعين لأحوال الأمم المعاصرة مظاهر انحطاط الشباب

في كثير من الدول المصنعة، وأبرزها حركات الهيبيز التي تجاوزت حدود هذه الدول، لتؤثر في شباب العالم الثالث أيضاً. وليس الأمر هيناً وسهلاً، بحيث يمكن القضاء على هذه الحركات بجرة قلم، أو سن قانون. فالقضية مستعصية، إلا إذا أبتغينا الحل من الإسلام، لأن هذه الحركات يقودها فلاسفة ونقاد وفنانون كبار، جلّهم من اليهود. كما تعقد معارض عالمية للعري تارة، وللرقص تارة أخرى، وللغناء مرة، وللعرض السينمائي والمسرحي الماجن مرة أخرى. إن أمور العري والفساد والغناء والرقص صارت - إذاً - منظمة تنظيماً يهودياً خبيثاً، لا يجرؤ أي نظام سياسي، أو سلطة تشريعية على محاربته بل محاولة إرشاده إلى الخير. وبهذا يبقى الحل الوحيد متمثلاً في إجراء تغيير جذري، وفق المقومات الإسلامية الراشدة.

* * * * *

بعد هذه النظرة التاريخية العامة التي لا تغني عن الاستزادة من المعلومات في موضوع المرأة (يستحسن الرجوع إلى الدراسات الإسلامية الهادفة، ومنها كتاب «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي) يجدر بنا أن نضع لمسات كافية، ترينا المواقف الصحيحة والحاسمة، التي حددها الدين الإسلامي الحنيف، لحل كل مشكلات المرأة، وتخليصها من مخالب أعدائها، وتوجيهها في طريق الهدى والرشاد والنور.

وأول موقف إسلامي كبير ينبغي أن نتأمله ملياً هو منح الله تعالى العليم بمخلوقاته، المرأة التي علمنا مما سلف ذكره أنه اضطهدت أشد اضطهاد، وأهينت أكبر إهانة، منحها مكانة عالية ورتبة رفيعة. وأن هذه المكانة الممنوحة لها لا يمكن أن نجدها بصفائها ورونقها وكمالها، في المذاهب الهدامة، وفسلفات الأرض، والنظم الوضعية المتعفنة. فإذا أردنا البحث عنها حقيقة، فما علينا إلا أن نتوجه شطر تعاليم السماء، لنلفي بغيتنا هذه.

وتتمثل مكانة المرأة في الإسلام كما يلي:

١ـ المساواة الإنسانية: يقول الله تعالى ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها. . .**﴾ **الآية. .**

يؤكد الإسلام في هذه الآية المباركة وغيرها من الآيات القرآنية العديدة، على أن المرأة كائن إنساني، مثلها في إنسانيتها مثل الرجل، وقد صدر هذا الإعلان الرباني من فوق سبع سمٰوات، في الوقت الذي عقد فيه مؤتمر مسيحي في أوروبا، يدرس من جملة القضايا مشكلة المرأة: هل هي إنسان أم حيوان.

انظر معي إلى البون الشاسع الذي يفصل بين الحق المصون، والدين المسيحي الذي أصابه التحريف.

هذا، وإن معنى إنسانية المرأة أن كينونتها آدمية، ليست أقل من كينونة أخيها الرجل. وبناء على هذا، تكون المرأة كالرجل، مكلفة بالعبادة، ومعرفة دينها الإسلامي، والتخلق بأخلاقه. وهي مسؤولة أيضاً عن واجباتها ودورها الحضاري، كما يسأل الرجل عن واجباته ودوره الحضاري. فلا فرق بين هذين الجنسين، في مجال بناء الأمة.

والتعبير القرآني معجز، حينما يصور المساواة الإنسانية بين الرجل والمرأة في قوله تعالى ﴿**خلقكم من نفس واحدة**﴾ فنفس الرجل هي ذاتها نفس المرأة، ولا عبرة بالاختلافات الجسمية، لأنها مظاهر لا تؤثر في الجوهر المشترك.

٢ـ المسؤولية والتكليف: للمرأة مسؤوليات وتكاليف، كما للرجل مسؤوليات وتكاليف، وهذا يدل على أنها تتميز بقدرات عقلية ونفسية تؤهلها لذلك. لأنه من المنطقي أن التكليف بالمهام الحضارية لا يسند لعديمي القدرات الإنسانية: من عقل، وعاطفة، وشعور، وإرادة، واختيار.

استناداً إلى هذا، نكتشف أن الإسلام قد أعطى أهمية كبرى للمرأة، في بناء الحضارة الراشدة التي ينشدها كل مرء. والتاريخ الإسلامي مليء بآلاف

الأدلـة الواقعية، التي تثبت مكانة المرأة المسلمة، ومظاهر نشاطاتها البناءة، والنتائج الملموسة لمشاركتها الاجتماعية.

ولا بد أن نطرح بصراحة إشكالية، كثيراً ما يستغلها أعداء الإسلام، في محاولة إظهار أنه يغمط من حق المرأة وشأنها. هذه الإشكالية هي: لماذا لم يسوّ الله تعالى مساواة تامة وكاملة بينها وبين الرجل، في تكاليف الحياة كلها؟

إذا كان الشيوعيون وأمثـالهم يلوكـون مثـل هذه العبـارات، ظانين أنهم استطاعوا أن يتحدّوا دين الله، فإننا نقول لهم: يا للغباوة! ويا للسطحية التي أصابت عقولكم! حتى لكأنها عقول العصافير، لماذا لا تتناولون الموضوع تناولاً علمياً صرفـاً، لتكتشفوا في نهاية المطاف أن نتائج العلم الصحيح هي ذاتها حقائق الدين الإسلامي الخالد؟ أو على الأقل: لماذا لم تطالعوا بكل هدوء، مبعدين التشنج العصبي، والحقد على الدين جانباً، تلك الدراسات المعاصرة التي ألفهـا علمـاء أجـانب غير مسلمين، دوّنوا فيها ملاحظاتهـم الصحيحة، مدعمة بالإحصائيات والتحقيقات الدقيقة؟

إنـكـم لو فعـلتم هذا، وسلكتم هذا المسلك النبيل، لفهمتم أن قضية التكليف والمسؤولية تعتمد على أسس صلبة، لا يمكن أن تشوبها شائبة شك أو خطأ.

إن الفهم الصحيح لا يكـون كذلـك، إلا إذا ابتعـد عن السـطحيات والمظاهر، وكلّف صاحبه نفسه عناء البحث والتعمق والغوص في بواطن الظاهرة المراد دراستها. وهذه قضية أحببت الإشارة إليها، لأن الفهم السطحي الذي لا يتجاوز القشور إلى اللباب، يعد من مشكلات الفكر الجاهلي بعامة، والفكر العربي المعاصر بخاصة.

إن المسـاواة التـامـة التي يطالب بها هؤلاء، ليجعلوا المرأة نداً للند مع

الرجل، لهي مساواة شكلية حسابية، يجيدها أطفال التعليم الابتدائي أيضاً. فالقضية هذه (قضية مسؤوليات المرأة) لا تفهم علمياً، إلا بالنظر إلى طبيعة المرأة، وهي طبيعة أنثوية ذات بعدين: بعد بيولوجي، وبعد نفسي.

وبعبارة أوضح، أن وظائف المرأة تحدد وفق هذين البعدين، مخافة حدوث تناقض خطير بين الجانبين، جانب طبيعة المرأة، وجانب أعمالها.

هذا، ويتمثل البعد البيولوجي في الخصائص الجسمية الأنثوية، التي تتناسب مع أعمال يدوية خفيفة، تتركز أساساً في الوظائف المنزلية، بعكس الرجل ذي البنية القوية، التي تقابل الأعمال الشاقة.

أما البعد النفسي، فهو البنية العاطفية التي تدور ـ بصورة خاصة ـ حول عاطفة الأمومة، ومعلوم أن الأسرة لا بد لها من هذه الطاقة العاطفية: فالأولاد يحتاجون لها أشد احتياج، في نمّوهم العقلي والنفسي ـ وهذه حقيقة أثبتها علماء النفس. كما أن الزوج ـ بعد رجوعه من عمله مرهقاً ـ يستريح ويهنأ، حينما تلقاه زوجته بوجه بشوش، وتغمره بحديث عاطفي شيق.

وأمر تخصص المرأة في وظائف معينة مناسبة لها يشبه إلى حد كبير، أمر التخصصات في الإدارات والمصانع والوزارات، إذ لا تجد فيها تساوياً واشتراكاً في الوظائف، بل تنوعاً واختلافاً كبيراً وفروقاً واسعة بين الدرجات: أدناها الحاجب الذي يقف عند مدخل المؤسسة، وأعلاها المدير العام.

والسر في هذا الاختلاف الوظائفي: سواء أكان في ميدان الأسرة، أم في ميدان المجتمع، يكمن في اختلاف قدرات الأفراد، وتنوع ملكاتهم وقواهم العقلية والنفسية والجسمية. وقد فطن ابن خلدون لهذا، في مقدمته المشهورة، حيث برهن على صحة هذه البديهية الاجتماعية، بأن المجتمع عبارة عن كيان عضوي، لا كيان ميكانيكي، وشتان بين هذين الكيانين.

إن الكيان الميكانيكي يقتضي التساوي في العناصر الداخلة في تركيبه،

فنحن نقول: أن الآلة الفلانية تعمل عملاً ميكانيكياً، إذا شاهدنا اطراداً لا يتغير في حركيتها الآلية من جهة، وتشابهاً تاماً بين منتجاتها. وقد ذهب كثير من المفكرين، وبخاصة علماء الاجتماع، في هذه القضية مذهب القياس فوصفوا كل ظاهرة، تتميز بميزة التشابه الآلي، بأن طبيعتها وماهيتها ميكانيكية.

أمّا الكيان العضوي فهو نقيض السابق، أي أن تركيبه منبنٍ على علاقات بين عناصر مختلفة، إلا أن هذا الاختلاف ضروري، لإحداث التعاون والتكامل في كل العمليات المطلوبة، ويتمثل هذا في أن كل جزء أو عنصر يؤدي وظيفة خاصة، تحقق جزءاً من المطلوب. وبعد ذلك تتكامل الوظائف الجزئية، لتصير عامة، كأنها لم تعرف من قبل تجزئة ولا انفصالاً. لكن يشترط في هذا أن تكون وظيفة كل جزء محددة تحديداً دقيقاً، بحيث لا تتداخل الأمور، كيلا تضطرب العمليات العضوية كلها.

فهذه النظرية الاجتماعية بشقيها قد فطن لها ابن خلدون، وطبقها تطبيقاً عملياً دقيقاً على المجتمع العربي، فاكتشف أن الطبيعة الاجتماعية الصالحة هي تلك التي تسير عملياتها كلها سيراً عضوياً. ولن يتم هذا إلا إذا تخصص كل فرد في وظيفة معينة، يحتاج لها مجتمعه، لأن حياة الإنسان تتحقق تحققاً سليماً: حين تلبى كل الحاجيات التي تقابل الوظائف والتخصصات جميعها. وبما أن الإنسان لا يتمكن وحده من تحقيق هذه المطالب الحيوية، فقد لزم التعاون الاجتماعي على أساس عضوي.

هذه النظرة العلمية هي التي تلقي أضواء ساطعة، على مسؤولية المرأة، وطبيعة تكاليفها الخاصة بها. وبالتالي تنقشع ظلمات الجاهلية التي أرادت أن تحشر هذه المسكينة، في خضم الصراع مع أحداث الحياة ومصاعبها التي لا ترحم، فتستنزف منها جهدها، مع حيائها وشرفها وعرضها وأخلاقها، وهذا واضح في النظم الجاهلية كلها: الشيوعية منها والرأسمالية.

إن الإسلام رحيم بالمرأة، يشفق عليها أكثر مما يشفق الأب على ولده

العـزيز، فقد خلقها الله تعالى خلقة بيولوجية خاصة، تتلاءم ووظائف العلاقة الجنسية المشـروعة، والحمل والولادة والرضاعة والتربيـة. وتتميز هذه الخلقة بميزات فريدة من نوعها، لا يمكن أن تكون في أيّ شكل جسماني آخر، تتخيله عقول العلماء.

كمـا خصها الله تعالى بطبيعة نفسية معينة، تتماشى والمتطلبات النفسية والشعـورية لكـلٍ من الـزوج والأولاد، يقـول الله تعـالى ﴿... **لتسكنـوا إليها**...﴾ وقال تعالى ﴿... **هنّ لباس لكم**...﴾.

لاحظ معي بصـورة خاصة لفظي (تسكنوا) و(لباس) اللذين يدلان على ضرورة الارتباط الشعوري الحيوي بين الزوج والزوجة، إذ بدون هذا تنفصم أواصـر القربى، وتنحل عرى العلاقات الأسروية والاجتماعية. ويكفي دليلاً على هذا مشـاهـداتنـا لوضعيات الأسر في المجتمعات المصنعة: فكثير من النساء والرجال هنالك يحسون بالبرود الروحي، والجفاف العاطفي، فيستحيل البيت جحيماً لا يطاق، وسجناً مظلماً، بدل أن يكون موضع سكينة وراحة نفس وهدوء بال.

إن الخـلاص من الـوضعيات الجـاهلية للأسـرة المعـاصـرة يكمن في الإسلام: دين اليقين والحق والرحمة. هذا الدين أعطى لكل حقه، وحدد لكل وظيفتـه ومسؤوليتـه، ووضعـه أنـظمـة وقـوانين، تحـول دون حدوث وتصادم واضطراب بين الوظائف والتكاليف والمسؤوليات.

بنـاء على هذا كله، تتبوأ المرأة ـ بفضل الإسلام ـ مكانة عالية، تكلفها بالتالي مسؤوليات جساماً، لا تستغني عنها الحضارة الإنسانية الراشدة. ولهذا نقول لمن يزعم أنه من أنصار المرأة، يطالب بحق حريتها في كل شيء: أنكم ـ في حقيقة الأمر ـ أعداء لها، تضعون لها السم في العسل، كي تتجرعه فترتد روحها وكيانها الإنساني قتيلاً.

فالحـرية المـزعـومة هذه معناها إخراجها من محيطها الطبيعي الذي هو

الأسرة، لتكدح وتجهد نفسها، باحثة عن لقمة العيش، معرّضة شرفها للأخطار المحـدقة، ولأطماع وشهوات «أنصارها المزعومين» الذين هم أسوأ من ذئاب الغابات والأدغال.

شتان اذاً بين الحالتين: حالة ربط حياة المرأة بلقمة العيش، توفرها غالباً ببيع عرضها، ونادراً بوسيلة حلال، وحالـة استقرارها وراحتها المعنوية والمادية، وتكليف أبيها أولاً وزوجها ثانياً بتقديم كافة الخدمات التي تحتاج لها في حياتها.

هذا من جهـة، ومن جهـة أخـرى نلفي فرقاً شاسعاً، كالفرق بين الثرى والثـريا، بين حالتين: حالـة الجـاهلية التي تعرض المرأة للخيانات الجنسية والأخلاقية، دون أن يحميها دين، ولا يغار عليها زوجها الديوث، وحالة الإسلام الذي يحرص على عرض المرأة، ويجعل زوجها درعاً منيعاً، يحميها حتى من أنظار الناس، فضلاً عن كلمات السوء البذيئة.

هذا، وان أراني قد فصلت في هذا العنصـر، فلكـونه ميزة أساسية، قد أغفلها جل المفكرين بعامة، والأدباء والنقاد بخاصة، الذين جعلوا نتاجهم يهدم معنـويات المـرأة، ويشجع على إفساد أخلاقها، بدل أن يرشدها وغيرها إلى طريق الهدى وسبيل الحق والاستقامة والسعادة المرجوة.

٣ـ كرامتهـا: إذا وصمت الجاهلية المرأة بالعار والشناعة والانحطاط في درك الرذيلة، فإن الإسلام قد رفع مكانتها، وأوضح لها أن سبيل الرقي نحو السؤدد والكرامة الإنسانية هو التقوى، قال تعالى ﴿... **إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

بهذا الاعتبار القرآني فإن أي إمرأة تضاهي أي رجل، مهما كان شأنه في الصفاء والنقاء والعبادة، إذا سلكت هي هذا المسلك الإسلامي: مسلك التقوى الـذي يقرّبها إلى الله تعالى. ومن تقرب إلى العليّ القدير أحبه، واصطفاه، وكساه بفيض نوره وسعة رحمته. وفي القرآن الكريم نماذج كثيرة لنساء اليوم، اللواتي يردن تبوّء المكانة الصحيحة ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون**

إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ ﴿يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ آل عمران ٤٢ . ويقول الرسول محمد ﷺ «كمل من الرجال كثير، وكمل من النساء أربع : مريم، خديجة، عائشة، فاطمة» .

ما نستخلصه من هذا الحديث النبوي الشريف شيئان :

أ ـ لقد تحقق كمال هؤلاء النسوة الأربع، بشرط التقوى والإخلاص والتقرب إلى الله تعالى . أما غير التقوى من مال، ومنصب، وجاه، وجمال، وقرابة، وانتماء عرقي وغيرها، فهذا لا وزن له في الإسلام ولا اعتبار ولا قيمة .

ب ـ النسوة الأربع المذكورة في الحديث نماذج رائعة لغيرهن، من نساء العالمين اللائي يبحثن عن السعادة الحقيقية .

ويكفي المرأة فخراً أن القرآن الكريم قد تضمن سورة طويلة تحمل اسمها، هي سورة النساء .

ثم إن تاريخ الحضارة الإسلامية يحتوي على آلاف من الشواهد، تدل على كرامة المرأة واقعياً، منها : أنه وقع في عهد الخليفة المعتصم حادثة إطلاق سراح امرأة مسلمة، قبض عليها في بلاد الروم، بعد أن صرخت قائلة : وإسلاماه! وامحمداه! وامعتصماه! . فما كان من المعتصم إلا أن بعث برسالة مستعجلة إلى إمبراطورية الروم، قائلاً فيها : «ياكلب الروم، إن لم تطلق سراح هذه المرأة المسلمة، فسأبعث لك جيشاً عرمرماً أوله عندك وآخره عندي» . وهذا اقتداء بما فعله رسول الله محمد ﷺ، من طرده لكل طوائف اليهود من المدينة المنورة وضواحيها، بسبب إهانة أحدهم امرأة مسلمة، نزع عنها حجابها الخارجي .

فانظر معي إلى الفرق الكبير بين كرامة المرأة في الإسلام، وانحطاطها في النظم الجاهلية، التي لم تكتف بنزع حجابها الخارجي، بل فرضت عليها أن

تخرج عارية الجسد من الثياب الساترة، وعارية القلب والروح من القيم الفاضلة ومعايير الإيمان القويمة.

٤ـ حقوق المرأة: إن الجاهليات المعاصرة ـ وهي تخدع المرأة ـ تقدم لها حقوقاً هشة فضفاضة، ملؤها الشعارات الكاذبة والكلمات المعسولة، التي ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب والدمار. وما زالت الإحصائيات والشواهد والوثائق تترى، دالة على سوء المنقلب في أحوال المرأة المعاصرة، وتدهور أخلاقها بتدهور مجتمعها.

على العكس من هذا كله، يقف الإسلام موقفاً علميا صريحاً، بتحديده حقوقها الشرعية الطبيعية، وإن أهمها ما يلي:

أ ـ حق الحياة: فقد كانت الجاهلية العربية تئدها خوفاً من الفقر والعار والسبي، يقول الله تعالى ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمكسه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء مايحكمون**﴾. وقال تعالى ﴿**وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾. وليست الجاهلية المعاصرة بأحسن من القديمة، لأنها هي أيضاً تئدها، لكن وأدها أخطر بكثير، إذ أنه يتمثل في ذبح أخلاقها وضميرها وشرفها، عند أقدام الأوثان المعاصرة، كوثن التقدمية، ووثن الفرويدية، ووثن الإباحية، ووثن الكباريات والملاهي الليلية، وهلم جرا.

ب ـ حق التربية: يتوجب على الوالدين أن يربيا بنتهما تربية إسلامية راشدة، تنفعها في الحاضر والمستقبل، ويرياها واجباتها المختلفة: كبنت وزوجة وأم. وبدون تأدية هذا الحق الضروري، يفسد المجتمع بفسادها، وتتحطم عراه بإفلاس معنوياتها.

جـ ـ حق الكفالة: في حالة كونها بنتاً، يجب أن يكفلها والداها، فإن كانت

يتيمة، كفلها فرد من أفراد عائلتها، وإلا تسند كفالتها إلى أحد المحسنين، تحت إشراف الدولة. أما حين تتزوج، فإن زوجها هو الذي يكفلها، ويوفر لها كل حاجياتها الأساسية، دون أن تغمط حقاً من حقوقها. والقانون الإسلامي في هذا الشأن يحميها من كل ضائقة اقتصادية، يتسبب فيها زوجها عن عمد، فيطلقها منه، لتتحرر من ظلمه، ويختارها آخر صالح.

د - **حق الملكية**: إذا كانت بعض الدول المعاصرة لا تعترف بهذا الحق، فإن الإسلام قد سبقها منذ أربعة عشر قرناً، حينما نصّ على أن أموالها وممتلكاتها حق خاص بها، تفعل بها ما تشاء في إطار الحلال، سواء أكانت بكراً أم متزوجة.

ولا يجوز للزوج بخاصة أن يأخذ منها، ولو درهماً واحداً، بحجة الإنفاق على الأسرة، لأنه هو المسؤول الوحيد عن اقتصاديات البيت، اللهم إلا إن منحته نصيباً مما تملك عن رضى وطيب نفس.

هـ - **حق اختيار الزوج**: لا تنكح المرأة إلا برضاها وإرادتها، فلا سلطة للأب أو غيره عليها في هذا الجانب. وهذا دليل على قدرتها العقلية، ونضجها، وإمكانية تمييزها بين الصالح والطالح، لتختار شريك حياتها المستقبلية.

و - **حق الشهادة**: أن لها الحق في أن تدلي بشهادتها في قضايا المعاملات وغيرها، لكن لها نصف شهادة الرجل، وليس هذا لضعف عقلها ونقصها الفكري، وإنما لاشتغالها بأمور المنزل، وتخصصها فيها، وقلة احتكاكها بمشكلات الحياة، بعكس الرجل الذي هو دائم الاتصال بهذه الأخيرة.

ي - **حق العمل**: إذا كان الرجل مكلفاً بالعمل لسد حاجيات أسرته، فإن المرأة لا يفرض عليها هذا فرضاً، لكن إن أرادته عن طواعية ورضي الزوج بذلك، فلها ذلك، وفق شروط سنوضحها في موضع لاحق.

هذه أهم الحقوق التي يتناساها المفكرون والأدباء والنقاد العرب عن عمد،

في معـالجتهم لقضـايا المـرأة، مفضلين اختيارات الجـاهلية، واتجـاهـاتهـا الايديولوجية المنحرفة.

* * * * *

وهناك قضايا حيوية كثيرة عالجها الإسلام معالجة دقيقة لم يسبقه إليها أي فكر بشري ولا أي مذهب وضعي، والأدهى والأمر أننا نلفي في ساحة الفكر والأدب شبهات وتشويهات، غطت حقائقها وشكلت غطاء كثيفاً، منع الأجيال من رؤية الحق، وصرفهم عن الصراط السويّ إلى المفاوز الملتوية المضلة.

لهذا صار من اللازم أن نجلي الغشاء عن هذه القضايا المصيرية، ونبين الصـالـح فيهـا من الـطالـح، والحقيقـة فيها من الزيف. كي ينتبه إلى ذلك المفكـرون والمهتمـون بفنـون الأدب ومنـاهج النقد، فيميزوا بين المضامين الصالحة في عملية التوعية، ليجعلوها محل عنايتهم، والمضامين الخطيرة التي تضر الفرد والمجتمع، ليبعدوها نهائياً عن دائرة نشاطاتهم.

من هذه القضايا الحيوية ما يلي:

١) المرأة والعلم: إن دعاة الحرية الحيوانية يزعمون أن للمرأة الحق في معرفة كل شيء، والذهاب إلى أي معهد أو جامعة، لتنهل من علوم عصرها، كما لها الحق في أن تتبوأ أي مركز علمي أو أي مسؤولية بناء علَى كفاءاتها.

على كل، هذه كلمـة جق أريد بهـا باطـل، فهم يريدون أن يربـطوا المجتمعـات البشـرية بالمـرأة التي هي ذاتهـا مربوطة بمخططاتهم وأهدافهم الدنيئة. لهذا تتمثل النتيجة في أن الشعوب تصير محكومة، بواسطة الشهوات والغرائز والأهواء.

إن الإسلام إذا دعا إلى تعليم المرأة، فإنه ينظر إلى هذا بنظرة حضارية شمولية، لا بنظرة إلى حق بسيط، يتعلق بالمرأة كفرد منعزل عن عجلة التقدم والنهضة. إن موقفه إجابة علمية دقيقة عن السؤال التالي: لماذا تتعلم المرأة؟ أو ما هي

أهداف تعلمها في إطار الحضارة الحقيقة؟

إن الموقف الإسلامي في هذه القضية يمكن تحديده فيما يلي:

أ ـ أول ثقافة أساسية يجب أن تحصل عليها المرأة هي الثقافة الإسلامية الهادفة، الخالية من كل شوائب البدع والتأويلات البشرية الخاطئة، وأخص بالذكر ما له ارتباط وثيق بوظائفها الأنثوية.

ب ـ يجوز أن تتعلم أيضاً ثقافة عصرها، وتنتقي علماً من علومه، لكن يشترط أن ما تنوي تعلمه لا يتناقض مع أصل من أصول دينها، ولا مع أي جانب من جوانب أنوثتها. فما الفائدة التي ترجوها المرأة المعاصرة، حينما تدرس مثلاً الصخور، أو المعادن، أو طبقات الجو، أو الجهاز التناسلي للرجل؟ فإن كانت الفائدة هي الشهادة والسمعة والشهرة، والاختلاط مع الرجال في المعامل وحدائق الجامعات، والجري وراء المال، فهذا شيء آخر، لكن المهم هو أنه ليس لصالح الحضارة.

جـ ـ أن العلوم الحقيقية بالنسبة لها، هي تلك التي تتماشى وطبيعتها، كطب النساء وتمريضهن، وتعليم البنات، وهلم جرا.

د ـ أن الدولة المسلمة كفيلة بتحديد العلوم التي يجب أن تدرسها المرأة، وتجيدها إجادة تامة.

هـ ـ توزيع العلوم على الجنسين يجب أن يستند إلى الفروق الجسمية والعقلية والنفسية الكائنة بينهما.

و ـ توضع الشروط الكافية التي تنشىء جواً تعليمياً إسلامياً، يحول دون السقوط في مشكلة من مشكلات الجاهلية: كالاختلاط، والاستهانة بالقيم، وضياع الحياء، واقتراف جريمة الزنا بين الطلبة والطالبات، وغير هذا كثير.

٢) **التهذيب الأخلاقي والتأديب**: هذه قضية أساسية، يتناساها كثير من الأدباء، لذا فهم يصورون ـ وبخاصة في مجال فن القصة ـ الرجل الذي يؤدب زوجته

شخصية رجعية، محاولين إقناع قرّاء نتاجهم أن استعباد الزوجة، وضربها، وإهانتها من الإسلام.

هذا زعم باطل لا أساس له من الصحة، بل هو دليل على الحقد الشيوعي والصليبي معاً على تعاليم الدين الحنيف، التي هي براء من هذا كله.

إن الإسلام يسوّي بين الرجل والمرأة والطفل في عمليات التهذيب الخلقي، فلا فرق بين هؤلاء الثلاثة، لاحتياج كل منهم إلى معرفة الطرائق الصحيحة في التكيف الاجتماعي. ففي هذا الإطار، يجب أن نفهم أن لتهذيب المرأة، وتقويم سلوكها، وإرشادها أهمية كبرى، لأنها سوف تقود الأجيال الصاعدة. أما إذا أهملنا هذا الباب، وتركناها لحريتها تفعل بها ما تشاء فإنها ستجر وراءها إلى حضيض الحيوانية، فئات كبيرة من شباب الأمة.

بناء على هذا، يجب أن يهذب الوالدان بنتهما، كما يهذبان ولدهما، سواء بسواء، وإن استدعى الأمر التأديب النفسي والمادي: من وعظ، وزجر، وتوبيخ، وتأنيب، وضرب خفيف. لكن يجب أن يراعى مقياس التدرج في وسائل هذا التأديب، بحيث لا ينتقلا إلى وسيلة ما، دون أن يجربا ما قبلها، خشية حدوث كبت نفسي، ورفض مرضي، وانكماش وانعزال في الشخصية.

ولم يسند الإسلام مهمة تأديب البنت إلى الوالدين فقط، بل كلّف بها أيضاً الزوج، في حالة عصيان زوجته، وارتكابها ما لا يحمد، ولا يليق بها فعله، مع مراعاة الشرط السابق الذي هو التدرج الحكيم في عملية التأديب، قال الله تعالى ﴿**واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً**﴾ النساء ٣٤.

٣) **لباس المرأة**: إن أعداء الإسلام يستنكرون بتبجح، دون حياء، حجاب المرأة ولباسها، زاعمين أن هذه عادة رجعية قديمة، وأن المرأة حرة في ارتداء أيّ لباس عصريّ، بل يبالغون أكثر قائلين: أن مسايرة عصر العري والاختلاط

والانحلال تقدمية، وهذه ـ بطبيعة الحال ـ خديعة كبرى، يريدون بها إسقاط المرأة في مهاوي الرذيلة، ومستنقعات الضلال والفساد.

ويقولون أيضاً: أن حقيقة المرأة ليست في مظهرها ولباسها، إنما هي في ضميرها وباطنها النفسي لا غير، فإذا أريد قياس شرفها نظر إلى قلبها فقط.

إن هاتين خديعتان، الغرض منهما سحب بساط الأخلاق من تحت قدميها بصورة تدريجية لبقة، حتى لا تثور ثائرة أحد. ومن أراد تتبع هذه المسألة تاريخياً، وجد أن لباس المرأة بدأ يقصر شيئاً فشيئاً، إلى أن صار شفافاً تارة، وواصفاً للجسد تارة أخرى.

ويفرح الأديب العربي بخاصة أيما فرح، بالفقرات التصويرية التي يكتبها حول هذه المظاهر المبتذلة، كأنه اكتشف قانوناً فيزيائياً، أو صنع آلة عجيبة. إن فرحه ـ ببساطة ـ دليل على خبث نفسه، وتفاهة شخصيته، وحيوانية تفكيره ومشاعره، وهو يريد بالحاح أن ينقل أمراضه إلى الشباب المتطلع إلى كل ما ينقذه من مشكلاته العويصة.

إن الإسلام يعد المرأة الحقيقية تلك التي تطهر قلبها وباطنها، وتستر عورتها وجسدها المغري في آن واحد، أما أنصاف الحلول (الباطن على حساب الظاهر، أو الظاهر على حساب الباطن) فهي مرفوضة مبدئياً.

هذا، وقد اكتشف علماء النفس أن عملية التأثر النفسي تستند إلى المنبهات التي تدخل ضمن دائرة شعور الإنسان المتأثر. فبهذا وحده نفهم أن إظهار المرأة لمفاتن جسدها، تعقبه نتائج سلبية خطيرة على مستويين: مستوى سلوك هذه المرأة الفاتنة، التي تزداد انحرافاً بسبب إعجابها بجسدها، ومستوى الشاب الذي همه كل همه الجري وراءها، والوقوع في مصيدة الجنس، والتخنث، فالشذوذ الجنسي.

نستخلص ـ إذن ـ أن حجاب المرأة ضروري، لأنه يصونها ويصون أفراد

مجتمعها من كل أمراض الجاهلية، التي أغرقت بظلماتها القاتمة كل بقعة من بقاع الأرض.

يقول الله تعالى في شأن فرضية الحجاب **﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن . . .﴾** الآية ٣١ النساء. ويقول أيضاً **﴿يا أيها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفهن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾** الأحزاب ٥٩.

٤) **الإمرة في البيت**: تمكنت الجاهلية من إقناع كثير من النساء بضرورة منافسة الرجال في كل شؤون الحياة، ولم يكن الهدف ـ كما قلنا سابقاً ـ سوى ربط المرأة بأطماع «التقدميين» و«الحيوانيين»، الذين حرصوا على أن يستنزفوا قواها العقلية والعضلية، ويتخذوها مصيدة للقيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية النبيلة.

ونؤكد أيضاً على أن شعارات الجاهليين ليست إلا مجازاً ملتوياً، لا يفهم خلفياته ومقاصده غيرهم، فهم لا يريدون حقيقة أن توجه شؤون المجتمع والبيت، إنما يحرصون كبير الحرص على إشعال نار العدواة والبغضاء بين الجنسين، وبخاصة في مجال الأسرة، لتكون النتيجة الحتمية حدوث الانفصام والطلاق وتشتت الأطفال وضياعهم، وبالتالي ينهار المجتمع بقواه الحيوية.

إن هؤلاء يفرحون أيما فرح، حينما يقرأون ويسمعون أحاديث مفصلة حول هذه الظاهرة، فيسرعون إلى رؤسائهم وقادتهم، مقدمين لهم عروضاً شيقة حول نتائج مخططاتهم الشيطانية هذه. فلننتبه جميعاً إلى هذا المكر والخداع، وليفطن الأدباء والنقاد لذاك الأمر، فيكفوا عن تقليد مدنيات الشر والطغيان والفساد، ويقبلوا على تعاليم الإسلام، لينهلوا منها كل ما يحتاجونه من حقائق ساطعة، ويقينيات مطلقة، إذا أرادوا للأدب أن يؤدي رسالته الحضارية الحقيقية.

على كل، فالإسلام قد وضع كل شيء في موضعه الذي يلائم وظيفته، ويتناسب وطبيعته. وفي هذا الإطار، جعل رئاسة البيت للرجل، دون المرأة، للأسباب التالية:

١ـ دراية الرجل بأحوال الحياة وشؤون المجتمع، لأن لها ارتباطاً وثيقاً بحاجيات الأسرة المادية والمعنوية.

٢ـ كفاءة الرجل العقلية من فطنة وذكاء وانتباه أقوى من كفاءة المرأة في هذا المضمار.

٣ـ ارتباط المرأة الوثيق بشؤون البيت وتخصصها فيها يشغلانها عن كثير من القضايا الهامة.

هذا الموقف الصائب هو مصداق لقوله تعالى ﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم**﴾ البقرة ٢٨٨. وقوله تعالى ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾ النساء ٣٤.

وهذه خاصية طبيعية تتصف بها ظواهر كثيرة، ففي الإدارات والمصانع والمؤسسات وغيرها لا نجد أكثر من رئيس واحد، وذلك كي لا تضطرب الأمور وتنشأ تناقضات عدة لا تحمد عقباها.

ولكن مع هذا، لا يبعد الإسلام المرأة من التوجيه والرعاية داخل البيت، فالزوج الصالح يجب أن يستشير شريكة حياته، في أمور المنزل، واحتياجات أسرتهما، تجنباً لكل خطأ يمكن أن يصيب موقفاً ما، ويناله بسوء.

٥) **بناء الأسر**: إن الجاهليات المعاصرة لا تعير هذا الموضوع أهمية كبرى، ولو أنها ـ مظهرياً ـ تشجع الأفراد على التزاوج وبناء الأسر، لأن الواقع المشاهد عالمياً يتناقض مع ما هو مكتوب في الأوراق، وما هو منصوص عليه في الدساتير والقوانين الوضعية، ويتضح هذا وفق الملاحظات التالية:

١ـ تفكك أسر كثيرة عالمياً، بحيث لم تسلم بقعة ما في العالم من هذه المشكلة الخطيرة.

٢ـ ازدياد نسبة العلاقات الجنسية الحيوانية، بحيث صارت هي الأصل، مكان النظام الأسروي الذي استحال شاذاً لا يقاس عليه.

٣ـ كثرة الخيانات الزوجية، وبخاصة في الأسر المترفة.

٤ـ العلاقات الزوجية لا تظهر حقيقتها إلا في سجلات الأحوال الشخصية، أمّا في الحقيقة فأنت ترى كثرة الخليلات على حساب الحليلات.

٥ـ استحالت معظم البيوت سجوناً لا تطاق، لفقدان القيم الزوجية: من إيمان، ورحمة، وشفقة، وحب خالص ووفاء.

وهناك فرق شاسع بين المؤمن والكافر في تفهم الارتباطات الأسروية، وإدراك أهدافها: فإذا كان الكافر ينظر إلى زوجته، على أنها متاع جسدي شهواني، يقضي حاجته الجنسية بها، فإن المسلم يتسامى فوق هذه العلاقة، عاداً إياها وسيلة لا غير لأغراض إنسانية نبيلة، منها: إيجاد السكينة والموطن الطاهر، والحفاظ على بقاء وسلامة الجنس البشري.

إن المتاع الدنيويّ الجنسي لا ينبغي أن يكون هو شغلنا الشاغل، يلهينا عن المقاصد الحضارية الكبرى، بل لا نعطيه إلا حقه الطبيعي، حتى لا نقع فيما وقع فيه الكفار، يقول الله تعالى **﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾** الأنفال ٢٨. ويقول أيضاً **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** التوبة ٢٤.

وباختصار، إن الجاهلي يجعل نصب عينيه انشغالاته المادية بالأولاد والزوجة، بينما يوجه المسلم أسرته كلها الوجهة الإسلامية، إذ الغاية هي عبادة الله تعالى، لا الأولاد والزوجة. يقول الله تعالى **﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**

وقودها الناس والحجارة. . .﴾ الآية ٦ التحريم.

وما يقال أخيراً في هذا العنصر هو أن الشريعة الإسلامية لم تفصل في كل شؤون الحياة، تفصيلها في شؤون الأسرة، التي تتميز بثبات خصائصها، واستقرار أصولها، على الرغم من تغير الظروف، وتبدل الأحوال.

٦ـ تعدد الزوجات: يتكىء أعداء الإسلام ـ وبخاصة الشيوعيين ـ على هذه المسألة، ليزعموا أن تعاليمه إن ناسبت ـ فرضاً ـ العصور الغابرة، وظروف المجتمعات القديمة، فإنها غير صالحة لمرحلتنا الحاضرة. وهذا بطبيعة الحال زعم باطل، بني على تحليل سطحي، يتجاهل مقاصد الشريعة الإسلامية في هذه القضية.

وقد كثرت الدراسات التشريعية الهادفة حول هذا الموضوع، فبيّنت الأهداف المتوخاة، مع تفصيل منهجي علمي ودقيق، للشروط والضمانات التي تتعلق به، حتى لا تنشأ أيّ مشكلة أثناء التطبيق العملي.

ويؤسفنا كثيراً المنهجية التي اعتمدت عليها المعالجات النقديــة والأدبية العربية لهذا الموضوع، وعلة هذا أنها لا تختلف عما عند الكتّاب الأجانب، فالكل ينبع من مصادر جاهلية صرفة، ما في ذلك شك. فإنت حين تقرأ حول هذا الموضوع قصة أجنبية ثم قصة عربية، فإنك واجد لا محالة تشابهاً كاملاً بين النتاجين الفنيين، على الرغم من التباين اللغوي، وهذا هو التقليد الأعمى عينه، والتبعية الفكرية ذاتها.

فكيف نزعم ـ إذن ـ أن لدينا نهضة فكرية وأدبية «عربية»، ونحن ما زلنا نقلد مستعمرينا القدامى في كل خطواتهم، مغتبطين بعدم خطئنا في هذا التقليد مسرورين بحسن محاكاتنا لهم في كل شيء تافه؟

أين هي هذه النهضة «العربية»؟ وما هي مميزاتها التي تحميها من الذوبان في غيرها؟

إننا نخدع أنفسنا وأجيالنا الصاعدة بدعايات وشعارات وهتافات فارغة لا تسمن ولا تغني من جوع، بدل أن نذهب إلى المعين الصافي الذي لا ينضب: وهو الإسلام، كي نغذي أرواحنا وعقولنا باليقين والحق والخير.

فإذا أردنا أن تكون لدينا نهضة حقيقة، فلا ينبغي أن تكون إلا إسلامية خالصة، لا تعترف بالانتماءات العرقية والجنسية والقومية، وبخاصة في هذا العصر: عصر التكتلات الكبرى.

هذا الاستطراد المفيد يلقى ضوءاً ساطعاً، يكشف لنا المقاصد التي يذهب إليها الأدباء العرب الآن في كتاباتهم، وذلك حينما يصورون الفلاحين الكبار ـ وبخاصة في مجال القصة والمسرحية ـ أناساً شهوانيين، يعددون من الزوجات ليتمتعوا بهن، متخذين أياهن إماء أو خادمات لا قيمة لهن، إلا ذلك المتاع الجنسي الرخيص لا غير. والكتّاب هؤلاء يشيرون بطرق خفية، إلى أن المسؤول الأول في هذا هو الإسلام الذي أباح تعدد الزوجات. وقد صالوا وجالوا في جل نتاجهم فملأوه بأفانين الخيال، وحشروا فيه مختلف الصور، لتكون وسائل لخدمة هذا الغرض الخسيس. وإننا نرد ظاهرة نفور الشباب المتميع من تعاليم الإسلام إلى جملة أسباب، منها هذا السبب الأدبي الذي يتمثل في تصوير المواقف الإسلامية تصويراً مظلماً.

أخلص من هذا كله إلى القول بأن الإسلام يتحدى كل الجاهليين: عرباً كانوا أم أجانب، بمنطقه اليقيني، ومنهجيته العلمية الواقعية. ولذا فموضوع تعدد الزوجات يستند إلى مبررات، غالباً ما تقع في أي مجتمع، منها:

١ ـ **الحروب**: من المعلوم أن عدد الرجال يقل في المجتمع الذي يدخل في معمعة الحروب، وبذلك ينجم عن هذه الحالة الاجتماعية الخطيرة نتيجة لا يستهان بها، هي: رجحان عدد النساء على حساب عدد الرجال، وهذه ـ بداهة ـ تولد مخاطر، تقصم ظهر المجتمع، منها: شيوع الزنا، فساد الأخلاق، الانحلال السلوكي، تخنث الرجال في وسط الجموع الغفيرة من النساء، فضعف في

قواهم المنتجة، قلة عدد الأسر، وهلم جرا.

ومن الأمثلة المعاصرة ما فعلته المانيا من تشجيعها ظاهرة تعدّد الزوجات، كي تنجو من هذه المخاطر وغيرها، على الرغم من أنها بعيدة عن الإسلام وتعاليمه الشرعية.

٢ـ **عقم الزوجة أو مرضها**: إذا كانت الزوجة عقيمة، أو مريضة مرضاً يحول دون تأدية واجباتها المنزلية تأدية وافية، فإن الزوج يضطر إلى اتخاذ زوجة أخرى، وهذه الحالة أحسن بكثير من حالة الطلاق، التي ينتج عنها نفور أفراد المجتمع من هذه المرأة المريضة، وقد تندفع لإشباع غريزتها الجنسية نحو الزنا، فتتكون طبقة من الزيجات خطيرة على الأمة وحضارتها ومستقبلها.

٣ـ **حالة الزوج النفسية**: توجد نسبة قليلة من الرجال، لا تقتنع بنظام الزواج الفردي، وهذا بسبب القوة الجنسية الكبيرة التي يتميزون بها، ففي هذه الحالة لا بد أن يتخذ الرجل زوجة ثانية أو أكثر، خشية الوقوع في الزنا.

إننا نتحدى أعداء الإسلام بالسؤال التالي: لماذا يتخذ معظم المتزوجين في الدول المصنعة خليلات؟

أليس من الأحسن ـ إذاً ـ أن ننشىء أسراً نظيفة بناء على تعدد الزوجات، بدل أن تتحول النساء إلى زانيات، يفسدن مجتمعهن، وينشرن الأمراض الجنسية القاتلة: كالزهري، والسيلان الدموي؟

٧ـ **مسألة الطلاق**: إن الأدب العربي المعاصر لم يفتر من سبّ وشتم «الرجعيين» الذين يطلقون نساءهم، ولم يعي عن محاربة الهدي الرباني الذي يتبنى هذا الموقف، فعوض أن يقدم حلولاً هادفة لمشكلات العصر (ومنها هذه المشكلة)، يأبى إلا أن يزيد الطين بلة، والأمر سوءاً، والأحوال تردياً إلى أسفل سافلين.

ويتظاهر الشيوعيون بخاصة بإشفاقهم على المرأة، ويسيلون دموع

التمـاسيح، كي يخـدعـوا السـذج وبسـطاء التفكير وسـطحييه، بأحـاديثهم المعسولة، والله يشهد، والواقع يبرهن على أن ما يذهبون إليه هو محض افتراء، وتأويل باطل.

وإليك بياناً مجملاً يوضح الحقيقة:

١ـ أن كل الـدول في العـالم ـ وبخـاصـة المصنعة منها ـ تبنّـت قانون الـطلاق، ووضعت مواد تشـريعية تختلف من بلد لآخـر. فلمـاذا يسكت الشيوعيون، ويغضون الطرف عن هذا، مع أنه واضح وضوح الشمس في ربيعة النهار، ويفضلون التهجم على الإسلام؟ إن الدافع الذي يحركهم ـ لا محالة ـ هو دافع التعصب، أما حب الحقيقة فهم عنه براء.

٢ـ إن نسبة الطلاق عالية جداً في العالم بأسره، تنافس نسبة الزواج، بل تكاد النسبتان في بعض الدول تتساويان. وهكذا نلفي الطلاق قد صار قاعدة عامة، وعادة مألوفة لدى الناس. ولا فرق في هذا بين العالمين: الشيوعي والرأسمالي.

٣ـ الطلاق في الإسلام يعتبر حالة استثنائية، حددها الشرع كعلاج أخير، إذا استعصت الأمور، وتفاقمت مشكلات الأسرة. إنه السد الأخير بعد سدود أخرى، نرتبها كما يلي:

١) اختيار صالح لكل من الزوجين.
٢) معاشرة طيبة بينهما، وتناصح مستمر.
٣) وعظ.
٤) هجر في المضجع.
٥) ضرب خفيف في مواضع معينة، لا خطورة عليها.
٦) إصلاح أحوال الأسرة، يقوم به حكم من الزوج وحكم من أهل الزوجة.
٧) الطلاق الرجعي الأول.
٨) الطلاق الرجعي الثاني.

٩) الطلاق الثلاث.

لاحظ معي هذه السدود التسعة نجد أن الحكمة من ورائها، تتمثل في حماية الأسرة من التفكك، والأطفال من الضياع والتشرد. وأن المجتمع الإسلامي الذي ينبني على وعي صحيح، ويحترم كافة الشروط الحضارية، لا يحدث فيه الطلاق إلا نادراً، ولا أبالغ إذا قلت: أن عدد حالاته ستعادل عدد هزات الأرض وزلازلها العنيفة.

وإذا تبنى الإسلام قانون الطلاق، فلينقذ المرأة، أو الرجل، أو كليهما معاً، من جحيم لا يطاق، وسوء المعاملات داخل الأسرة والخيانات الزوجية، وليفتح الباب واسعاً أمامهما، كي يختار كل منهما من يناسبه في العقلية ودرجة التفكير، فيبني عشاً جديداً صالحاً.

يقول الله تعالى **﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً. وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها أن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾** النساء ٣٤-٣٥.

ويقول أيضاً **﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم. وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم...﴾** الآيات من ٢٢٦ إلى ٢٣٢ من سورة البقرة.

وقد عانى كثير من الأفراد من هذه المشكلة في المجتمعات الجاهلية أيام كان الطلاق محرماً، مما دفع كثيرا منهم إلى اتخاذ تدابير شيطانية، للتحايل على هذا القانون الحديدي، منها: نشر افتراءات من طرف أحد الزوجين ضد الآخر، قتل أحدهما للآخر، الفرار نهائياً من البيت، وهلم جرا.

فالحل الحاسم - إذاً - هو ما كان مستنبطاً من قوانين الإسلام الراشدة وشريعته الغراء، بعد أن تطلق قوانين البشر طلاقاً ثلاثاً لا رجعة فيه.

وسنحاول في هذا القسم أن نجيب عن سؤال ذي أهمية كبرى هو: هل يجوز للمرأة في عصرنا هذا أن تعمل كما يعمل الرجل؟ أي: هل نساير المدنيات الكبرى في مسألة توظيف المرأة في شؤون الحياة، وتكليفها مسؤوليات التسيير، كما يكلف الرجل بذلك؟

أراني حائراً مندهشاً أمام تهافت جل الكتاب والأدباء على تعاليم الشيوعية أو الرأسمالية في هذه القضية، كأن هذين المذهبين الوضعيين لا يخطئان أبداً، وكأنهما وصلا إلى الحقيقة عينها دون سواهما. أما الإسلام ـ في نظر هؤلاء ـ فلا يجوز أن يتجاوز الأطر الزمانية والمكانية التي ظهر فيها آنذاك، فهو أشد ارتباطاً بها من غيره، وبالتالي لا تصلح قوانينه لمرحلتنا الراهنة التي تشهد تعقداً كما وكيفاً، في كل مجالات حياة البشر.

على كل، يعد من جملة الافتراءات التي تصنع في معامل الفكر الجاهلي: شيوعيه ورأسماليه، بغية إيقاف المد الإسلامي المعاصر وعرقلة بزوغ فجر الهداية السماوية، بفضل الدعوة الإسلامية العالمية.

وإننا نترك هذه الافتراءات للواقع الجاهلي المعاش الذي يكذبها بمساوئه ومشكلاته الناجمة عنه، وقد ذكرنا في حديثنا الموجز عن تاريخ المرأة، أنها دفعت دفعاً نحو المعامل والمصانع والملاهي والكباريات، لا حبّاً في ترقية أحوالها، بل طمعاً في شرفها وشخصيتها وجسدها وقواها العضلية الضعيفة. فالبرجوازية ـ وتلتها الرأسمالية البشعة التي هي أخطر منها ـ نظرت إليها نظرة مادية: اقتصادية وحيوانية جنسية لا غير، أما قيمتها الإنسانية والخلقية التي تساقطت تساقط أوراق الأشجار في الخريف، فهذه لا شأن لها ولا قيمة، لأنها لا تقاس بموزاين المال والذهب والانتاج.

وعرفنا ـ مما سبق أيضاً ـ النتائج الوخيمة التي ترتبت عن خروج المرأة إلى الشارع، تزاحم الرجل في كل شأن من شؤون الحياة، وتنافسه في كل مجال من مجالاتها، وهذه كلها ناجمة عن تطبيق دقيق وخبيث لمخططات الماسونية

العـالمية، التي تسعى جاهدة إلى إخضاع قوى العالم كلها، بواسطة إفساده وإنهاكه بالجنس، والاستغلال الاقتصادي، والانحلال الخلقي والسلوكي.

لكن ما موقف الإسـلام من هذه القضية الحضارية: قضية عمل المرأة؟ وكيف عالجها علاجاً حاسماً مبنياً على اليقين الرباني، في الوقت الذي انهارت فيه كل التحليلات البشرية التافهة: نظرياً وعملياً؟

لقـد تعـددت الـدراسات الهادفة، وأشبعت الموضوع بحثاً، واستقصت معظم جوانبه، وأذكر منها:

شبهـات حول الإسـلام (محمد قطب) الإسلام (سعيد حوى) الحجاب (المودودي). ولا بأس أن أذكر بعض الملاحظات التالية بشكل موجز، لتبين لنا بجلاء موقف الإسلام الناصع من هذه القضية الحساسة (نستأنس فيما يلي بما ورد في كتاب «الاسلام» لسعيد حوى):

١ـ العمل الأساسي للمرأة، الذي تعطى له الأولوية، هو القيام بشؤون البيت، ورعاية الأسرة رعاية كاملة.

٢ـ غير هذا العمـل الأسـاسي يعـد ثانـوياً، بحيث يشتـرط فيه ألا يؤثـر تأثيراً سلبياً ما، في الـوظيفـة الطبيعية للمرأة داخل البيت، أما إن عرقل أمراً من أمور الأسرة الحيوية، فيجب إبعاده عن دائرة إنشغالاتها إبعاداً تاماً.

٣ـ خروج المرأة للعمل يعرّضها لمشكلات خطيرة، منها:

أ ـ انحطاط أخلاقها وشخصيتها المعنوية تدريجياً.

ب ـ الاختـلاط المفضي إلى سقـوطهـا الحتمي، في أوحـال العلاقات الجنسية المحرمة.

جـ ـ لا يحتـرمهـا الجنس الآخر، ولا يقدرها كما كان يقدرها يوم كانت محتجبة، لا تدنو إلى تجمعات الرجال، فتصير معاملة الرجل لها معاملة الند للنـد. وفي هذا خسـارة لأنهـا ضعيفـة أمـامه، لا تقوى على مقاومة تحدياته وإغراءاته وحيله.

د ـ ضياع أطفالها ضياعاً كاملاً، لأنهم فقدوا المصدر الأساسي للتربية، والركن الركين الذي يغذيهم بغذاء الحنان والشفقة والعطف والحب، وهو غذاء أساسي لا يعثر عليه عند غير الأم.

٤ـ يدّعي أعداء الإسلام والمرأة أن خروجها مضمون، بحيث تقوم المحاضن برعاية أطفالها، أو تتخذ خادماً مربية لهم، لكن ينجم عن هذا من النتائج السلبية ما يلي:

أ ـ ظهور طبقة اجتماعية عريضة من شبيهات الجواري اللواتي يقمن برعاية بيوت أجنبية، تاركات بيوتهن وأولادهن.

ب ـ لا ينمو الولد نمواً تربوياً ونفسياً صحيحاً، في غير حضن أمه، وهذا بشهادات علماء النفس والأطباء الأجانب.

٥ـ يستحسن أن تستريح الأم من أعباء الحياة خارج البيت، وما أكثرها! تاركة زوجها، يغنيها عن الاشتغال بها لتوفره على قوى عضلية ملائمة، ولشدة تحمله لكل الصعوبات.

وبهذا تكون المرأة عزيزة مكرمة مصانة، لأنها مخدومة من طرف زوجها لا خادمة، ويكفيها هذا شرفاً وفخراً. وفي هذا الشأن ما زالت تتوالى الإحصائيات والاستجوابات الاجتماعية، تنادي بأعلى صوت بضرورة حماية المرأة، والحرص على إنشاء أسر سليمة. من هذه الاستجوابات والتحقيقات أن كثيراً من النساء الأجنبيات يتمنين أن يظفرن بأزواج، يغنونهن عن الجري وراء لقمة العيش.

٦ـ إن أحسن حالة هي حينما يعود الرجل من عمله مرهقاً، فيجد زوجته وقد استعدت للتخفيف عنه، وتقديم وسائل الراحة له وأهمها: المودة، والمحبة، والحديث العاطفي الحار.

٧ـ ولا يخفى علينا كثرة الخيانات الزوجية الناتجة عن عدم الاطمئنان والثقة بين

الزوجين، بسبب ارتباط كل منهما بأفراد الجنس الآخر: فالرجل له خليلات، يتعرف عليهن بواسطة العمل، وغالباً ما يزني بهن، ولزوجته خلان، يعبثون بشرفها وعرضها وعقلها كما شاءوا. وبالتالي تمسي الأسرة مكان مناورات وتحايل وخداع وسوء نية: أي جحيماً لا يطاق.

٨ـ بناء على هذا، يحرص الإسلام أشد الحرص على حماية شرف المرأة، فإذا ما سمح لها بالعمل خارج البيت، فبشروط معينة تكون في صالحها وصالح أولادها وزوجها والحضارة بعامة، من هذه الشروط:

أ ـ أن يأذن لها زوجها بالعمل، فيتحقق الشرط النفسي وهو التراضي، ويستحسن أن يكون هذا أثناء الخطبة، كي لا يحدث خصام في الحياة الزوجية فتنفصم عرى الأسرة.

ب ـ ضمان وجود الأمن خارج البيت.

جـ ـ ألا يتعطل بالعمل الخارجي أي شأن من شؤون البيت.

د ـ أن يكون العمل يتناسب وطبيعتها الأنثوية، كأن تكون طبيبة أو ممرضة للمريضات، أو معلمة للبنات وهلم جرا. وهذا الميدان يترك للسلطة التشريعية التي تحدد الوظائف الأنثوية، تبعاً للمصلحة العامة المتطورة، وظروف المجتمع المتجددة.

هـ ـ أن يكون جو العمل والذهاب إليه خلوا من كل رذائل الجاهلية المعاصرة، وهي: التبرج والخلوة بالأجانب، والاختلاط.

و ـ ارتداء الحجاب الإسلامي الذي يصونها من مكر الماكرين، ويصون الشباب من الافتتان، فمغبة السقوط في رذيلة الجنس.

ي ـ توعيتها الإسلامية المستمرة بدورها الحضاري، وحقوقها وواجباتها كلها. وهذا المطلب أساسي، لأنه يجعل نصف المجتمع (النساء) إيجابياً فعالاً، بدل أن يكون سلبياً يهدد مستقبل الأمة.

٩ـ بهذه الشروط القويمة، تستطيع المرأة أن تعمل وتتعلم. وإن تاريخ الحضارة

الإسـلامية مليء بنمـاذج كثيرة: فقـد ظهـرت أديبات متـزنـات، وفقيهـات، ومفسرات، وعالمات، ومحدثات، ومدرسات، ومرشدات.

١٠ـ والإسـلام فتـح أمامها حتى باب الجهاد على مصراعيه، لتشتغل بصورة خاصـة بالخـدمـات العسكـرية العامة: كالتطبيب، والتمريض، والاسعاف، والطهي، وتنظيف الأسلحة، ونقلها مع الذخيرة (إن لم يكف الرجال). أما إذا داهمنا العدو في أرضنا ومدننا، فالقتال يصير واجباً بالنسبة للمرأة.

هذه أهم الملاحظات التي أحببنا ذكرها هنا، ليعلم الأدباء أن المرأة مكرمة مبجلة في رحاب الإسلام، ومهانة محتقرة معذبة مرهقة محطمة الأعصاب، في فجـاج الجاهلية المعاصرة. لقد ضاق العالم العربي بالنتاج الأدبي السخيف الذي يعكف على تقديم المرأة دوماً في أشكال تصويرية حيوانية.

ألم يحن الأوان لغربلة الكتابات الفنية، ورمي كل بذيء منها؟ وإلى متى نبقى مكتوفي الأيدي أمام هذا التقليد الأعمى الخطير؟

ولماذا يرضى الأدباء العرب بمحاكاة الإيديولوجيات الأجنبية في الأدب الذي ينشئونه، تاركين جانباً الأسس الإسلامية، التي تتضمن الخلاص كل الخلاص من مشكلات العصر جميعها؟

* * * * *

الأدب والاقتصاد

للأدب أدوار عدة، ووظائف أساسية، تبين مكانته وقيمته في مجال الحضارة الإنسانية المنشودة، وقد رأينا بعضها في الفصول السابقة (النفس، الأخلاق، المجتمع، المرأة) وسنرى في هذا الفصل ميداناً هاماً، كثيراً ما استغله الماديون وبخاصة الشيوعيين، في تشويه معالم الأدب الصحيحة، وتوجيهه الوجهة المادية الحيوانية الخالصة. هذا الميدان هو البنية الاقتصادية، وعلاقاتها الحيوية بمجالات الأدب.

وفي القسم الأول من هذا الفصل، لا بد أن نلقي بعض الأضواء الكاشفة على مواقف المادية المعاصرة من حقائق الأدب، مركزين على اتجاهيها الكبيرين، ألا وهما: البراجماتية الرأسمالية، والشيوعية الإلحادية. وقصدنا من عرض هاتين النظريتين هو التعرف على مساوىء الفكر البشري، وكثرة أغلاطه الفادحة، حينما ينأى عن المنهج القويم: النهج الرباني، راضياً بأن يخبط خبط عشواء، في ضلالات الجاهلية وظلمات الانحراف والتيه.

* * * * *

موقف المذهب البراجماتي الرأسمالي:

يذهب جل مؤرخي الفلسفة المعاصرة إلى أن للبراجماتية الرأسمالية أصولاً عريقة، تعود إلى العصور اليونانية القديمة، ويخصون بالذكر أثر أبيقور الفيلسوف في ترسيخ وتعميق دعائم النفعية في عقول اللاحقين ونتاجهم.

وتتلخص الفلسفة الأبيقورية في مبدأ خطير، هو: مقياس أي شيء

(محسوس، أفكار، عادات، أخلاق . . . الخ) هو نفعيته لا صحته، فما ينفع الفرد هو الصحيح، ولو كان باطلاً يلحق الضرر بغيره: مادياً أو معنوياً. وقد ركز هذا الفيلسوف على النفعية الخاصة، التي تتخذ محورها الذاتية الفردية، أما المجتمع والعادات، والنظم، فهذه يجب أن تجعل ـ بطرق ملتوية ـ وسائل لنفع الفرد. فإن تعذر ذلك، وجبت محاربتها، وإبدالها بما هو متماشٍ مع مصالح النفعيين وأغراضهم الدنيئة، وأطماعهم الحيوانية.

وانتقل هذا الفكر الفلسفي النفعي متخفياً يتجنب كل الضربات والتحديات طوال قرون، إلى أن وجد له أنصاراً يحمونه، ويكسبونه قوة، وقد كان هذا في عصر النهضة، وبخاصة في انكلترا، حيث ظهر فيلسوفان هما: بنتام وجون ستيورات ميل، اللذان طوّرا وفصلا ونقحا أصول النفعية، لتلائم مادية العصر الحديث، ومتطلبات مرحلتها وظروفها الاقتصادية.

وبهذا تجلت النفعية المادية، وسيطرت على حياة الناس كلها، بجانبيها المعاشي والثقافي، إلى درجة أن التفكير النفعي استحال بديهة لا تناقش، في جو العلاقات الاجتماعية اليومية. وهذا راجع إلى تكرار مبادىء النفعية، والتأكيد عليها، واتخاذها المنطلقات الوحيدة لكل تصرف سلوكي ومعاملة اجتماعية. وقد لعبت وسائل الإعلام والدعاية دوراً هاماً في هذا الشأن، إذ خدرت العقول، وأفسدت النفوس، وخربت الفطر السليمة، وأحالت حياة الإنسان مادية مظلمة، لا تطاق نتائجها الوخيمة.

ولم ينج الأدب بفنونه كلها من أحابيل البراجماتيين وحيلهم «العلمية»، فدفع هو أيضاً في هذا السبيل: سبيل نشر الفكر النفعي، وتصوير أن الحياة تعتمد أساساً على توفير وسائل الراحة المادية، وجمع أسباب المتعة، والحرص عليها، ولو كان هذا على حساب الأخلاق، والقيم الإنسانية، والدين، والعرض، والشرف.

وفي هذا الصدد ظهر نتاج أدبي ضخم، يدور في فلك النفعية، مشيدا

بقيمها، مناضلاً من أجلها مدافعاً عنها على كافة المستويات: المستوى الجامعي، المستوى الاقتصادي، المستوى الإجتماعي، وهلم جرا. وكم من رواية وقصة ومسرحية، حملت لواء المتعة المادية، وأبرزتها في أشكال فنية براقة، واتخذتها مواقف ناجحة لشخصيات أدبية، وكل هذا بغية إنشاء أجيال من النفعيين الحيوانيين، همهم كل همهم الجري وراء المادة، وعبادة الطين، وجمع الأموال، بغض النظر عن كنه الوسائل: أكانت شريفة أم لا.

* * * * *

هذا، وقد ركز الفكر البراجماتي على الفردية، جاعلاً إياها أساس المجتمع القوي، ووضع لمبدئه هذا عدة اعتبارات منها:

١) إذا كان المجتمع ـ أي مجتمع ـ سمي كذلك لأنه يتكون من مجموعة أفراد، فإن هذا يدل دلالة واضحة على أن الفرد ذو أهمية معتبرة، إذ بدونه لا تتكون الجماعات ولا المجتمعات، فالعبرة في هذا بالعنصر الأساسي لا بالمجموعة.

٢) ينبىء تاريخ البشرية قاطبة ـ بدون استثناء ـ أن كثيراً من الوقائع والحروب: قديمها وحديثها، مرده إلى عبقرية الفرد في إيجادها، وتحريكها، وتسخير القوى البشرية والمادية في ذلك.

٣) أن الفكر البشري من أوله إلى آخره قد أنشأه أفراد عباقرة، لا جماعات. لأن هذه الأخيرة تقف دوماً موقف المتلقي الآخذ، لا الباثّ المعطي.

٤) من حقائق علم النفس أن هناك فروقاً فردية بين الناس، تظهر على الشكل التالي:

أ ـ فئة قليلة من الأذكياء والموهوبين.

ب ـ فئة قليلة من الأغبياء والبلداء.

ج ـ الفئة الغالبة من الناس متوسطو الذكاء.

بناء على هذه الحقيقة، يتجلى لنا أن قيادة الجماعات، وتوجيه

المجتمعات والأمم تنسب بصورة طبيعية إلى الأفراد القلائل المتوقدي الذكاء، ليلعبــوا أدواراً كبيرة في إحـــداث تأثيرات كبيرة، في محيطهم الاجتمـــاعي والسياسي والاقتصادي والثقافي.

٥) وهناك اعتبار ديني هو أن الله تعالى لم يكلف جماعات لتبلغ الناس رسالاته، وإنما أسند هذه المهمة لأفراد معينين، تكاملت فيهم الشروط المطلوبة، ليكون كل منهم رسولاً في قومه وأمته.

هذه الاعتبـارات وغيرهـا اتكأت عليها البراجماتية الرأسمالية، كي تقنع النـاس بصحتهـا وواقعيتها، وصلاحيتها، لكن هذا لم يمنعها من الضربات القـاصمـة، والنتـائج السلبية الماحقة، والانتقادات الهادفة التي تبين ضعف فكرهـا النفعي، ومنطلقاتها الفلسفية الباطلة.

وأمامنا بعض هذه الانتقادات الصائبة:

١) أن النفعية منطلق فاسد لا إنساني، لأنه يطلق العنان لدوافع فردية خطيرة، تهدد دعائم المجتمع كالأنانية، والجشع، والطمع، واستغلال الجماعات والمجتمعات.

٢) المجموع أولى وأفضل من الفرد، لأنه لا يمكن أن يعرض الأول للمخاطر والمصاعب لحساب الثاني.

٣) الأدلـة التـاريخية ليست أدلـة صالحـة، بل هي طالحة، لكونها مؤشرات لانحراف البشرية، وطغيان الأفراد، وتجاوز حدودهم الاجتماعية والإنسانية.

٤) بنـاء على السـابق، لا يعد المؤرخون الإنسانيون أولئك القادة السياسيين والعسكـريين الـذين عاثـوا في الأرض فسـاداً، وسفكوا دماء الأبرياء، عباقرة يستحقون كل تبجيل واحترام، بل مجرمين كباراً، ضربوا أسوأ الأمثلة في البغي والفساد والطغيان.

٥) أن الأفراد القلائل الذين تبوّأوا مناصب الصدارة والتوجيه والقيادة، لا تتجاوز قدراتهم العقلية أطـرهم الذاتية، لأن قراراتهم التي يتخذونها، وأوامرهـم التي

يصـدرونهـا، لا مفعـول لها، إلا إذا طبّقتها الجموع الغفيرة، ونفذتها بقواها الضخمة، وطاقاتها الكبيرة. فالفرد ـ إذاً ـ بالمجموع، كما أن المجموع بالفرد.

٦) أن سر الاجتمـاع البشـري لا يتمثـل في الكم العـددي، بل في الكيف العلائقي، ومعنى هذا أن الفرد لا قيمة له إلا في إطار العلاقات الاجتماعية، التي تنظم سلوكه ومعاملاته وأعماله وأخلاقه.

٧ـ إذا سلّمنـا بصحة الدور الكبير الذي يقوم به أفراد عباقرة في مجال الفكر والسياسة، فإننا نقول أن المجتمع السليم هو ذاك الذي يهتم أيضاً بكافة أفراده، حتى الأغبياء منهم، من حيث ترقيتهم الثقافية والاجتماعية. ولا ننسى أهمية المناهج والطرائق التربوية والتعليمية الخاصة بالمعوقين، والتي أثمرت أيما إثمار في رفع مستواهم العقلي. وأمامنا أمثلة عدة، توضح لنا إمكانية جعل الغبيّ ذكياً مبدعاً، ومنها حال العالم الكبير «أينشتين» صاحب الكشوفات الكثيرة في مجال الفيزياء النووية، إذ يروى أنه كان في المرحلة الابتدائية غبياً، لكن مجهوداته المتواصلة صيّرته في نهاية المطاف عالماً مخترعاً، يشار إليه بالبنان.

٨) أن الدين الإسلامي يبين لنا أن الله تعالى هو الذي اصطفى الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهو تعالى الذي تولّى رعايتهـم وإعدادهـم إعداداً ربانياً، يتلاءم ومهمات الرسالة والتبليغ. أضف إلى هذا أنهم ليسوا ـ كما توحي به البـراجمـاتية ـ أفـراداً أنـانيين ذاتيين، بل هم مكلفـون بتسخير كل حياتهم، وقواهم، ومجهوداتهم، لصالح إرشاد المجتمعات البشرية، وهدايتها إلى الهدى والنور والحق.

بهذا تتبخر كل التأويلات النفعية والتفسيرات البراجماتية أمام هذه الحقيقة الواضحة.

هذه أهـم الانتقـادات التي توجـه للبـراجمـاتية الرأسمالية، في ادعاءاتها سالفـة الذكر. ومن ثم نعلم أن ربط الأدب بالفردية، والمصالح الاقتصادية الخاصة، وأطماع القلة القليلة من المجتمع، هو ربط خطير، يسيء إلى سمعة الأدب ذاته ويبعده عن مسيرته الحضارية الحقيقية.

هذا، ولا يمكن أيضاً أن نتخذ ظاهرة العبقريات الأدبية دليلاً على الأهمية المطلقة للفردية وذلك لأن الأديب إنسان اجتماعي بالطبع، يأخذ مادته الأدبية، ومضامينه الفنية، وأصول أساليبه الإنشائية من المجتمع والتراث، على الرغم من من اتصافه بميزات خاصة، ينفرد بها دون غيره. كما أنه يستحيل أن ينبغ أديب ألمعي، في غير الأوساط الاجتماعية، بعيداً عن عادات قومه، وعلاقاتهم الحيوية وطبيعة لغتهم.

فالأدب - أي أدب - اجتماعي وفردي في آن واحد: اجتماعي من جهة الأصول والمضامين والمادة اللغوية، وفردي من جهة مميزات التصوير الفني والتضمين والأسلوب والخيال. من هذا نستنتج أن الأدب ذو كيان عضوي، يتولد من انصهار الجانبين السابقين انصهاراً فنياً خاصاً، يختلف من أديب لآخر، وهذا الاختلاف من شأنه أن يعمل على تطوير الأدب نحو آفاقه العليا، إذا روعيت فيه بالطبع المقاييس الإنسانية الراشدة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى من الخطأ الكبير أن يوجه الأدب وجهة رأسمالية، فيشيد بالبطولات الفردية، كأن الجماهير والقوى الشعبية لا دور لها في توجيه الأحداث، وتحريك الأمور الجسام.

والأدهى والأمرّ أن مفهوم البطولة يستمد من التفكير الجاهلي، والمقاييس المادية، وهذا يتضح من خلال التعريف التالي:

إن البطولة هي مظهر تجلّي الفردية، عن طريق تجاوزها لكل الحدود الواقعية، لتصل إلى قمة القيادة والإشراف. وللبطولة مظاهر كثيرة، بحسب ميادين الحياة البشرية.

إن هذا المفهوم الجاهلي للبطولة ينطوي على أغلوطات كثيرة منها:

١ـ كيف تقاس البطولة؟ أبالنسبة إلى ما أحدثته من تغيير في الحياة الخاصة

والعامة، أم بالنسبة إلى المبادىء التي عملت على خدمتها، وتحقيقها في الواقع؟

٢ـ ما هي الأهداف التي يتوخاها الأبطال، من خلال بروزهم وتحديهم للقوى المعاكسة؟

٣ـ أين المجتمع وقيمه وأخلاقه من حركية البطل؟

هذه الأسئلة وغيرها تفضح نوايا الكتّاب الجاهليين، الذين يخبطون خبط عشواء في تصوير شتى البطولات، فهم يسعون حثيثاً نحو ترسيخ فكرة في عقول القراء، ألا وهي: إحلال العبودية للبطولة والبطل، محل العبودية لله تعالى، وهذا ـ كما ترى ـ حيلة ماكرة، يقصد من ورائها إبعاد الدين الإسلامي عن التفكير البشري، ومحو معالمه ومقدساته من الألباب.

وهكذا ينشغل الشباب بتتبع سير الأبطال، ومغامراتهم العجيبة، وتحدياتهم لقوى الأرض، فيعجبون ببطولاتهم، وشجاعتهم الخارقة للعادة، وبالتالي يدفعهم هذا الإعجاب نحو الإشادة بأفعال كل بطل، مرجعين إليه كل ظاهرة وحادثة. وهذا هو عين العبادة الجاهلية التي تأخذ بالقلوب، وتشد إليها النفوس شداً قوياً. فأين ـ إذن ـ الإيمان بالله تعالى، خالق الكون العظيم، في هذا الركام الهزيل من الآداب الجاهلية المعاصرة، التي تدور حول هذا المحور؟ وكيف يعرف الشباب المعاصر القدرة الإلهية، وهم مربوطون ببطولات تافهة هزيلة: بطولات الأقزام؟ وهل يستطيع الإنسان بهتافاته التي يوجهها لهؤلاء، أن يكتشف السعادة الحقيقية التي ينشدها؟

إن الإنسان ـ بدون الإيمان بالله تعالى ـ لن يتمكن من تقويم حياته تقويماً صحيحاً، وتوجيهها الوجهة الحضارية المطلوبة، وسيبقى ضعيفاً ذليلاً أمام من يعجب به، ويتخذه بطلاً، وستتكون في بنيته النفسية عقدة خطيرة، هي مركب

النقص الذي يفرض عليه تبعية سلبية لغيره، وهواناً كبيراً في تصرفاته وحركيته السلوكية والاجتماعية.

هذا، وإن الآداب الجاهلية المعاصرة تقع في تناقضات عجيبة، مع الواقع الإنساني وحقائق الحياة حينما تبالغ في تصويرها الأبطال تصويراً عجيباً، يصل إلى حد الخرافة والأسطورة، مع أننا في عصر العلوم والمناهج التجريبية، هذا العصر الذي لا يقبل إلا ما يقبله العقل العلمي، ولا يؤيد إلا ما يؤيده الفكر الصحيح. إن دل هذا على شيء، فإنما يدل على التعصب الأعمى لما هو خرافي، على حساب حقائق العلم، بغية محاربة الدين، وبخاصة فكرة العبودية لله، وإسناد العبودية لغير الله تعالى، كالبطل بصورة خاصة (لننتبه إلى دور ترجمة الأساطير اليونانية كالملاحم في هذا الصدد).

وإذا ركزنا في حديثنا هذا على الفردية أو البطولة، فلعلاقتها الوثقى بالبنية الاقتصادية الرأسمالية، إذ أن الكتّاب البراجماتيين ـ وبخاصة الأدباء منهم ـ يولون في نتاجهم أهمية كبرى للفرد البطل، ليقنعوا الناس أن قوى الانتاج لا يسيرها تسييراً اقتصادياً دقيقاً، إلا أفراد قلائل، أوتوا من الذكاء والخبرة والحنكة الشيء الكثير، وهم يذهبون في هذا مذاهب شتى متنوعة، في تصوير هذا الجانب الذي يعد أساس الإيديولوجية الرأسمالية.

هذا فيما يخص أهمية الفرد في الحياة الاقتصادية، أما الفئات الاجتماعية فهي لا تمتلك مقدرات اقتصادية، كما يمتلكها هؤلاء الأفراد الرأسماليون، ومن هنا يحرص الأدب الجاهلي ذو النزعة البراجماتية على تصوير المجتمع تصويراً طبقياً: تمثل الفئة الغنية المترفة صاحبة رؤوس الأموال الضخمة الطبقة العليا الموجهة، بينما تمثل الفئات الاجتماعية والقاعدة الشعبية العريضة الطبقات الدنيا، التي تتلقى كل التوجيهات، رضيت بذلك أم كرهت.

وتحرص الآداب الأجنبية البراجماتية ـ إلى جانب حرصها على تصوير

الشخصيات ذات السمعة والصيت الواسع ـ على إبراز الأدوار الخليعة لشخصيات دنيئة، مستقاة من الفئات الشعبية، لتمثلها شر تمثيل. وهذا مجال واسع جداً، يصول فيه ويجول معظم الأدباء، وبخاصة القصاصين منهم، وله فروع منها: الأدب الجنسي والأدب البوليسي.

إن المقاصد التي ترام من هذا القسم تدور في مجملها حول إفساد ما تبقى من أخلاقيات الناس، ونشر كل أفانين الشر والفساد والانحلال السلوكي. وقد تحقق لكتّاب الأدب أمنتيهم الشيطانية هذه: فإذا تأملت ـ على سبيل المقارنة التجريبية ـ ما يكتب هنالك من نتاج، وما عليه المجتمع الغربي، فإنك تلفي تطابقاً شبه تام بين الطرفين، نرجع سببه إلى ما ذكرناه في فصل سابق، وهو أن الأدب له وظيفتان أساسيتان، هما الوظيفة التصويرية، والوظيفة التغييرية.

وبهذا تكون الآداب الرأسمالية صورة طبق الأصل، للوضعيات الاجتماعية هنالك من جهة، ووسائل تغييرية فعالة من الوجهة السلبية من جهة أخرى. وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن الأدب النفعي البراجماتي، والسلطة الاقتصادية والسياسية يتقاسمان مسؤولية إحداث المساوىء الاجتماعية العديدة، التي ما زالت تزداد إلى يومنا هذا سوءاً وتعقداً وتفاقماً.

نستخلص من هذا العرض الموجز للموقف البراجماتي، أن الأدب في منظوره لا يعدو أن يكون وسيلة لتصوير القيم الاقتصادية الرأسمالية، ونشر الوعي النفعي في أوساط الناس، وبخاصة المثقفين والقراء لتشكيلهم تشكيلاً خاصاً، يتوافق والأبعاد الإيديولوجية المتوخاة.

* * * * *

موقف المذهب الشيوعي:

إن الإيديولوجية الشيوعية لا تقل خطورة عن نظيرتها الرأسمالية، لاعتبارات منها:

١) أنهما تشتركان في الدعوة إلى المادية والإباحية، وتحكيم القيم المادية في كل شيء، ورفض القيم والمقاييس الروحية، لزعمهما أنها من مخلفات الرجعية.

٢) تولد الفكر الشيوعي عن الاتجاهات الفكرية الأوروبية، أي أنه ترعرع في أحضان الرأسمالية وبلدانها، وبالتحديد في ألمانيا التي ظهر فيها (كارل ماركس). فقد قامت فلسفته على ثلاثة مصادر فكرية أوروبية، هي: الاشتراكية الفرنسية، الاقتصاد السياسي الانجليزي، المذهب الديالكتيكي الهيجلي. ولهذا يعد بعض مؤرخي الفلسفة أن الشيوعية نتاج غربي، إلا أنه أخذ شكلاً جديداً، تطور ـ بعد ـ على أيدي آخرين، فولّد تيارات فرعية منتشرة في العالم.

٣) وتشترك الإيديولوجيتان في أنهما تحاربان كل الأديان، وبخاصة الدين الإسلامي، الذي تتميز تعاليمه بميزة كبرى، هي تنظيم الحياة الدنيا، وذلك بأن خصص لها قسماً كبيراً، هو الشريعة الإسلامية الغراء.

٤) كما تتميزان بربط نشاطات الإنسان بالبنية الاقتصادية ربطاً محكماً، ولو اختلفتا في أسلوب التحليل والموقف الخاص.

ونظراً لخطورة المذهب الشيوعي على أمم العالم بعامة، والأمة العربية بخاصة. ونظراً للدعوة الشيوعية الإلحادية التي تهدف إلى قلع جذور الإيمان بالله وصور التدين. ونظراً لحرص الشيوعيين على تحويل الشعوب إلى قطعان، يجب أن تسير ذليلة، لا ترفع رؤوسها، إذ ليست لها صلاحية النقد وإبداء الرأي. ونظراً لمحاربتها المبادىء الانسانية الأساسية: الحرية، والتفكير، والتدين، نظراً لهذه الأمور وغيرها، يستحسن أن نوضح أهم جوانب النظرية الشيوعية، التي يلهث وراءها الشباب المنحل، والكتّاب الذين يزعمون أنهم يقفون على أرض صلبة، لكنهم في حقيقة الأمر تائهون في خرافات اليوتوبيا الماركسية.

وإليك أهم جوانب هذه النظرية:

١) في الجـانب التـاريخي يدّعي كارل ماركس أن الشيوعية (وهي الاشتراك المـطلق والكامل بين أفراد المجتمع في الملبس والمأكل والمشرب والجنس والمسكن) كانت موجودة في العصر البدائي: فالإنسان آنذاك كان يخرج في جماعة للصيد، وبعد رجوعهم إلى الكهف، يتقاسمون ما اصطادوه سويّة، وهذا هو عين النظام الشيوعي، وإن المطالب الأخرى شأنها شأن المأكل، لا فرق بين أفراد الجماعة.

٢) تلت مرحلة الصيد مرحلة أخـرى، تميزت بظهور الزراعة البدائية، حينما اكتشف الانسان أن الأرض تعطي غلات، بعد حرثها بالوسائل البدائية الأولى، المتمثلة في الأخشـاب، التي تربط نهاياتها بأحجار صلبة منحوتة. ففي هذه المرحلة ظهر مفهوم الملكية، لأن كل فرد استولى على قطعة من الأرض معينة، وراح يستغلهـا لمقـاصـده الخـاصـة، دون مقـاصد الجماعة. ومن العناصر المساعدة التي شجعت على ظهور الملكية أن ما يصطاد لا يصلح للبقاء كرأس مال دائم، بينما تتميّز وسائل الإنتاج والأرض والمحصول الزراعي بطول البقاء، كل بحسب طبيعته.

بنـاء على هذا، يستنتـج ماركس أن الفكرة الشيوعية البدائية وليدة بيئـة اقتصـادية معينـة هي بيئـة الصيد، كمـا أن فكرة الحيازة الزراعية وليدة البيئة الاقتصادية الزراعية البدائية. ومن ثم يضع قانوناً حديدياً صارماً، لا رجعة فيه، وهو: الفكرة وليدة البنية الاقتصادية، لا العكس.

٣) تلت المـرحلة الـزراعية البـدائية مرحلـة زراعية أكثر تطوراً، هي المسماة بالمرحلة الإقطاعية، ومن مميزاتها:

أ ـ سعة الأراضي التي يمتلكها الفرد الواحد، وهو المسمى لهذا السبب بالإقطاعي.

ب ـ استغلال الإقطاعي لأفراد كثيرين، يعملون في أراضيه وممتلكاته، مقابل أجور زهيدة لا تقيم أودهم ولا تدفع عنهم البؤس والفاقة.

جـ ـ هؤلاء الأفراد مستغلون هم وزوجاتهم وأولادهم وممتلكاتهم البسيطة.

د ـ لا يجوز بأيّ حال من الأحوال الخروج من أراضي الإقطاعي المستغل إلا بإذن منه.

هـ ـ إذا باع الإقـطاعي بعض أراضيه لإقـطاعي آخـر، وجب انتقـال المستغَلين (بفتح الغين) إلى سيطرة الثاني.

و ـ تأييد الكنيسـة لهـذا التصـرف الإقـطاعي، مخـدرة الجموع الغفيرة المستغَلة بالزعم التالي: لا تجوز الثورة على التقسيم الاقتصادي الحالي، لأنه إلهـي، ومن صبر ورضي فله الجنة والمتاع الأخروي.

٤) ظهر نقيض خطير، حطّم الاقتصاد الاقطاعي، هو النظام البرجوازي، وقد ذكرنا شيئاً من مميزاته في فصل (الأدب والمرأة) فليراجع هناك.

لكن ما يجب أن نضيفه هنا هو ما استنتجه ماركس من هذا التغير، إذ يقول: أن الإقطاعية تمثل القضية، والبرجوازية نقيضتها النابعة منها، ومعنى هذا أن قوى الإنتاج التي امتلكتها البرجوازية هي الإرث الذي انتقل إليها، ويتكون من:

أ ـ الفلاحين الذين صاروا عمالا في المصانع والمؤسسات الاقتصادية.

ب ـ الأراضي الإقـطاعية التي استغل باطنها، عن طريق استخراج الخامات المعدنية والطاقوية منه.

٥) تولّد من القضية ونقيضتها مركب جديد، هو الرأسمالية ذات النفوذ الأوسع والانتشار الأكبر، فإذا كانت البرجوازية نظاماً اقتصادياً صناعياً لا يتجاوز حدود البلاد التي ظهرت فيها، فإن الرأسمالية دفعت أصحابها دفعاً قوياً، لربط دول وأوطان عديدة بنظامها وقوانينها وسيطرتها. وعلى هذا الأساس، يعد المؤرخون المعـاصـرون النفوذ الرأسمالي من العوامل الكبرى للاستعمار، الذي أصاب العالم الثالث، وأذاقه الأمرّين.

٦) نجم عن التـطور الاقتصـادي (من الاقـطاعية، إلى البـرجـوازية، إلى

الرأسمالية) تطور ثقافي وأدبي، حاذاه في كل مراحله، وتأثر بظروفه وأحواله كلها.

يستنتج ماركس من هذا أن البنية التحتية المؤثرة هي في البنية الاقتصادية، التي تتمثل في وسائل الإنتاج المتطورة. وفوق هذه البنية بنيات تسمى بالفوقية، تتلقى مختلف التأثيرات الآتية من الظروف والحياة الاقتصادية: فالسياسة، والمجتمع، والثقافة، والدين، والأخلاق، كل هذه عبارة عن إفرازات للبنية التحتية الاقتصادية، لأن الذين بأيديهم زمام الشؤون الاقتصادية والمادية يسعون لنشر الوعي بين أفراد الشعب، كي ينسجموا مع المقاصد الاقتصادية المراد تحقيقها، والمحافظة عليها.

ومن ثم فالأدب ـ أي أدب ـ هو صورة منعكسة لحياة الإنسان المادية لا أكثر، يستقي مادته الفنية من القضايا والأحوال الاقتصادية المعاشة، وبالتالي فهو يعد سلاحاً قوياً، يمتلكه ذوو السلطات الاقتصادية ليوجّهُوهُ كيفما شاؤوا. وهكذا يصير الأدباء منافقين، يخضعون لمقتضيات ظروف العصر، وأحواله المتغيرة.

٧) يزعم ماركس أن الرأسمالية تتضمن نقيضها، لأنها تؤدي حتماً إلى ظهور أزمات خطيرة، تقضي عليها، وبعدها تعود الشيوعية إلى واقع الناس، وتزول الحكومات التي هي أشكال وضعها أصحاب رؤوس الأموال. وفي نهاية المطاف تصير تلك الأموال ملكاً مشاعاً بين البشر، فتنتفي بالتالي كل المشاكل المحلية والعالمية.

٨) ان البشرية ـ في نظر هذا اليهودي الملحد ـ عرفت الأديان من خلال المواجهات الاقتصادية، والأطماع المادية للقلة القليلة من الأفراد الجشعين، محبّي التملك والاستغلال. فهؤلاء هم الذين أنشأوا الأديان، وزعموا للبشرية أنها سماوية، وغايتهم هي تخديرها، كيلا تنتبه إلى أغراضهم الدنيئة، فتثور

وتقض مضاجعهم. وفي هذا يقول ماركس قولته الشائعة «الدين أفيون الشعوب».

انطلاقاً من هذا التحليل الماركسي، أجهد الشيوعيون العرب نفوسهم، في إدخال الإسلام في بوتقة هذه العبارة النجسة، محاولين إلصاق مختلف التهم به، وكل هذا بدافع التعصب الأعمى، بعيدين عن الروح العلمية والمنهجية الصائبة.

٩) إن الأخلاق عند ماركس شأنها شأن الدين، فهي إطار نابع عن الوضعية الاقتصادية، ومساند لها، وذلك بواسطة دعوة الناس إلى التحلّي بها، فهي عنده قيد لا معنى له، لأنها وضعت من أجل تهدئة أعصاب الناس، كيلا يثوروا على النظام السائد.

إن الشيوعية دعوة إلى هدم كل القيم والمعايير الأخلاقية، بحجة أنها من إفرازات النظم غير الشيوعية (الاقطاعية، البرجوازية، الرأسمالية)، لتحافظ بها على كياناتها وطبيعتها، أما كونها لصالح البشرية، تهذب سلوكها، وتنظم حياتها، فلا.

١٠) يدعو ماركس أيضاً - إضافة إلى نبذ الدين والأخلاق - إلى تقويض مبدأ الملكية الفردية، وإحلال الملكية الجماعية محلها. وبهذا يتعود الإنسان على التعاون والإخاء والمساواة، ويكتسب الروح الجماعية، فتذوب بالتالي الأنانية، والذاتية، ودافع الاستغلال، والأثرة، وما اشبه ذلك من الرذائل.

١١) يجب أن يسخّر العمل الأدبي في الدعوة إلى المجتمع الشيوعي، والتنديد بالنظم الأخرى، مستعيناً بكافة الوسائل الفنية، شريطة أن تتناسب والمضامين الماركسية. وبهذا يكون الأدب الشيوعي أسلوباً فعالاً، يضمن توعية قوية، ونشراً واسعاً لتعاليم الماركسية في أوساط الشعب، وبخاصة الشباب، كما يكون درعاً حصيناً، يقي هذه الايديولوجية من كل الهجمات المعادية.

١٢) يدعو ماركس إلى الإيمان بالديالكتيكية المادية في كل شيء، وهي تطور

الظواهر الوجودية تطوراً مادياً، معتمداً على الصراع بين النقائض، وفق الشكل التالي :

القضية — النقيض — المركب

القضية — النقيض — المركب

القضية . . . . . الخ .

يستنتج من هذا أن كل ظاهرة وجودية لا تعرف استقراراً ولا ثبوتاً، وهذه بطبيعة الحال خطة ماكرة، يهدف من ورائها إلى ترسيخ هذه الفكرة في عقول البشرية قاطبة، كي تنكر كل القيم الثابتة المقدسة، وعلى رأسها الدين، وتكفر بها كفراً بواحاً.

هذه ـ باختصار ـ أهم النقاط والجوانب التي تلقي أضواء كاشفة على الايديولوجية الاقتصادية الماركسية .

بعد هذا العرض الموجز، يجدر بنا أن نسرد الانتقادات العلمية الهامة، التي تكشف لنا الأخطاء الفادحة، والانحرافات الخطيرة التي ارتكبتها نظرياً وتطبيقياً، وذلك فيما يلي (مراعين الترتيب السابق قدر الإمكان) :

١) ان عصر ما قبل التاريخ لم تصلنا عنه الوثائق الكافية، والأدلة المطلوبة، لتكون الدراسة عن تلك المرحلة شاملة يقينية . فما وصلنا هو ذلك النزر اليسير، الذي يتمثل في بعض الأحجار المنحوتة، والرسوم الموجودة في جدران الكهوف والمغارات .

إن هذا النزر القليل لا يمكن أن تعتمد عليه في إنشاء الصورة القديمة إنشاءاً تاريخياً على المستوى الفكري، ولهذا يسقط الادعاء الماركسي الذي هو مجرد افتراض باطل، لا يستند إلى أدلة واقعية، وبراهين تاريخية صائبة .

٢) ويمكن الرد على الماركسيين بالقول بأن في كوكبنا الأرضي مناطق، لم

تمسها المدنية بعد، فيها قبائل ما زالت تعيش بالأساليب البدائية، وهي تشبه بذلك البشرية الأولى في صورها القديمة.

وعلى هذا الأساس فالمقارنة المنهجية صالحة إلى حد كبير، وهي ترينا أن الإنسان يمتلك دافع التملك فطرياً، فهو لا يكتسبه من الواقع الاقتصادي، بل يفرضه عليه فرضاً، ويجعله إطاراً له يتجلى فيه.

وبعبارة أوضح، إن القبائل لا تعرف في علاقاتها الداخلية التشكيلات الشيوعية والنظم العمومية، بل هي بالعكس تعيش على أساس تغلب الأقوى، وسيطرته سيطرة كاملة، على مقاليد الشؤون القبلية.

هذا، وإن وسيلة المعيشة الأساسية في تلك القبائل البدائية هي الصيد، فماذا نشاهد؟ إن الصياد لا يقسم صيده على أفراد قبيلته، وإنما يذهب بها إلى أسرته فقط، مما يدل على دافع التملك الفطري.

٣) إن دافع التملك أصل أصيل في البنية النفسية للإنسان يولد معه، وينمو مع نموه، ويطلب التجلي والظهور في ميدان الواقع الاقتصادي، متخذاً حب التمتع والترف وسيلة لترغيب الانسان في ذلك.

وقد يجد هذا الدافع الحيوي عوامل مشجعة، فيتحقق تطبيقياً، وقد تتحدّاه مثبّطات، فيكبت كبتاً عنيفاً في أعماق النفس البشرية، إمّا إلى حين، أو طول الحياة، وهذا ما تفعله الشيوعية الآن، في كل البقاع التي تطأها أقدامها.

إن الشيوعية تريد أن يكون الانسان مادة صمّاء، لا إرادة له، ولا حرية، ولا مشاعر، ولا دوافع، وبالتالي يجب أن يخضع للنظام العام الذي يسيّره كما تسير الآلة لا أكثر. وهذا خطأ كبير، يتنافى وحقائق علم النفس التي مفادها أن الإنسان كيان ذو دوافع حيوية كبيرة، بدونها لا تستقيم الحياة، ومن هذه الدوافع دافع التملك.

٤) يرى محمد قطب في دراسته القيمة «التطور والثبات في حياة البشرية» أن

دوافع الانسان حقيقة وجودية لا يمكن إنكارها، لكن المشكلة التي ينبغي طرحها هي : كيف تنحرف الدوافع النفسية عن مسارها الحقيقي ، فتصير خطراً على مستقبل البشرية؟

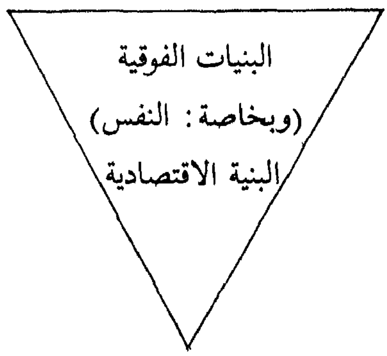
هذا السؤال هو الذي يجب طرحه على بساط البحث والتحليل، أما ادعاء أن البنية الاقتصادية هي التي لها أهلية إيجاد هذا الدافع ومحو ذاك، فهذا محض خرافة، تتناقض مع حقائق علم النفس.

على هذا الأساس، ينبغي أن نفهم أن انحراف البشرية ليس ناجماً عن توجيه وسائل الانتاج لحياتها، وإنما نجم عن سوء استغلال الدوافع النفسية، وتسخيرها في مظاهر الشر، وأفانين الطغيان والاستغلال. وهكذا يكون التأثير أو التغيير نابعاً من الحياة النفسية، ليقع بعد ذلك بشكل من الأشكال على الواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، فيعمل على تغييره، وصياغته الصياغة المرادة.

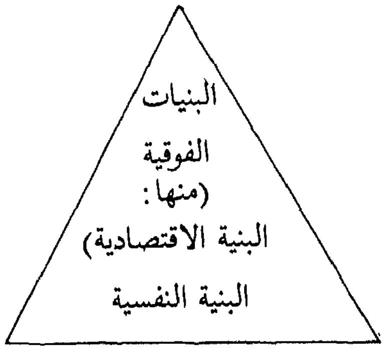
٥) هذا التفسير النفسي المعاصر يوضح لنا مختلف التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية، التي شهدتها المراحل التاريخية المذكورة آنفاً (الاقطاعية، البرجوازية، الرأسمالية).

وتوضيحاً لهذا، نقول: إن وسائل الانتاج ليست هي التي تولّد ظروف الحياة المتجددة دوماً، لأن السؤال الذي ينبغي طرحه هو: من الذي ينشىء وسائل الانتاج، ويطورها كل حين؟ أليس هو الانسان الذي يبدعها بعقله، ويجرّبها؟

إذاً فوسائل الإنتاج التي تشكل البنية الاقتصادية، هي ذاتها خاضعة لكل التأثيرات الآتية من ميدان النشاط الانساني، وبالأخص دوافعه الحيوية الدفينة. وهكذا نكون قد أرجعنا البناء الهرمي إلى وضعيته الطبيعية، بعد أن كان مقلوباً، بسبب التحكم الماركسي الحديدي.



التفسير الماركسي



التفسير النفسي الصحيح

وأنبه في هذا المجال إلى حقيقة أساسية، لا يجب إغفالها، هي أن البنية النفسية التي نقصدها ليست تلك التي يشترك فيها كل أفراد المجتمع، بل هي الحالات النفسية، والدوافع الباطنية لأولئك الموجهين الاجتماعيين، وهم على الأخص: الساسة، العلماء، رجال الاقتصاد. أما نفسيات الأفـراد العاديين، فهي ذات طبيعة تأثرية بعامة، لا تأثيرية.

٦) إن التفسير الماركسي التاريخي الصارم لا يصلح تطبيقه على أمم العالم، فهو مجرد ملاحظات مستقاة من التاريخ الأوروبي فقط، ولهذا لا يتسم بطابع التعميم والشمولية، فلا يأخذ من ثم الصبغة القانونية: فهناك أمم مرت من الاقطاعية الزراعية إلى الرأسمالية، دون أن تعرف مرحلة البرجوازية، وهناك أمم ما زالت زراعية إلى يومنا هذا، وهلم جرا.

إن لكل أمة طابعاً خاصاً وإطاراً مدنياً معيناً، وتاريخاً متماشياً مع طموحاتها، فلا يمكن أن ننظر إلى الأمم على أنها نسخ مكررة، نظرنا إلى العلب المتساوية التي تخرج من المصنع، وهذا هو سر التفاعل المدني والحضاري بينها، وإلا لكان البديل لذلك جموداً وركوداً وتشابهاً مملاً.

والأعجب هو ما يذهب إليه بعض الشيوعيين، حينما تواجههم هذه المشلكة التاريخية، فهم يدخلون في تأويلات غريبة، ويغوصون في تفسيرات خاطئة، لكن المهم هو الدفاع عن شيوعيتهم دفاعاً شديداً. أما أن يرجعوا إلى

الحقيقة الواضحة، والبرهان الساطع، فلا. لأن الذي يمنعهم من هذا تعصبهم الأعمى، وإغراقهم في المادية المظلمة.

٧) لا يمكن القول بأن القضية تحمل نقيضها، إذ لا يعقل أن الشيء يقضي على ذاته بذاته، وإلا فهل يجوز أن نقول: أن البرجوازية خرجت من الاقطاعية؟ والرأسمالية نبعت من البرجوازية؟

هذا خطأ فادح، يتبين لنا أولاً من خلال التحليل الرياضي الآتي:

أ (القضية) ←—— ب (نقيض القضية) ←—— جـ (المركب)

بحيث: جـ = أ + ب

لكن: ب عنصر من مجموعة أ ، أي: ب ∪ أ

إذن: ج = أ

لكن التناقض هو: (+أ) (−ب)

إذن: جـ = أ − ب

لاحظ معي هذا التناقض الرياضي: جـ = أ + ب، جـ = أ − ب.

إن هذا يدل على خطأ النظرية الماركسية، في مبدأ الديالكتيك (أي الجدل) الذي تعتمد عليه.

ويتبين الخطأ أيضاً من خلال التحليل الواقعي التالي: إذا أخذت البرجوازية العناصر الاقتصادية من المرحلة الاقطاعية، وهي: الفلاحون (صاروا عمالاً)، باطن الأرض، فهذا لا يعني أنها أخذت النظام الاقتصادي، فالفرق واسع بين المجالين: مجال العناصر الاقتصادية، ومجال النظام الاقتصادي. ومن ثم، ليس صحيحاً القول بأن المرحلة اللاحقة تضمنتها المرحلة السابقة.

٨) ليس التأثير الاقتصادي هو الوحيد الذي تعترف به الحياة البشرية وتعيشه، وإنما هناك تأثيرات عدة: اجتماعية، سياسية، ثقافية، دينية . . . الخ. فقد

تكـون لظاهـرة سياسية أسبـاب ثقافية أو اجتماعية، ولظاهرة اقتصادية أسباب سياسية، ولظاهرة اجتماعية وسياسية أسباب دينية وهلم جرا. فمجالات الحياة تتبادل التأثر والتأثير دوماً.

نتيجـة لهـذا، لا يقبل المنهج العلمي أي تحكم أو تفسير قسري، لأن حقيقة الأمر هي البحث عن الأسباب التي ولّدت ظاهرة ما، بغضّ النظر عن طبيعتها ومجالها. وإن أي انحراف عن هذا المسار العلمي يوقع الفكر البشري في أخطاء فادحة، قد تنجم عنها اضطرابات في مجالات السلوك، والعلاقات الاجتماعية، والسياسية، وغيرها، كما هو مشاهد في عالمنا المعاصر.

٩) بناء على هذا، نلفي الأدب ليس فقط تطويراً للواقع المعاش، ومنعكسات حرفية صرفـة لحياة النـاس، وإنما هو يضيف إلى هذا دور التغيير والتطوير، فللأدب وزن معتبر، في مجال الحركية الاجتماعية والسلوكية للبشر.

ولنفرض أن السلطة الحاكمة قد أخذت على عاتقها توجيه فنون الأدب، وفق الغايات التي ترومها فإنه في هذه الحالة لا يعدم الأدب دور التغيير، وإلا فلمـاذا تريد السلطة توجيهـه؟ أليس لغـاية التأثير في نفسيات الأفراد، وتغيير عقلياتهم، لتنسجم والمقاصد السياسية المراد نشرها بينهم؟

١٠) وللدين آثـار أشد عمقاً وأقوى تغييراً، بحيث لا يقاس به أي عامل آخر أرضيّ، وأخص بالذكر الدين الإسلامي، الذي أحدث تغييرات جذرية كبيرة في البيئة الجاهلية، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور. وتتمثل هذه التغييرات بداهة في الثورة على كافة الظروف الاقتصادية، والأحوال الاجتماعية والعقليةوالسياسية.

بنـاء على هذا، نكتشف أن البنية الـدينية التي هي الإسلام، تعد البنية التحتية المؤثـرة - إذا استخـدمنـا لغـة ماركس - بينمـا تصير البنية الاقتصـادية فوقية، بدل كونهـا تحتية في النـظرية الشيوعية. وهـذا من كبريات الأدلة على خطأ

التحليل الماركسي، في المجالين: النظري الفلسفي والتاريخي.

وننبه هنا إلى أن محاولات فاشلة، قام بها بعض الشيوعيين العرب، ليبرهنوا على أن النهضة الإسلامية في عهودها الزاهرة ذات أسس اقتصادية انطلقت منها، متخذة الدين صبغة لها، وسلاحاً عقائدياً وثقافياً لنشر الوعي الاجتماعي الثوري، في أوساط الناس آنذاك.

إن فشل هذه المحاولات مرجعه إلى التصنع الظاهر في الاستدلال، والتأويلات الباطلة للنصوص التاريخية الواضحة، والتفسيرات الملتوية لأحداث تلك المرحلة التاريخية. ونحمد الله تعالى على أن ظهرت دراسات إسلامية هادفة، أشبعت هذا الموضوع بحثاً، منها كتاب (التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير) لفتحي عثمان، الذي رد فيه على تلك الافتراءات ردوداً علمية مفصلة. فمن أراد الاستزادة من المعلومات، فليرجع إلى هذا الكتاب بصورة خاصة.

١١) تدّعي النظرية الشيوعية أن البشرية ستنتقل حتماً من المرحلة الرأسمالية إلى المرحلة الشيوعية، التي تنتفي فيها جميع التناقضات الاقتصادية، التي ظهرت في المراحل السابقة، كما تزول فيها الحكومات لا لشيء إلا لأنها نظم أسسها الرأسماليون، لينظموا شؤونهم الاقتصادية، ويحموها حماية قوية. هذا، وإن السلطات الحكومية ـ في المفهوم الشيوعي طبعاً ـ حواجز مصطنعة، تعرقل كافة الأعمال الحيوية، والمعاملات الضرورية، وتفتت القوى الاجتماعية إلى قوى متناثرة.

هذان هما السببان اللذان لفّقهما الشيوعيون، للدعوة إلى مجتمع بروليتاري (أي عمّالي)، خال من كل سلطة حكومية، ومعتمد على شيوعية وسائل الانتاج والتوزيع، لكن الحقيقة هي غير هذا التصور الخرافي، للأسباب التالية:

أ ـ ان ماركس يتناقض مع نفسه، حينما يدعو من جهة إلى أن تطور وسائل

الانتـاج، وبالتالي المجتمعات، يقوم على ديالكتيكية دائمة، أي صراع بين الطبقات مستمر، ويدعو من جهة أخرى إلى أن البشرية ستقف حركياتها كلها، وأشكالها التطورية، في مرحلة أخيرة، هي الشيوعية. فهذا تناقض صارخ واضح لا غبار عليه.

ب ـ تنبّأ ماركس أن أول موطن تظهر فيه الاشتراكية، فالشيوعية، هو انجلترا، لزعمه أن هذه الأخيرة كانت آنذاك أول دولة صناعية، مما تؤهلها ظروفها إلى الانتقال من مرحلتها الرأسمالية، إلى المرحلة الاشتراكية. والأدهى والأمرّ أنه حدد المدة الزمانية التي تظهر بعدها هذه التغييرات، وهي ثمانون سنة، فها هي قد مرت، وتتابعت عشرات السنين بعدها، فما زاد الزمان التنظيم الرأسمالي إلا قوة وإحكاماً ومتانة.

جـ ـ ظهرت الاشتراكية «رسمياً» في الاتحاد السوفياتي مباشرة بعد المرحلة الاقطاعية، فأين هما المرحلتان: البرجوازية والرأسمالية؟ إن فراغاً كبيراً ينشأ ـ إذن ـ في النظرية الماركسية، إذا حاولنا تطبيقها على الواقع السوفياتي.

د ـ إن وسائل الانتاج في المجتمع الإقطاعي السوفياتي لم تغير شيئاً، وإنما الذي غيّر وأحدث ثورة أكتوبر ١٩١٧ هو الفكر الماركسي أولاً، والوعي الثوري السياسي ثانياً، والقوة العسكرية الشيوعية الحمراء ثالثاً. نستنتج من هذا أن البنيات الفكرية والسياسية والعسكرية التي يعدها ماركس فوقية بشكل دائم، قد صارت في حقيقة الأمر بنيات تحتية، ولّدت بنية اقتصادية «فوقية»، هي الاشتراكية.

هـ ـ من عام ١٩١٧ إلى الآن، والاتحاد السوفياتي محافظ على النظم والسلطات الحكومية، والأعجب أن المقارنة بين الحكومة السوفياتية (وهي نموذج لكل حكومة شيوعية) وأي حكومة رأسمالية، تبين لنا أن تناقضاً كبيراً وقع فيه ماركس نظرياً، ومن جاءوا بعده نظرياً وعملياً، وذلك حينما يدعون من جهة إلى تقويض دعائم السلطات الحكومية، ومن جهة أخرى يحرصون على ربط

كل شيء، مهما كان صغيراً، بالجهاز الحكومي، بغية محاربة وكبت الدوافع النفسية للفرد وتوجيهها وجهة شيوعية حديدية. ولهذا السبب، نرى السلطات الشيوعية أشد تعقيداً وأضخم من ناحية الكم، من السلطات الحكومية الرأسمالية، مع أن المفروض هو العكس.

وتوضيحاً لهذا، نقول: أن الحكومة الشيوعية - أيا كانت - تستولي على مقاليد الأمور كلها، بدءاً من الأعلى بالسياسة الخارجية، وانتهاء إلى الأسفل بالخبز والبيض والخضروات. بينما الحكومة الرأسمالية تهتم بمعالي الأمور، تاركة شؤوناً اقتصادية كثيرة، وقضايا وخدمات اجتماعية وثقافية عديدة، لجهود الأفراد الذين يتوفّرون على قدرات وأهليات وكفاءات لذلك.

و - أن الحكومة ضرورة كضرورة الهواء للإنسان، لأن المجتمع الخالي - فرضاً - من أي سلطة حكومية، يعرّض كيانه ومصيره ومستقبله للانهيار والتشتت، لأن طبيعة الاجتماع تقتضي وجود قوة عليا، تهتم بتنظيم كافة الشؤون الحيوية، وتحديد حقوق وواجبات الأفراد والجماعات، وبخاصة في مجتمعات القرن العشرين، التي تتميز بالتعقيدات على المستويين: الكمي والكيفي.

١٢) أن ماركس ينكر انكاراً تاماً حقيقة سماوية وربانية، وهي الأديان: اليهودية والنصرانية والإسلام، زاعماً أنها من صنع الطبقة الحاكمة المستغلة لإحكام القبض على الطبقات الاجتماعية الدنيا، بواسطة ادعاء أن التقسيمات الطبقية وحي من الله تعالى، فلا يجوز أن يثور المحرومون على هذه الأوضاع، وإلا اعتبر عملهم هذا ثورة على الله.

هذا افتراء، وخطأ منهجي واضح، لأن هذا الفيلسوف لم يفرق بين الدين الكنسي، والذي يتميز بالتحريف، والنصرانية الخالية من هذه الشوائب الدخيلة. كما أنه يجهل الاسلام الذي يدعو إلى العدالة والتكافل الاجتماعيين. وإذا لم يشر إليه، فإن أتباعه - وبخاصة العرب منهم - أفرغوا كامل حقدهم عليه، وألصقوا به العديد من التهم الباطلة، وهو منها براء براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

وما زالت الدراسات الإسلامية الهادفة تترى وتتوالى في هذا المجال، مبينة بأساليب علمية وبراهين ساطعة، أن الإسلام دين سماوي، لما يحتوي عليه من مظاهر الإعجاز الكثيرة، ومنها: الإعجاز اللغوي، الإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي بصورة أخص. وأناشد كل قارىء غيور على دينه، أن يطالع هذه الدراسات الإسلامية القيمة، وعلى رأسها كتاب مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية)، وكتاب محمد سعيد رمضان البوطي (كبرى اليقينيات الكونية).

١٣) يدّعي ماركس أن الدين أفيون الشعوب، وله في هذه المقالة نصيب من الصواب، يتمثل في النفاق المسيحي الكنسي، الذي يتجلى في دعوة الناس في القرون الوسطى، إلى طاعة رجال الاقطاع طاعة كاملة، لأنها جزء من طاعة الله.

لكن هذه المقالة خاطئة منهجياً، لكونها تتميز بالتعميم، وكنا قد ذكرنا في البند السابق، أن الإسلام بخاصة يرفض كافة مظاهر الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي والعقائدي. ولا نبالغ إذا قلنا: أن الشيوعية هي ذاتها أفيون الشعوب، بسبب أنها خدّرتهم بشعارات جوفاء، وخدعتهم بخطب سياسية رنانة، وأقنعتهم بأن الحياة الصحيحة تقوم على الارتباط الكامل بتوجيهات الشيوعيين، وعلى القناعة بالبقاء في صفوف الجماهير الموجهة، توجيه الراعي لقطيع غنمه. وتعجبني دراسة قيمة لعباس محمود العقاد في هذا الصدد، وهي تحت عنوان صريح (أفيون الشعوب)، فليطالعها من أراد أن يعرف حقيقة الشيوعية على الصعيد العالمي.

١٤) أما فيما يخص موقف ماركس وأتباعه من الأخلاق، فإن المنهج المتبع في ذلك خاطىء، لأن ربطها بالأحوال الاقتصادية لا رصيد له في الميدان الواقعي والسلوكي، وإلا فكيف يمكن تفسير بقاء قيم أخلاقية فاضلة، كانت موجودة في العصور السالفة، وثبات صفاتها وخصائصها، على الرغم من التغيرات الاقتصادية المتتابعة؟ وما سر تمسك كثير من العقلاء بمقاييس خلقية، تمسك

بها قديماً أجدادنا، ودعا إليها الحكماء، وتضمنتها كتب تراثية قيمة؟

لا شك أن الأخلاق الفاضلة لا شأن لها بالحياة الاقتصادية من جهة التأثر بهـا، بل غالباً ما تؤثر هي (أي الأخلاق) في تلك الحياة، فتشكل النفسيات تشكيلاً صحيحاً، من فوائده توجيه الظروف الاقتصادية الوجهة الصائبة.

وللرذائـل نفس الحكم كذلـك: فكثيـراً ما تحـطمت مصالح اقتصادية، وتعطلت شؤون حيوية عديدة، من جراء فساد أخلاق الناس، وبخاصة ذوي العلاقات الوطيدة بها.

بناء على هذا، لا يصح القول بأن هناك أخلاقاً صناعية، وأخرى زراعية، وهلم جرا، لأن خليقـة الأمـانـة مثـلاً هي هي، سواء أكان المتصف بها في المصنع، أو في الريف. كما لا يعقل أن يكون الشخص كذاباً، أو سارقاً، في محيط اقتصـادي معين، ولا يكـون كذلـك في محيط آخـر. أمـا الكيفيات والشكليات والمظاهر، فهذا شيء آخر يرتبط بخصائص البيئة، لكن المهم هو أن لا تأثير لها في الجوهر والماهية واللب.

١٥) تدعو الشيوعية إلى نبذ ومحاربة الملكية الفردية، وهي في هذا تلح إلحاحاً شديداً، لأنهـا تعتبر هذا الصنف من الملكية من مخلفات الرجعية الكبرى، وأساساً لأخلاق نفعية ذاتية: كالأنانية، والأثرة، وحب الاستغلال.

هذه دعوة باطلة، تفضي إلى ركود اقتصادي خطير على الأمة كلها، ولا تخفى هذه الحقيقة المرّة حتى على الشيوعيين أنفسهم. ولا نزال نذكر الخطاب الشهير والطويل الذي ألقاه «خروتشوف»، في مجلس السوفيات الأعلى، على أثـر تعيينـه رئيسـاً للاتحـاد السـوفياتي، فقـد فضـح الشيوعية، مبينـاً أن خمسة بالمائة من نسبة الأراضي الزراعية (وهي مجموعة المساحات الصغيرة جداً، التي تحيط ببيوت الفـلاحين، الـذين يشتغلون فيهـا، بعـد عودتهم من الكولخـوزات والسـوفخـوزات) والتي تعد ملكيات فردية صغيرة، قد أعطت إنتاجاً ضخماً، وصلت نسبته إلى ٧٥ بالمائة من المحصول العام. وعلى هذا الأساس، حاول

أن يوسّع تلك الملكية الفردية شيئاً ما، لكن كانت النتيجة إقالته من منصبه.

نستنتج من هذه الحقيقة الواقعية (وهناك مئات منها)، أن الفرد يبذل قصارى جهده فيما يمتلكه، بدافع فطري باطني، هو حب التملك. ولهذا اعتمد الاقتصاد الإسلامي ـ كما سنرى ـ على ركنين كبيرين، هما: الملكية الفردية، والملكية الجماعية، محدداً حصانات وضمانات، تصون بخاصة ممتلكات الأفراد، وفق شروط معينة، مما يدل على أهمية المبادرات الفردية في تنشيط الحياة الاقتصادية العامة.

إن الملكية الفردية تتصورها الشيوعية استغلالاً للشعب كافة، ووسيلة منظمة لتحقيق أطماع فئة من الأفراد قليلة، لكن الإسلام يعتبرها ركيزة ضخمة ـ وفق شروط ومعايير ـ تفيد الأمة كلها، وتدفعها نحو الرقي والازدهار والسعادة، في كافةالمجالات، فضلاً عن المجال الاقتصادي.

وقد أثبت علماء الطبيعيات أن بعض الفصائل الحيوانية يستند في حياته ـ على الرغم من بساطتها وروتينيتها ـ إلى غريزة التملك، فما بالك بالإنسان ذي البنية النفسية المعقدة، والحياة المتطورة والمتشعبة الفروع؟

١٦) أما موقف الماركسية من الأدب، فهو أيضاً متناف مع الحقيقة نظرياً، وعملياً وذلك في الأمور التالية:

أ ـ ربطت السلطات الشيوعية النتاج الأدبي بمقاصد الإيديولوجية الحاكمة، فارضة على ذويه أن يجعلوها قطب الرحى والمحور الأساسي لكل كتاباتهم الفنية. ونجم عن هذا الربط والفرض أنضاق مجال الأدب، وانزوى في جانب معين، تقيده المضامين الشيوعية، وتفوح منه رائحة النفاق.

ب ـ فقد الأدب الشيوعي مجالات كثيرة، ذات أبعاد جمالية رائعة، واستتبع هذا ضعفه وركوده ووقوعه في التكرارات المملة.

جـ ـ إن من مثبطات النتاج الفني القيّم طريقة الالزام الشيوعية. وبالمقارنة نلفي

الآداب الشيوعية في كل مكان، متخلفة كماً وكيفاً، عن آداب العالم تخلفاً ملحوظاً.

د ـ إن رفض النقاد الماركسيين المحلّقين فنيات أدبية كثيرة، بحجة أن أصحابها غير شيوعيين، أدى إلى تقوقع الأدب الشيوعي، وعدم تفتحه على غيره لغرض الاستفادة، وهذا دليل جليّ على انحساره المستقبلي من حياة البشرية.

هـ ـ قيام الأدب الماركسي بدور هدّام، ألا وهو: محاربة كل القيم الانسانية، ونشر الإلحاد والإباحية ودعوة الناس إلى الكفر البواح بالأديان، وبخاصة الدين الإسلامي.

هذه ـ بصورة عامة ـ أهم الانتقادات العلمية، التي توجه للنظرية الاقتصادية الماركسية، وموقفها من قضايا الحياة بعامة، وقضايا الدين والأخلاق والأدب بخاصة، ونأمل من النقاد والأدباء العرب أن ينتبهوا إلى ذلك كله، مستعينين بوسائل البحث الصحيح، والتنقيب الدقيق عن كل المذاهب الهدامة، والتشهير بها، والعمل على إقامة دعائم أدب إسلامي، وتشجيع كل الفنانين الملتزمين بالتعاليم الربانية، التوجيهات النبوية، تشجيعاً مادياً ومعنوياً.

* * * * *

بعد عرض النظريتين: الرأسمالية والشيوعية، وتبيّن جوانبهما المختلفة، والتعرف على مختلف الأخطاء التي اكتنفتهما منهجياً ونظرياً وعملياً، وانعكاس هذا كله على مسار آداب العالم، يجدر بنا أن نتعرف على أهم الأسس الاقتصادية التي يدعو لها الدين الإسلامي، والمقاصد الكبرى التي يحث المسلم على تحقيقها اقتصادياً واجتماعياً. وغايتنا هي أن يسلك الأدب العربي المعاصر المسلك الحضاري الصحيح، متجنباً المزالق الحالية الخطيرة التي وقع فيها، وذلك بأن يعتني الأدباء في كتاباتهم الفنية بالمضامين الإسلامية، المرتبطة بكل مجالات حياة الإنسان، ومنها المجال الاقتصادي المعاشي الذي نحن بصدد تحليله.

وأراني معجباً بالتبويب الدقيق، والتحليل المنهجي اللذين تتميز بهما الدراسة الاقتصادية، التي قام بها المفكر الإسلامي المعاصر سعيد حوّى، في الجزء الثالث من كتابه (الإسلام)، ولهذا السبب سأستأنس -فيما يلي- بهذه الدراسة القيمة، مستفيداً من بعض نقاطها وجوانبها، التي لها علاقة ببحثنا.

إن أول قضية يتناساها كثير من الكتّاب المعاصرين هي: الأخلاق الاقتصادية الاسلامية، وأهميتها في تنمية القوى المنتجة من جهة، وتطوير حياة الانسان أخلاقياً وسلوكياً واجتماعياً من جهة أخرى. ونعني بالأخلاق الاقتصادية الإسلامية كل الوصايا والتعليمات والآداب، التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم، كي تجنّبه الوقوع في موبقات وخطايا، لها مساس بالحياة الاقتصادية. كما تتمثل أهمية تلك الآداب في دفعه قدماً، نحو العناية بالتخطيط الاقتصادي الشامل، وربط أهدافه بالحاجيات الاجتماعية للفئات الشعبية، وبخاصة الفقراء منهم.

وإليك أهم القيم الأخلاقية الاقتصادية التي يحثنا الإسلام على التحلّي بها، بينما يتغافل عنها الأدباء العرب المعاصرون، وقد يحاربها بعضهم، ملصقاً بها تهمة الرجعية:

١- **الحلال والحرام في الطعام والشراب**: لقد أوضح الإسلام للمؤمنين كافة، في كل زمان ومكان، حدود المأكل والحلال والمشرب الحلال، وما يقابلهما من حرام. وسر هذا هو تطهيرهم من كل ضرر يلحق بهم. كما أن الغاية تتمثل في ربطهم بخالقهم المشرّع، ذي الحاكمية المطلقة، وهذا وجه كبير من وجوه العبادة والإنابة والطاعة في الإسلام.

إن وراء كل ما حرمّه الله تعالى حكمة ومقصداً، وقد يظهر هذا للمسلم، وقد يكون خفياً إلى يوم الدين، علمه عند الخالق سبحانه وتعالى. وفي هذا فرق كبير بين الكافر والمسلم: فإذا كان الكافر يأكل كل شيء، ويشرب أيّ شيء، بمقتضى هواه وشهواته وإباحيته، فإن المسلم لا يرضى بهذه الفوضى المطلقة،

والإباحية الحيوانية. إنه يريد أن تكون حياته منتظمة الأطوار، مستقيمة الأحوال، موجهة توجيهاً ربانياً، مقتبساً من هدي الله تعالى، وسنة الرسول المصطفى ﷺ.

نتيجة لهذا، يرتبط المسلم بخالقه عقائدياً وتشريعياً، فالله هو الخالق المعبود الحكيم الذي جعل في كل شيء حكمة، ولكل شيء مقصداً. وبالتالي فهو الحاكم تستند إليه الحاكمية، دون مخلوقاته الضعيفة. وبهذا يعيش المسلم حياته كلها بطاقات روحية تعبدية، راضياً بعدالة الله تعالى، ورحمته التي من مظاهرها حماية العبد ووقايته من كل سوء ومكروه.

فالمحرمات - كما رأيت - هي تلك التي تضر الإنسان، سواء أكان الضرر معروفاً، أم في علم الغيب لم يكتشفه العلم بعد، أم لن يكتشفه، ومنها:

أ - **الخمر وكل مسكر**: إن الإسلام يمنع المسكرات جميعها، لأنها تفسد الأخلاق والذمم، وتشتت عرى الأسر، وتبدد الأموال، وتشل قوى الأفراد كلها: العقلية منها والجسمية، فيقل المردود الاجتماعي، ويندر الابداع العلمي والثقافي، كما يورث الجسم أمراضاً خطيرة، غالباً ما تنتقل إلى الذرية.

ب - **أكل لحم الخنزير**: لقد فشا في الغرب الانحلال في العلاقات الأسروية والاجتماعية، وهو يتجلى في الاختلاط والزنا، واتخاذ النساء والفتيات وزوجات الغير خليلات، على مرأى ومسمع من كل الناس. ولعل من الأسباب الكبرى في هذا أكل لحم الخنزير. يقول الله تعالى **﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** البقرة ١٦٧/١٦٨.

إن هذا الحيوان لا يغار على أنثاه كبقية الحيوانات الأخرى، فانتقلت هذه الطبيعة الدنسة، بشكل بيولوجي، إلى المجتمعات المنحلة، ومن ثم استحال الرجل هنالك ديوثاً، يستقبل أصدقاء زوجته وبناته بكل ترحاب، وينظر بقلب ميت إلى رقصة تجمع بين زوجته وخليلها، وقد تتأخر هي أو بنته عن موعد الدخول إلى المنزل إلى منتصف الليل، ولا حراك من هذا الرجل الديوث، ولا

سؤال، ولا قلق، كأن الأمور طبيعية لا غرابة فيها.

والأعجب أن الأدب العربي المعاصر يتضمن هذه القضايا ببلادة حس، وبرودة قلب، وجفاف روح، مصوراً إياها بطرائق فنية جذابة، كي يوقع شبيبتنا المتطلعة الناهضة في رذائل الغرب وشروره.

جـ ـ أكل لحم الميت وما ذبح لغير الله وشرب الدم: إن لحم الميتة والدم محرّمان، لكونهما ملوّثين بجراثيم خطيرة، من شأنها أن تودي بحياة من يتخذهما غذاء له. أما المحرّم الثالث (**ما ذبح لغير الله**) فهو ذو بعد عقائدي، لأن **الله** تعالى يريد من عباده المسلمين أن يرتبطوا به في كل شأن، ويقيموا حياتهم من أدناها إلى أعلاها على عبادة الله تعالى. وعلى هذا ترفض الذبيحة التي سمي عليها غير اسم الله تعالى، كي يكون القلب موصولاً بالخالق سبحانه وتعالى، بعيداً عن أدناس الشرك والوثنية واتباع الطاغوت.

هذا، وقد ثبت علمياً أن المأكل والمشرب لهما دخل معين، في تشكيل شخصية الانسان، وتكييفها وفقهما. فالرجل النباتي يختلف نفسياً عن الرجل آكل اللحم، كما أن فروقاً كبيرة كائنة بين آكلي اللحم الحلال وآكلي اللحم الحرام، وقد أوضحنا شيئاً من هذا فيما فوق.

٢) حق العمل وآدابه:

لقد حث الإسلام معتنقيه على أن يعملوا ويبذلوا قصارى جهودهم في تعمير الأرض، واستخراج خيراتها وكنوزها الدفينة، واستثمار كل طاقاتها لفائدة البشرية، وبخاصة في هذه الظروف العصيبة، التي اختنقت بمعترك الصراع الاقتصادي بخاصة، والمدني بعامة.

ومن هنا لزم على المسلمين أن يثبتوا وجودهم، ويبرهنوا على صحة نظامهم الاقتصادي، وصلاحيته المطلقة، وانسجامه مع كل التغيرات والتطورات، بفضل فتحه باب الاجتهاد على مصراعيه، في القضايا الفرعية جميعها.

ولـو تأملنـا ملياً في النصـوص الإسـلامية المتعلقـة بحق العمل وآدابه، والتطبيقات المثالية التي ظهرت في العصر الإسلامي الزاهر، لاكتشفنا أن قمة الاجتهاد والمثابرة لا وجود لها إلا في النظام الإسلامي.

من هذه النصوص:

١) قال عليه الصلاة والسلام «إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده» رواه الإمام أحمد.

٢) قال الله تعالى ﴿**وسخر لكم ما في الأرض**﴾ الحج ٦٥.
٣) قال الله تعالى ﴿**إن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ الأنبياء ١٠٥.
٤) قال الله تعالى ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه**﴾ الملك ١٥.
٥) قال الله تعالى: ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾ الجمعة ١٠.

٦) قال عليه الصلاة والسلام «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره فيبيعه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» رواه البخاري.
٧) قال عليه الصلاة والسلام «وما فتح عبد باب مسألة إلا زاده الله بها فقراً» رواه البخاري.

ويكفينا دليلاً ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية، وحققته في المجالات العلمية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية، إلى جانب هذا لا يمكن أن نقارن بين ما قدمه العلماء المسلمون من بحوث قيمة، واجتهادات واسعة، وما يقدمه علماء اليوم. فقد كان علماء الحديث مثلاً يسافرون، قاطعين مسافات طويلة من أجل تصحيح بضعة أحاديث.

نستنـج من هذا أن العمـل اليوم مقـوّم أسـاسي من مقـومـات الحضارة الصحيحة، لذا فرض الإسلام على العامل أن يتقن عمله، ويواظب على العناية

بالكيف، مطهّراً نفسه من الطمع والجشع، وكل أسباب حب المادة، يقول الرسول ﷺ «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه».

وقد أوصى الإسلام العامل، وبخاصة التاجر، بألا يتصف بالأخلاقيات الفاسدة التي عمت بلواها، وفشت ظلماتها في كل بقاع الأرض، منها: إخلاف الوعد، والخداع، والكذب، والحلف، والغش. يقول رسول الله ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» متفق عليه. ويقول أيضاً «التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء». ويقول أيضاً «اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب».

وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يكون المرء تاجراً، إلا إذا عرف الحلال والحرام، وميّز بينهما، وقولته المشهورة في ذلك هي (لا يبع في سوقنا إلا من تفقه في الدين).

كما يشترط على الموظفين مقاييس الكفاءة والأهلية والإخلاص، كي لا تتعطل المصالح العامة، بسبب الضعف في المسؤولية، ونقص القدرات المطلوبة. يقول الله تعالى ﴿**إن خير من استأجرت القويّ الأمين**﴾ القصص ٢٦، ويقول أيضاً ﴿**اجعلني على خزائن الله إني حفيظ عليم**﴾ يوسف ٥٥.

قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها».

وإن أول من يقوم للعمل بعيد فجر كل يوم هو المسلم، وهذا دليل كبير على مواظبته على العمل، واجتهاده وتفانيه في النشاط اليومي.

٤ـ الحدود الأخلاقية والتشريعية لحرية الإنسان الاقتصادية:

أ ـ **تحريم إتلاف المال:** إن إتلاف المال حرام، سواء أكان عاماً أم جزئياً، ولا عبرة هنا بالأسباب. ومما يلفت النظر ظاهرة إتلاف جزء من الانتاج، مقابل

المحافظة على غلاء الأسعار في الأسواق، وهذا يدل على الجشع الذي يتميز به كثير من الملاك وأصحاب رؤوس الأموال، وأرباب المصانع في وقتنا المعاصر.

ب ـ تحريم التبذير والإسراف: قال الله تعالى **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾** الفرقان ٦٧.

جـ ـ وجوب بيع ما يضطر إليه الناس: ولكن دون رفع الأسعار.

د ـ منع الإنسان من التصرف إذا أدى إلى إضرار الآخرين: لحديث «لا ضرر ولا ضرار».

هـ ـ إسقاط ملكية الإنسان إذا تعلقت بحق العامة.

و ـ تحريم ربط الملكية بما هو حرام: مثل أن يصرف الإنسان على استئجار المغنّي، والنائحة، وشراء حيوانات الزينة كالقردة والعصافير، وشراء آلات الغناء والموسيقى، وبيع ما يؤول إلى حرام، كالعنب الذي يعلم أنه سيحوّل إلى خمر، والأرض التي سيبنى فوقها ملهى، أو كنيسة، وهلم جرا.

ي ـ تحريم الرشوة في سلب حقوق الغير: قال الله تعالى **﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾** البقرة ١٨٨.

هذه أهم الأخلاقيات الإسلامية التي لها أشد الارتباط بالحياة الاقتصادية، فليحرص الأدباء على أن يضمّنوها في نتاجهم، ويبتعدوا كلية عن التوجيهات الجاهلية المضلة. وبهذا المسلك وحده يمكن أن تتحقق نهضة اقتصادية صحيحة، ذات منطلقات روحية وسلوكية راشدة.

بهذا العرض الموجز لأهم القيم الخلقية الاقتصادية، نكون قد تبيّنّا الأسس النفسية التي يعتمد عليها الاقتصاد الإسلامي، في الوقت الذي نلاحظ أن النظم الاقتصادية الوضعية منفصلة كلية عن نفسيات الأفراد الجاهليين، الذين همهم

كل همهم تحقيق الأطماع الذاتية لا أكثر. لذا نلفي الرقابة هنالك شديدة ومعقدة، لكن لا تزيد المشكلة الاقتصادية إلا تعقيداً وتأصيلاً.

فالنهضة الاقتصادية الصحيحة لا تستمد مقوماتها وأسسها الصلبة، إلا من نفوس الأفراد الملتزمين بالمبادىء المسطرة والتوجيهات النيّرة والوصايا الحقيقية، ولن يكون ذلك كذلك إلا في إطار إسلامي، لأنه يربي أولئك على الرقابة الذاتية، المعتمدة على الاعتقاد الجازم بمراقبة الله تعالى لكل صغيرة وكبيرة. يقول الله تعالى **﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾** آل عمران ٥.

ويقول أيضاً **﴿إن ربك لبالمرصاد﴾** الفجر ١٤، ويقول أيضاً **﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾** غافر ١٩.

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» رواه الترمذي (حديث حسن).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبيّ ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلى بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف» رواه الترمذي (حديث حسن صحيح).

وعن أنس رضي الله عنه قال: أنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات. رواه البخاري.

* * * *

إن القيم الخلقية الاقتصادية في الإسلام تعد - إذاً - الأسس التي ينبعث منها نظام اقتصادي سليم، ذو خصائص لا وجود لها إطلاقاً في غيره من نظم

البشر. فما هو هذا النظام الاقتصادي الفريد من نوعه، الذي يستمد مقوماته من دستور السماء؟ وما خصائصه التي تجعله يتبوأ المكانة العالية، في حين تتمرغ المذاهب الوضعية في الطين والأوحال؟

إن الإجابة عن هذين السؤالين المهمين تتضمن الجوانب التالية:

١ـ التنظيم العام للتملك.
٢ـ الطرق المشروعة للتملك.
٣ـ الطرق غير المشروعة للتملك.
٤ـ طرائق حل المشكلات الاجتماعية.
٥ـ ميزات وأهداف التملك الإسلامي.

أما التنظيم العام للتملك، فيراد به وضع الحدود الكافية والشروط اللازمة لتملك الأفراد، بحيث لا تتضرر الملكيات الخاصة لحساب الملكيات العامة، ولا العكس. فيكون هناك توازٍ بين المجالين وتوازن وظيفي عضوي: أحدهما يكمّل الآخر ويحتاج إليه.

وقد وضع الإسلام نظاماً اقتصادياً، يتماشى وفطرة الإنسان وطبيعته، وهذا عكس الإيديولوجيات التي خبطت خبط عشواء، فنأت عن الخط المستقيم، لكونها لم تفقه هذه الفطرة البشرية، وتلك الطبيعة النفسية. ولهذا وقعت إما في الإفراط أو التفريط، وفي كليهما ضرر أي ضرر على مستقبل البشرية. وهذا ما رأيناه سابقاً بوضوح في الفلسفتين: الماركسية والبراجماتية. فموقف الأولى تميز بالتفريط، أي رفض مبدأ الملكية الفردية، بينما موقف الثانية تميز بالإفراط، أي إعطاء الحرية كل الحرية للأفراد، في تصرفاتهم ونشاطاتهم الاقتصادية، على حساب المصالح العامة.

على العكس من هذين الموقفين الخاطئين، يقوم نظام التملك الإسلامي على ركيزتين؛ ركيزة الملكية الخاصة، وركيزة الملكية العامة. وبهذا تظهر

الطاقات جميعها، وتتضافر الجهود كلها، من أجل إقامة نظام اقتصادي واجتماعي سليم الأطوار.

هذا، وقد أشرنا سابقاً إلى أن الأفراد لا يتساوون في الخصائص والسمات، ولا يعني ذلك أن العدالة غير بادية في هذا الخلق، بل العكس صحيح: فالله تعالى قد جعل الناس غير سواسية، من جهة الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية، رحمة بعباده، إذ لم يوجد في التاريخ، ولن يوجد مجتمع، تشابهت أعمال أفراده تشابهاً تاماً. وقد ذكرنا أن ابن خلدون درس هذه الظاهرة، فاكتشف أن سر تنوع وظائف الأفراد هو التكامل العضوي، في نتائج الأعمال الاجتماعية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يستحيل أن نفرض مساواة شكلية على أي مجتمع، لأنه يترتب عن هذا ظلم كبير، وتضييع كليّ لحقوق الأفراد. وبعبارة أوضح: أننا بهذا النمط من المساواة، نأخذ من جهود النشيطين ما نمنح الكسالى إياه، ونثبّط العزائم، ونعوّد الناس الخمول.

فسنة الله في خلقه أن يتفاضل الناس، ليتحقق التعاون، ويشمّر كلّ عن ساعده، وبالتالي لا يطمع في مجهودات المجتهدين. قال الله تعالى **﴿والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق﴾** النحل ٧١، وقال أيضاً **﴿وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾** الأنعام ١٦٥. وقال عز وجل **﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾** الزخرف ٣٢.

إن النظام الاقتصادي الإسلامي لا يعترف بالطبقات الاجتماعية، التي يفشو بينها الظلم والاستغلال والاحتكار والسيطرة، لكنه يعترف بنظام الدرجات الاجتماعية، وهذا ـ كما قلنا ـ متماش مع الفروق الفردية، واختلاف رغبات الناس وتنوع وظائفهم.

إلى جانب هذا، لا يمنح الإسلام للأفراد في شؤونهم الاقتصادية حرية

كاملة، لأن في هذا خطراً يتمثل في تعدّيّ الحدود إلى الجور والظلم والاستغلال، وإنما يضع شروطاً وأطراً وقوانين، من شأنها أن توجه نشاطات الأفراد نحو الصالح العام، وتقضي على كل مظاهر الجشع والغش والأساليب الملتوية للكسب الحرام.

إن الإسلام يريد من الأفراد أن يوظفوا أموالهم في شتى مجالات الاقتصاد، في حدود قانونية عادلة، مما يحقق أهدافاً كبرى منها:

أ ـ عدم اكتناز الأموال وبقائها في أيدي فئة قليلة من الأغنياء.
ب ـ استفادة المجتمع منها في كل شؤونه.
جـ ـ تشغيل العاطلين عن العمل.
د ـ فتح مجالات وأنشطة اقتصادية جديدة.

وفي هذا يقول الله تعالى ﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ الحشر ٧.

إن مهام الدولة الراشدة تتمثل في تنظيم التملك وتوجيهه ومراقبته، دون أن تستولي على كافة الأنشطة: صغيرها وكبيرها، كما تفعل الشيوعية، فتغرق في هذا كله، وتتضخم الأعمال وتكثر، وبالتالي يتفاقم أمر البيروقراطية، وتتعطل مصالح حيوية جمة.

وأمامك أهم السلبيات الناجمة عن سيطرة الدولة (وبخاصة في النظام الشيوعي) على كل شؤون الاقتصاد والمعاش:

١) إذا استولت الدولة على أملاك الناس، وقبضت على زمام المعيشة، فإنها تكون حينئذ ظالمة جائرة، بسبب أنها حوّلت شعبها إلى عبيد طائعين.
٢) إذا صار الشعب كله أجيراً عند الدولة، فإن المردود يضعف كماً وكيفاً، لأن عمل الأجير في ملك غيره يختلف عن عمله في ملكه الخاص.
٣) إذا وقع ظلم على فرد في عمله، فإنه لا يستطيع أن يشتكي إلى السلطة،

لأنها هي صاحبة التوظيف والسبب الأساسي في المظالم، بعكس الدولة الصالحة التي تهتم بحل المشكلات التي تقع بين الأفراد الملاك.

٤) تظهر طبقة كبيرة من المراقبين، يكونون عالة على الشعب لأنهم لا ينتجون مثل غيرهم، وثانياً يعملون على إفساد الأخلاقيات، لفساد نفوسهم بالرشوة والاختلاس والغش والظلم. ومن ثم تضعف البنية الاقتصادية، وتتضعضع أركانها شيئاً فشيئاً.

هذه النتائج وغيرها ترينا أن المهام الحقيقية لدولة قوية، لا تعدو التوجيه والتنسيق، والإرشاد ودراسة المظالم وحل المشكل وإحقاق العدل. وبهذا المسلك الوحيد، تسير النشاطات الاقتصادية للأفراد والمؤسسات التعاونية سيراً صحيحاً.

* * * * *

الطرق المشروعة للتملك: لقد وضع الإسلام طرقاً خاصة للتملك، وذلك على مستوى الأفراد، وفق شروط تدور كلها حول توظيف نشاطات هؤلاء وطاقاتهم في الصالح العام. ويمكن حصر هذه الطرق المشروعة بما يلي:

١) **إحياء الأراضي الموات:** وهي الأراضي التي لا يملكها شخص ولا هيئة ولا جهاز من أجهزة الدولة، فيستغلها الإنسان استغلالاً حسناً، بعد أن يستصلحها، ويجري فيها المياه، ويبعد عنها معوقات الزراعة والانتاج.

٢) **الصيد البري والبحري:** وهو مورد اقتصادي كبير، تستفيد منه الأمة. فالأسماك ـ كما هو معلوم ـ تتضمن عناصر عضوية مفيدة لجسم الإنسان.

٣) **الاحتطاب:** يجوز للإنسان أن يجلب الحطب، إذا روعيت الشروط التي من أهمها: عدم المساس بالجوانب الأساسية للغابات.

٤) أخذ النصيب المحدد من الزكاة، إذا استحق الشخص هذا الحق.

٥) التملك عن طريق المعاوضة بالتراضي: كالبيوع والإجارة والشركة.

٦) تملك ما يؤخذ عن رضا، من غير عوض: كالهبات والوصايا والصدقات.

٧) تملك النصيب الشرعي من الإرث، بعد قضاء الديون، وإخراج الحقوق والوصايا.

هذه الطرق المشروعة تحدد ملكيات الأفراد، كما تصونها من كل تدخل، سواء أكان من طرف مؤسسة أو الدولة ذاتها، لأنها حقوق أوصى الإسلام بحمايتها وعدم الاعتداء عليها. لكن لا يعني هذا أن هذه الملكيات ليست عليها حقوق، ففي هذا الجانب يجوز للدولة أن تتدخل، في حالة عدم تأدية تلك الحقوق الاجتماعية المشروعة، ومنها:

١ـ الزكاة ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ المعارج ٢٤، ٢٥. ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ الأنعام ١٤١. ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ التوبة ٦٠.

٢ـ زكاة الفطر (عيد الفطر) والأضحية (عيد الأضحى).

٣ـ مال الحج، مع ترك النفقة الكافية لعائلته طيلة غيابه.

٤ـ دفع المهر في حالة الزواج.

٥ـ الانفاق على نفسه، وزوجته، وأولاده، ووالديه، وكل أفراد عائلته الكبيرة، العاجزين عن العمل، أو لم يجدوا عملاً ما، والوجوه التي ينفق فيها هي: المطعم، والملبس، والمسكن.

٦ـ الضرائب المؤقتة على الأغنياء، وذلك عند الحاجة.

٧ـ دفع ما يحتاج له المضطر.

* * * * *

الطرق غير المشروعة للتملك: وقد حرمت، لكونها تضر مباشرة بالمجتمع، وغير مباشرة بالفرد ذاته، الذي يسلك إحداها، وهي:

١ـ الربا: سواء أكان قليلاً أم كثيراً، وهو في نظر الشريعة الإسلامية أفظع من الزنا، فقد روي (درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم شر من ستة وثلاثين زنية)، (الربا ثلاثة وسبعون بابا، أدناها مثل أن ينكح الرجل أمه في الإسلام)، (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء).

والسر في هذا يكمن في أن أموال المرابين في ازدياد مستمر مع ضمان الفوائد، فلا خسارة ـ إذاً ـ في هذه الجهة، بعكس جهة الآخذين، الذين لا ضمان لهم في الربح، فإذا ما خسروا توجبّ عليهم أن يؤدوا ما عليهم من حقوق ربوية، أو يشتد استغلالهم، وتفرض عليهم شروط أقسى من طرف المرابين.

هذا، وان الأموال معظمها تتراكم في أيدي فئة قليلة، بينما تشتد الأحوال، وتعسر الحياة المعاشية، بالنسبة للفئات الواسعة من الشعب. والمرابي قد يكون فرداً أو مؤسسة أو الحكومة ذاتها. ولهذا فقد حارب الإسلام هذه الخطة الماكرة التي ابتدعها اليهود، إذ يقول الله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ ٢٧٨، ٢٧٩** البقرة.

القمار بأنواعه: حرم القمار، لأنه يعتمد على أخذ المال، وإعطائه بدون رضا، بل قهراً. وفي هذه الأجواء النفسية تزداد البغضاء والشحناء والحقد والحسد، وقد يؤدي إلى ارتكاب السرقات، وقتل الرابح، وانتحار الخاسر.

ومن النتائج الخطيرة: انتشار الكسل والخمول، وانصراف الناس عن الانتاج، وضياع الأوقات، وسلب المقامرين أموال العاملين وجهودهم، فتضيع حقوق الأفراد المحتاجين والأسر.

٣ـ السرقة: وهي طريق خطيرة على الأفراد والمجتمع، وتتمثل خطورتها في نتائجها التالية:

أ ـ انصراف جهود السراق عن الانتاج، وبالتالي يشكلون فئة سلبية طفيلية.

ب ـ إفلاس المسروقين، وضياع أسرهم.
جـ ـ تعطل مصالح الأفراد والمؤسسات عن الانتاج.
د ـ استغلال السلطة والمنصب في جمع الأموال حرام، لأن المسؤول مكلّف فقط بتأدية واجباته مقابل راتب كاف.

٤ـ **الاحتكار**: يقول رسول الله ﷺ «من احتكر الطعام أربعين يوماً، فقد بريء من الله وبريء الله منه». ويقول أيضاً «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون». ويقول أيضاً «لا يحتكر إلا خاطيء». ويقول أيضاً «من احتكر حكرة يريد بها أن يغلي على المسلمين فهو خاطيء».

والاحتكار يكون بخاصة في الضروريات التي ترتبط بها حياة المسلمين.

٥ـ **التلاعب في الأسعار**: وفي هذا إضرار بالمجتمع بعامة، والمشترين الفقراء بخاصة، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام «من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة». ويقول أيضاً «لا ضرر ولا ضرار».

٦ـ**صناعة الآلات المحرمة**: كأوراق القمار وآلات الموسيقى والصور التي حرمتها الشريعة والتماثيل. وفي هذا نتائج خطيرة منها: تعطيل جهود الصانعين، وصرفها عن الانتاج النافع، وبث سموم الفساد في الأخلاق والأعراض، وجمع أموال الناس في أيدي الفئة القليلة: صاحبة هذه الصناعات.

٧ـ **الإجارة المحرمة**: كتأجير الراقصة والسينما وغير ذلك.
٨ـ الانتفاع بمال اليتيم أو الوقف أو أموال الأمة، بغير الشروط والقيود الشرعية.
٩ـ ما يأخذه الموظف الذي لا يؤدي واجبه كما ينبغي.
١٠ـ الوظائف التي لا تحتاج لها الأمة.
١١ـ **الأموال الناجمة عن الغش**: مر رسول الله عليه الصلاة والسلام برجل

يبيع طعاماً، فأدخل يده فيه فرأى بللا، فقال: «ما هذا؟» قال: أصابته السماء. فقال: «فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا».

١٢ـ استغلال اضطرار الإنسان أو الأمة، لرفع الأسعار وظهور الثراء الفاحش.

١٣ـ بيع المعدوم حتى يوجد ويراه المشتري.

١٤ـ الأموال الناتجة عن العقود الفاسدة الباطلة شرعاً.

١٥ـ **أخذ الصدقات بغير استحقاق:** لأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ «المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء تركه، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بداً». ولمسلم عن رسول الله ﷺ «أن من سأل الناس تكثّراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر». وللنسائي عن رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى».

١٦ـ أخذ مال سلعة فسدت مباشرة بعد البيع.

١٧ـ المال الناتج عن الغبن الفاحش إذا رافقه تدليس أو حلف.

هذه هي الطرق غير المشروعة التـي يحاربها الإسلام، كي يحمي مصالح الأفراد والأمة من كل الأضرار الناجمة عنها، إذ الغاية تحقيق شروط السلامة والأمن والتطور للمجتمع الصالح.

* * * * *

طرائق حل المشكلات الاجتماعية:

إن حل المشكلات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي، له طرائق مضبوطة في الإسلام ومعلومة. ويعترف علماء الاقتصاد الموضوعيون أن بعضها القليل كاف لحل كل مشكلات المجتمع المعاصر، أياً كانت أحواله وظروفه.

والمشكلات عديدة، تنتظر المال الكثير لتذوب، تاركة المشاريع الضخمة

تنمو وتتسع وتتطور. ومن هذه المشكلات:

١) الفقر الذي تعاني منه فئات شعبية عريضة.

٢) طلب العلم بكل أنواعه وتخصصاته، وهذا ميدان كبير جداً، يتطلب بناء مؤسسات خاصة ومصاريف ضخمة توزع على الموظفين والأساتذة والعلماء.

٣) المرض الذي يحارب ببناء المستشفيات والمستوصفات والعيادات الكثيرة.

٤) عجز بعض الأفراد: كالعمي والمشلولين والمرضى عقلياً ومقطوعي الأطراف، فهؤلاء هم بحاجة ماسة إلى ملاجىء ومراكز خاصة بالرعاية إن لم تكن لهم عائلات. وأما الذين لهم أسر أو بعض أقارب يعيشون معهم فهم يحتاجون إلى زيارات دورية لضبط حاجياتهم الضرورية.

٥) حاجة كثير من الشباب إلى الزواج، ليحصّنوا أنفسهم من كل انحراف، ويبنوا أسراً سليمة. ولا شك أن المال خير معين لهم في هذا المقصد النبيل.

٦) حاجة من يتزوج إلى مسكن، وكذا من تزوج، ومن له عائلة كبيرة قاطنة في حجرة واحدة أو اثنتين في ظروف غير صحية.

وهناك مشكلات عدة، تتطلب أموراً كثيرة، ولهذا عني الإسلام بقسم الواردات وأكثر منها، لتغطي كافة الاحتياجات، وتقدم حلولاً جذرية لمعضلات المرحلة المعاشة.

ويمكن تحديد هذه الواردات الاقتصادية والمالية للدولة الإسلامية فيما يلي:

١) **مورد الزكاة**: يكفي وحده لتغطية كافة احتياجات الأمة كل سنة، وذلك لأن ربع العشر من أموال الأغنياء (١ من أربعين جزءاً) ضخم، فلو كان مثلاً مقدار أموالهم أربعين مليارا، فإن ملياراً يؤخذ لصرفه في الأبواب المشروعة. ثم إن صندوق الزكاة مستقل عن بيت المال.

هذا، وإن مورد الزكاة بعد مرور سنوات قليلة يصير وحده عاملاً هاماً في

إنشاء مصانع ومؤسسات اقتصادية، يوظف فيها الفقراء والعاطلون عن العمل.

٢) **مورد الصدقات والكفارات**: يطلب من المسلم دوماً أن ينفق انفاقاً مطلقاً، تقرباً إلى الله تعالى، وطلباً منه محو سيئاته وذنوبه، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام «والصدقة برهان». فهذه هي الصدقة المطلقة.

وأما الصدقات المقيدة، فهي التي ترتبط بعبادة من العبادات: كزكاة الفطر، وأضحية عيد الأضحى، والأضاحي التي تذبح في موسم الحج، والوفاء بنذر وكفارة الحنث، إلى غير ذلك من الكفارات المحددة في كتب الفقه.

٣) **مورد الأوقاف**: في التاريخ الإسلامي الزاهر اعتاد الأغنياء أن يحبسوا أموالهم العينية: كالأرض الزراعية والمواشي والمؤسسات الاقتصادية والمتاجر وغيرها، لأبواب العلم كإعالة الطلبة، وصرف مرتبات العلماء والمدرّسين، وبناء المساجد وترميمها. كما وقفوا ممتلكاتهم على المرضى (بناء المستشفيات ومستلزماتها) والعجزة والضعفاء واليتامى والأرامل وغير هذا كثير.

إنه مجال واسع جداً، تتمكن به الدولة الإسلامية من تطهير بلادها من كل المشكلات الاجتماعية، وإقامة المنشآت الصناعية والتعليمية التي تعود عليها بالنفع العظيم.

٤) **مورد النفقات**: وهي كل المصاريف التي يقدمها المسلم في إطار عائلته ليوفر لأفرادها المأكل والملبس والمسكن، كيلا يضطروا إلى التسول وطلب الإعانة من الغير. كما يلزم الإنفاق على كل من يدخل في دائرة الرحم، لأن صلة الرحم واجبة بالشرع.

٥) **مورد الغنائم**: وهو خاص بالحرب حين الانتصار. يقول الله تعالى **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾** الأنفال: ٤١.

٦) **مورد الركاز**: وهو المواد الخام التي يزخر بها باطن الأرض، من معادن

وبترول وغاز، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام «وفي الركاز الخمس»، وذلك بالنسبة للمكتشف الحر، أما إذا كانت الدولة صاحبة مشاريع التنقيب، فكل ما تكتشفه للأمة كلها.

٧) **مورد الخراج**: هو ما يفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة أو صلحاً، يقول الله تعالى ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ الحشر ٧.

٨) **مورد العشور (الجمارك)**: وهو ما يؤخذ من التجارة الأجنبية، مقابل استفادة أصحابها الأجانب بالمرافق العامة، كالحماية من طرف الشرطة والقضاء، كما أنه مظهر عدالة بين التاجر المسلم الذي يدفع الزكاة، والتاجر الأجنبي الذي يدفع العشور.

٩) **واردات الأملاك العامة للدولة**: وهي ما تملكه من أراض وما فوقها وما في باطنها.

١٠) **التركات التي لا وارث لها**.

١١) **المصادرات المشروعة**: كمصادرة الأموال الربوية، وأموال المغنين والممثلين والراقصات والبغايا، وأصحاب الحانات وأندية القمار، والمرتدين وغيرهم.

١٢) **مورد الجزية**: هو مبلغ معين، يوضع على رؤوس من انضموا تحت راية الإسلام، لكن لم يشاؤوا الدخول في الإسلام، قال الله تعالى ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ التوبة **٢٩**. ولا تؤخذ الجزية إلا من الرجال الأحرار، لا من النساء والأطفال والعباد من اليهود والنصارى (الرهبان).

ويقابل الجزية حماية دافعها، واستمتاعه بالمرافق العامة مع المسلمين، مع سقوط فرضية الجهاد عنه، لأنها عبادة، فلا تقبل إلا من مسلم.

١٣) مورد الضرائب: وذلك حين الحاجة إليه، كالحروب وظروف المرحلة الانتقالية لتأسيس الدولة الإسلامية.

١٤) مورد التعزيرات المالية: وذلك حين حدوث مخالطات قانونية.

١٥) واردات المؤسسات والملكيات الخاصة للدولة.

فهذه الموارد يجب أن تصرف في كل الأبواب التي تحتاج لها الأمة الإسلامية، وهي بشكل عام:

١) رواتب الموظفين وكفالة الرعايا.
٢) الانفاق على المشاريع العامة التي تحتاجها الأمة.
٣) توزيع الباقي على أفراد الأمة بالتساوي.

* * * * *

وللاقتصاد الإسلامي أهداف حيوية كثيرة، أهمها:

١) الاكتفاء الذاتي: إن التبعية في العالم المعاصر وسيلة للاستغلال والسيطرة والنفوذ، وهذه حالة دول العالم الثالث، ومنها العالم العربي والإسلامي، إذ أن القوى الاقتصادية الكبرى الممثلة في الكتلتين: الشرقية الشيوعية، والغربية الرأسمالية، تقتسم العالم بينها، مستغلة قواها البشرية والمادية وأسواقها وأراضيها أبشع استغلال، وهذه هي ظاهرة الاستعمار الاقتصادي قديمه وحديثه.

لهذا يحث الإسلام الأمم الضعيفة على النهوض بأعباء الحياة، والأخذ بأسباب الحضارة الصحيحة، ومنها اتخاذ سياسة إكتفاء ذاتي، تحول دون نشأة أي ارتباطات تبعية بالأقوياء. فالأمة التي تسعى لإنشاء كل النشاطات الحيوية

الضـرورية: الصنـاعية منهـا والـزراعية والتجـارية، تكون أبعد عن الضغوط والتـأثيرات العـالمية، ذات الطابع السياسي والاقتصادي. كما أنها تسلم من الأزمات التي تنتاب دولاً عديدة بدون استثناء.

إن الاكتفاء الذاتي ينشط الأفراد والجماعات على تعبئة كل الجهود، من أجل تطوير اقتصاديات الأمة، وتحقيق الآمال المرجوة منهم، فلا تضيع الطاقات بعـد في البحث عن العمـلات الصعبـة التي تتمثـل خطورتها في الاستنزاف المستمر للقوى الحيوية.

وإن منطقة العالم العربي والإسلامي تتميز عن غيرها من مناطق العالم، بخصائص فريدة من نوعها، تساعد لا على تحقيق سياسة الاكتفاء الذاتي فقط، بل أيضاً على تبوّء مكان الصدارة في العالم، ومن هذه الخصائص:

أ ـ وجود ٧٥ بالمائة من المواد الخام في العالم.

ب ـ وجود ٨٥ بالمائة من احتياطي البترول في العالم.

جـ ـ تنوع الأراضي الزراعية والمناخ، مما يؤدي إلى تنوع في الانتاج الفلاحي.

د ـ المنطقة العربية والإسلامية تحتل مكاناً استراتيجاً في العالم، من الناحيتين: السياسية والاقتصادية.

هذا، وإن الاكتفـاء الـذاتي يجب أن يشمل جميع المجالات الحيوية، ومنها: الزراعة، الصناعة، التجارة، العلم، التكنولوجيا، الجيش.

ولا بد أن تقـاس جدية وقـوة الاكتفـاء الذاتي، بالتغطية الشاملة لجميع حاجـات أفـراد الأمـة، وهي: التعليم، العـلاج، السكن، الأمن، المـأكـل والمشرب، الزواج، المواصلات، وهلم جرا.

٢) التنمية والإعمار: إن الإسلام يربط ربطاً وظيفياً بين الإنسان والكون، من جهـة التسخير. فمـا خلقه الله تعالى: من سماء ومناخ وسهول وجبال وبحار ومحيطات وحيوانات، هو للإنسان، مما يدل على تكريمه، واستحقاقه مسؤولية الخلافة.

لكن يشترط في الخلافة، كي تكون صالحة، أن يعمل الإنسان قدر المستطاع، على نشر الخير ومحاربة الشر، وتعمير الأرض واستغلالها خيراتها، وتنمية القوى الاقتصادية المختلفة. وقد اختار الله تعالى الإنسان، لأنه ميّزه عن سائر المخلوقات بالعقل، الذي هو ملكة هائلة، تستطيع أن تكتشف وتخترع وتبدع الشيء الكثير، الذي يذهل الألباب. قال الله تعالى ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ البقرة ٣٠. وقال أيضاً ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب**﴾ هود ٦١، وقال أيضاً ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم**﴾ البقرة ٢٩.

وقال عز من قائل: ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**﴾ لقمان ٢٠.

لنلاحظ الفرق الواسع بين مفهوم التسخير في القرآن الكريم، ومفهوم الصراع الذي يدعو له الفكر الجاهلي: فالتسخير يعني انفتاح كل جنبات الكون للإنسان، ليستغله ويستثمر قواه، من أجل الصالح العام والخاص. والواقع العلمي والتكنولوجي المعاصر خير دليل على ما نقول. بينما مفهوم الصراع باطل من أساسه، لأنه يتضمن عدة تناقضات منها:

أ ـ أن الصراع يتطلب من الطرفين كليهما (الكون ـ الإنسان) إدراكه إدراكاً عقلياً، لكن الكون مادة غير عاقلة، بعكس الإنسان.

ب ـ إذا كان الكون يصارع الإنسان، فإنه يستوجب منطقياً ألا يعطيه خيراته الكثيرة.

جـ ـ النظام العجيب الذي يتصف به الكون يدل على أنه وضعه الخالق، في تناسب دقيق، مع متطلبات الإنسان وحاجاته.

وللتنمية والتعمير شـروط، أهمها: وجود الأيدي العاملة، وبخاصة الفنية منها، رؤوس الأموال، الطاقة (البترول، الغاز، الفحم، وما سوى ذلك)، المواد الأولية، التخطيط العلمي.

٣) تحقيق حاجات الأمة:

تنقسم حاجات الأمة إلى قسمين كبيرين:

أ ـ الحاجات المعنوية: وهي المعرفة الإسلامية والثقافة العلمية، والعصرية بعد غربلتهـا، بالإضافة إلى التربية الروحية والاجتماعية، ولن يتم هذا إلا بإيجاد مؤسسات تعليمية وثقافية وتربوية، تحقق هذه المطالب التي هي بمثابة العمود الفقري، أو دماغ الأمة.

من هذه المؤسســات، المسجد، المدرسة، الجامعة، النادي الثقافي، المخيم الصيفي التربوي، الملتقى.

ب ـ الحـاجيـات المـاديـة: وهي المتـطلبـات المعيشية، وقد ذكرناها سابقاً (الملبس، المـأكل، المشرب، المسكن، العلاج، المواصلات، . . . الخ) وان خزينة الزكاة وبيت المال العام كفيلان بتحقيق هذه المطالب الضرورية، وذلك عن طريق إنشاء مؤسسات ومصالح تغطيها وتشملها.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، . . . الحديث» متفق عليه.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال (لو عثرت شاة على شط الفرات لخشـيَ عمر أن يحاسبه الله عنها لم لـم يعبّد لها الطريق).

٤) إعداد القوة العسكرية: يقول الله تعالى ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم**

الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ الأنفال ٦٠. ويقول أيضاً ﴿ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ النساء ١٠٢.

هذ باب هام، لا تغفله الدولة الإسلامية لأهميته المصيرية، وهي تتحدد في الأهداف التالية:

أ ـ الدفـاع عن الثغور والحدود، وحماية الدولة من كل هجوم خارجي.

ب ـ ترهيب الأعداء بالقوة العسكرية المادية (العتاد والعدد) والمعنوية (الروح الجهادية للجنود) التي تجعلهم يحبّون الموت، كما يحب الكفار الحياة.

جـ ـ حماية الدعوة الإسلامية في الخارج، ونشر الإسلام، وتحرير الشعوب من سيطرة طواغيت الحكم وديكتاتورية الايديولوجيات.

د ـ نصرة الدول الضعيفة، وبخاصة المسلمة، وكذا الأقليات الإسلامية في العالم.

وتتطلب هذه الأهداف وسائل جمة منها:

أـ تعبيئة كافة أفراد الأمة، وتدريبهم تدريباً عسكرياً، ليكونوا قـوة احتياطية كبيرة مدربة.

ب ـ انشاء كليات وثكنات عسكرية على الطراز الحديث.

جـ ـ انشـاء مصـانـع للأسلحـة، كي يتم التخلص من التبعيات السياسية والعسكرية العالمية.

د ـ اعداد جيش نظامي قوي.

هـ ـ اقتباس الطرق القتالية المعاصرة، كي نكون نداً للند مع الأعداء.

و ـ تعميق الروح القتالية الجهادية، في نفوس الجنود النظاميين والاحتياطيين وأفراد الشعب كافة، وذلك بواسطة أجهزة الإعلام، والمسجد بصورة خاصة.

٥) تحقيق العدالة الكاملة:

قال الله تعالى ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانـات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾

النساء ٥٨. ويقول رسول الله عليه الصلاة والسلام «لا ضرر ولا ضرار».

إن الإسلام يسعى من خلال قوانينه الحكيمة وتشريعاته الراشدة، إلى تحقيق مختلف مظاهر العدالة الاجتماعية، التي لا نرى منها في وقتنا المعاصر إلا صوراً باهتة شكلية، لا تسمن ولا تغني من جوع. لذا نقول بصراحة: لا توجد أمة سعيدة، تفرح بثمرات العدالة ونتائج التكافل الاجتماعي كالأمة الإسلامية، لأن هذه الأخيرة تستمد تشريعاتها ونظمها وقوانينها من الله تعالى، العليم الخبير، ومن سنة المعصوم المصطفى محمد ﷺ.

ومن صور العدالة ما يلي:

١) مراقبة أموال الأفراد وملكياتهم، حتى لا تطغى على حساب حقوق الأمة، فتؤثر سلبياً فيها (كيلايكون دولة بين الأغنياء منكم) الحشر ٧.
٢) محاربة الإسلام لكل مظاهر الإضرار بمصالح الناس واحتياجاتهم المختلفة: كالربا، والربح الفاحش، واستغلال اضطرار الآخرين إلى السلع، والاحتكار، والعقود المجحفة.
٣) محاربة وسائل الانتاج التي تهيّج الشهوات: كالمجلات الخليعة، وآلات الموسيقى والتماثيل وغيرها.
٤) تقييد الملكيات بطرق، أهمها: نظام الإرث الذي يفتتها بين أفراد، بعد أن كانت ملكاً لواحد، تحديد وسائل الكسب في دائرة الشرع الحكيم، تحريم وسائل الكسب غير المشروعة، وضع الحقوق في المال: كالزكاة، والإنفاق مما رأيناه سابقاً.
٥) توجيه كل طاقات الأفراد نحو الإنتاج النافع.
٦) جعل معظم الأموال بأيدي كل فئات الأمة.
٧) اعتبار الملكيات الفردية ركناً كبيراً، يساهم - إلى جانب الملكيات العامة وملكيات الدولة - في دفع عجلة الاقتصاد نحو الأحسن، وتطوير وسائل الانتاج والمنتجات من الناحية الكيفية.

هذه أهم الأهـداف والمقاصد التي بني من أجلها الاقتصاد الإسلامي، ويدعـو لهـا بالحاح شديد، لتحقيق السعادة المنشودة في هذه الأرض، وفق المقاييس والشروط الإسلامية.

* * * * *

وفي الإسلام عقوبات اقتصادية محددة شرعاً، تنحصر مهمتها في نقطتين أساسيتين هما:

أ ـ محاربة كل الآفات والانحرافات التي ترتكب في المجال الاقتصادي.
ب ـ حماية الاقتصاد الإسلامي، وتوفير جو ينمو ويتطور في إطاره.

والعقوبات الإسلامية الخاصة بالجرائم الاقتصادية هي:

١) **حد السرقة**: إن السرقة بأنواعها جريمة اقتصادية كبيرة، تهدد مستقبل الأمة، وتحطم قواها المادية والبشرية، وذلك عن طريق نشـر عادة ابتزاز أموال الناس، فتتحول فئات من الأفراد إلـى عناصر سلبية، لا تعمل من جهة، وتتطفل على مجهـودات النـاس من جهـة أخـرى. بالإضـافـة إلى هذا، يضطرب الانتاج ويتقهقر، نتيجة اللاأمن، وتعقد أساليب السرقة وتطورها الكبير.

ثم إن القوانين الوضعية الخاصة بالعقوبات، لم تزد المشكلة إلا خطورة وتفاقماً، لأنها تعتمد أساساً على عقوبة الحبس، وفي هذا نتائج سلبية، تعود بالضرر الكبير على الأمة، ومنها:

أ ـ كثـرة السجـون التي تتـطلب مصـاريف ضخمـة لبنـائهـا، ودفع المرتبات لإداراتها وحراسها، عوض أن تدفع هذه الأموال الضخمة في المصالح الحيوية: كبناء المستشفيات والملاجىء والمدارس والعمارات والمباني السكنية.

ب ـ ازدياد عدد السراق بشكل خاص، لأن عقوبة الحبس غير رادعة لهم.
جـ ـ تعلم السراق المبتدئين أفانين جديدة في هذه المهنة الخبيثة، من طرف السراق المحترفين.

نتيجة لهذا كله حددت الشريعة الإسلامية العقوبة المناسبة والرادعة لجريمة السرقة، يقول الله تعالى ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم**﴾ المائدة ٣٨. وإن حكمة القطع تتمثل في أن السارق شديد الطمع في أموال الغير، كسول لا يحب أن يكدّ ويجدّ في طلب الرزق الحلال. لهذا لزم القطع لتجتث الأصول النفسية للجريمة، بواسطة الألم والفضيحة، كما يكون هذا داعياً إلى شدة الكدح وكثرة العمل والتخوف الشديد على المستقبل.

وإذا كانت القوانين الوضعية كلها تفرق بين الأغنياء والفقراء بشكل ضمني، وبأساليب قضائية ملتوية، فإن الشريعة الإسلامية صريحة في هذا، فهي لا تفرق بين غني وفقير، إذ كلاهما سواء أمام القانون، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام «والذي نفسي بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» رواه مسلم.

٢) **عقوبة الحرابة**: جريمة الحرابة هي الإفساد في الأرض أو قطع الطريق، ومعلوم أنها تهدد المصالح الاقتصادية، وتعطل الانتاج، وتفسد الاتصالات التجارية، وتعرض الأموال والأعراض والنفوس لأخطار محدقة. إن غرض المحارب هو أخذ أموال الناس المسافرين بعامة، والتجار بخاصة، وقد يتعدى إلى الجرح والقتل. لهذا كانت العقوبة الإسلامية في هذا الشأن رادعة، إذ يقول الله تعالى ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ المائدة ٣٣.

٣) **التعازير**: التعزير هو تأديب الإنسان على جرائم، لم تنص عليها الشريعة الإسلامية، إذ أنها تركتها لوليّ الأمر، لكونها تختلف وجوداً وعدماً ودرجة وكيفاً من مجتمع لآخر، ومن زمان لغيره. وهكذا يتضح لنا مقصد تشريعي، ألا وهو فتح باب الاجتهاد لأولياء الأمور في المسائل المتجددة المتغيرة، ليحددوا

الجرائم والعقوبات الخاصة بها، والتي منها:

أ ـ **القتـل**: بالنسبـة للذي اعتاد اقتراف الجرائم الاقتصادية، ولـم تردعه العقوبات والتعازير الأخرى.

ب ـ **الجلد**: تمتاز هذه العقوبة بكونها لا تثقل كاهل الدولة، ولا تعطل المحكوم عليه عن الانتاج وكفالة أسرته، ولا تتطلب صرف الأموال، كما هو الشأن بالنسبة لعقوبة الحبس.

جـ ـ **الحبس**: وهـو محـدد المدة، إذ لا تتجاوز غالباً ستة أشهر. وهذه العقوبة خاصة بالجرائم العادية البسيطة، لكن الفرق بين الشريعـة الإسلامية والقوانين الوضعية هو أن الأولى تعتبره ثانوية، بينما الثانية تعده عقوبة أساسية. ومن مزايا هذا الفـرق أن المجتمـع الإسلامي يندر فيه السجون، ويقل عدد المحبوسين قلة كبيرة، بعكس غيره من المجتمعات الجاهلية.

وقد يعاقب بالحبس غير المحدد المدة المجرمون الكبار، الذين لم تردعهم العقوبات كلها، فيحبسون عن المجتمع، مخافة إضرارهم به، إلى أن تظهر توبتهم ويستقيم سلوكهم.

د ـ **التغريب أو الإبعاد**: وهذه العقوبة خاصة بأولئك الذين ينشرون عدوى جرائمهم بين غيرهم، لذا يبعدون عن هذه الأوساط الشعبية التي يعرفونها، إلى أوساط أخرى في مدينة أخرى، ليست بينها وبينهم علاقة ما، مع شرط آخر هو وضعهم دوماً تحت المراقبة.

هـ ـ **الوعظ والتوبيخ والتهديد**: بالنسبة للمبتدئين الذين اندفعوا غالباً اندفاعاً نفسياً، نحو ارتكاب بعض السرقات الهينة.

و ـ **التشهير**: وهي عقوبة، المراد منها تنبيه الناس إلى خطورة الذين يقترفون جرائم، تمس بثقتهم، كشهادة الزور والغش، كي يتجنبوا أيّ تعامل اقتصادي واجتماعي مع هؤلاء، ويكون التشهير في المحلات العامة والأسواق والصحف.

ي ـ الغـرامـة: وهي عقـوبـة تتعلق بشكل خاص بالجرائم الاقتصادية: كالسرقة والغش ومنع الزكاة وعدم دفع الضرائب وكتم الضالة.

ك ـ العـزل من الـوظيفـة: وهذا بالنسبة للموظفين الذين أساءوا التسيير الاقتصادي، أو تعاونوا بطرق خفية مع غيرهم، في استغلال المصالح العامة لأهدافهم الخاصة وأطماعهم الجشعة.

ل ـ الحـرمـان من بعض الحقوق المدنية: كالحرمان من تولّي الوظائف العامة، ومن أداء الشهادة.

هذه أهم العقـوبـات والتعـازير التي تنص عليهـا الشـريعـة الإسـلامية، وهي ـ بأسلوب أوضح ـ سدود منيعة، تحول دون وقوع الجرائم الاقتصادية. وبالتالي يسلم المجتمع الإسلامي من كل الآفات والمخاطر، ويخلو الجو ويصفو للتطور الاقتصادي المأمول.

* * * * *

وللجرائم الاقتصادية عقوبات طبيعية فطرية، تدل دلالة واضحة على أن ما حرّمه الله تعالى يضر بالفرد والمجتمع معاً، عاجلاً أو آجلاً. من هذه العقوبات:

١) **عقوبتا شرب الخمر والقمار:** وقد أسلفنا الحديث عنهما سابقاً.

٢) **عقوبة أكل لحم الخنزير:** إن الإسلام يمنعنا من أن نبذر ولو درهماً واحداً في الحرام، لأن لهذا الدرهم موضعاً آخر، يفيد الفرد أو الأمة أو هما معاً، فما بالك بدفع الأموال الطائلة في شراء لحم الخنزير المحرم شرعاً؟

وقـد ظهـرت نتـائـج وأعـراض كثيرة، في الوقت المعاصر، تبين حكمة تحريمه، منها:

أ ـ الإصـابـة بدودة لحم الخنـزيـر: فالإحصـائيات تركـز أن البلدان الأكثر إصابة بهذا، هي: فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، إيطاليا.

ب ـ **الإصابة بمرض (التريخينا)**، وهو ناجم عن الديدان الموجودة في كل لحمالخنزير، وخطورة هذه الديدان تتمثل في أن الأنثى منها تضع نحو **١٥٠٠** جنين، في الغشاء المخاطي المبطن لأمعاء المصاب، فتتوزع الملايين المولودة من الإناث جميعاً، بطريق الدورة الدموية، إلى جميع أنحاء الجسم فتتجمع الأجنة في العضلات الإرادية، حيث تسبب آلاماً شديدة والتهابات عضلية مؤلمة، تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته، مما يولد أوراماً خطيرة مزمنة. ويرى الأطباء أنه لا يوجد دواء ناجح لهذه الحالة الخطيرة، ولا يتعدى دور الأدوية المعطاة حد التسكين المؤقت.

جـ ـ ينقل لحم الخنزير إلى جسم الإنسان الجراثيم العفنة، والباراتيفود التي تسبب له تسمماً حاداً مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي، وقد تسبب الوفاة في بضع ساعات.

د ـ **للحم الخنزير تأثير نفسي واضح**، شأنه شأن سائر الأغذية والأشربة، ويتجلى هذا التأثير الخطير في هبوط الأخلاق، وتبلد الشخصية، وعدم الشعور بالشرف، وعدم الغيرة على العرض والروابط الأسرْوية: كالأبوة والبنوة والزوجية. وهذا واضح في الدول الأجنبية المنحلة، بسبب أكلها هذا اللحم الحرام. ولا شك أن تشابهاً كبيراً في هذه الخصائص كائن بين حياة الخنزير وحياة آكل لحمه.

٣) عقوبة تعاطي الرشوة: قال الله تعالى ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون**﴾ البقرة ١٨٧. وفي الحديث «لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش بينهما».

إن تحريم الرشوة سببه عقوبات فطرية منها:

أ ـ تفسّخ الروابط الاجتماعية، بسبب فقدان الثقة، نتيجة إحلال الرشوة محل القوانين العادلة، في أخذ الحقوق، وأحياناً حقوق الغير.

ب ـ إذا انتشرت هذه العادة الخطيرة اضطر الناس لاقترافها، وفي هذا تحطيم للأخلاق من جهة، ووضع الأموال في غير موضعها، أي في أيدي غير المستحقين الطامعين من جهة أخرى.

جـ ـ تضييع حقوق الأفراد وحقوق الأمة، بواسطة نهبها من طرف أصحاب الرشوة، وبالتالي يزداد الفرق اتساعاً بين الأقوياء والضعفاء.

د ـ الحالة النفسية لمن يتعاطى الرشوة هي حالة خوف واضطراب، لأنه يخاف من الفضيحة أمام الناس، فينكشف أمره.

هـ ـ إذا انكشف أمره، فإنه يعيش غير مطمئن البال، إذ كل الناس يشيرون إليه بالبنان، حاكمين على ما بناه واشتراه بكونه حراماً.

وهناك عقوبات طبيعية فطرية لانحرافات أخرى، كالتهاون واللامبالاة والتعقيدات الإدارية (البيروقراطية) والمحسوبية (استعمال الواسطة)، وهي معلومة لدى الجميع، فلا حاجة للحديث عنها.

* * * * *

والإسلام ـ وهو يحارب الآفات الاجتماعية والاقتصادية ـ يرينا كذلك أنه قد وقع في التاريخ القديم عقوبات ماحقة، سلطها الله تعالى على أقوام وأفراد، بسبب أنهم ألفوا الترف والبذخ، وسلب أموال الناس وحقوقهم، واتخاذهم في ذلك شتى الوسائل والأساليب الشيطانية الخبيثة. وإن سر ورود هذا القصص في القرآن الكريم هو استخلاص العبر والعظات، وترهيب النفوس من سوء العاقبة ولو أنها سوف تقع في الآخرة.

وإن القصص في مجال الانحرافات الاقتصادية عديدة، نذكر على سبيل المثال ما يلي:

١) مصير قارون: قال الله تعالى ﴿**إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وأتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس**

نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكفرون﴾ القصص ٧٦-٨٢.

٢) أصحاب الجنة: قال الله تعالى ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون* فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدّلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ القلم ١٧-٣٣.

٣) صاحب الجنتين: قال الله تعالى ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنيتن آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً * وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً * قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم

من نطفة ثم سواك رجلاً * لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً * ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولـداً * فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا * وأحيط بثمره فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحـداً* ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً* هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً﴾ الكهف ٣٢-٤٤ .

٤) قوم شعيب: قال الله تعـالى ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذّبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ الأعراف ٩٠-٩٢ .

٥) بنـو إسـرائيل: قال الله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيرا * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وأن أسأتم فلهـا فإذا وجـاء وعـد الآخرة ليسؤُا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أو مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا * عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ الإسراء ٤-٨ .

٦) مصير المترفين المفسدين: قال الله تعالى ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القوم فدمّرناها تدميرا﴾ الإسراء ١٦ .

إلى جانب هذا، يبين لنـا الإسلام أن الإيمان بالآخرة، يجب أن يكون مرتبطاً بحسن الاستقامة في السلوك والمعاملات كلها، منها ما له علاقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية. فالمؤمن الخائف من عقاب الله تعالى وحسابه العسير يوم القيامة، يكون دائم المراقبة لأخلاقه وسلوكه وسائر تصرفاته. وفي هذا نفع

أيّ نفع في الحياة الدنيا بالنسبة للأمة كلها، وجزاء أيّ جزاء بالنسبة للمؤمن التقيّ الذي يحظى برضوان الله تعالى في الجنة آجلاً.

* * * * *

نخلص من هذا، إلى القول بأن للأدب العربي المعاصر مسؤولية كبرى، في مجال نشر الوعي الاقتصادي الصحيح بين أفراد الأمة، وتعميق الأسس الأخلاقية في نفوسهم، كي يكون هناك تكامل بين البعدين: البعد النفسي للإنسان، والبعد المادي: الاقتصادي منه والاجتماعي. لأن مدار الحركية الحقيقية هو النفس المستقيمة الأطوار، ذات الطاقات الحيوية المستعدة للانبثاق والتجلي والتطوير.

ولن يكون هذا قابلاً للتحقق، إلا إذا كانت منطلقات تفكيرنا وتفكير الأدباء والنقاد بخاصة إسلامية خالصة، مع إبعاد كل التيارات الإيديولوجية الأجنبية والتأثيرات المذهبية الوضعية. وإذا دعونا إلى هذا التغيير الجذري، وتجديد النظرة إلى وظيفة الأدب الاقتصادية، فللأسباب التالية:

١ـ وجود التبعية الفكرية والايديولوجية في نشاطات الأدباء وكتاباتهم الفنية، وهذا يعني مسخ حقيقة الأدب العربي، وتحريف مسيرته الحضارية عن الاتجاه السليم.

٢ـ إنكار الأصول الحضارية التي جاء بها الإسلام، ومنها ما يتعلق بالحياة الاقتصادية، ويظهر هذا الإنكار على مستوى التنظير والمناقشات الفكرية، كما يظهر على مستوى الممارسات الأدبية والفنية، التي تقدم لنا صوراً مشوهة لأصول حضارتنا.

٣ـ ترجمة نتاج أجنبي ضخم، يحتوي على تفسيرات اقتصادية واجتماعية جاهلية، معروضة في أشكال أسلوبية فنية مؤثرة.

٤ـ انتقال النظريات الاقتصادية المادية ـ وبخاصة الرأسمالية والشيوعية ـ إلى

الساحة الأدبية، كأن وظيفة الأدباء العرب الآن تتمثل في التقليد الأعمى لها، والتسابق نحو إنشاء أروع الأعمال الأدبية، بغية الإشادة بها والدعوة لها.

٥ـ لم تبذل جهود معتبرة ذات طابع جدّيّ، تنصب حول إبرازالنظرية الأدبية الإسلامية، المتضمنة لكافة التفسيرات لمشكلات العصر، ومنها المشكلات الاقتصادية، كيما يستفيد منها أدباؤنا في كتاباتهم الملتزمة بالواقعية التغييرية الصحيحة.

لهذه الأسباب والاعتبارات، قدّمنا في هذا الفصل عرضاً موجزاً للموقف الاقتصادي الإسلامي، لا يغني عن العودة إلى الدراسات التفصيلية الهادفة.

وأخيراً، أودّ من الأدباء أن يفهموا فهماً جيداً طبيعة الأبعاد والأهداف الاقتصادية الإسلامية، ويحسنوا تضمينها في قوالب فنية جميلة، ويسخّروا كافة فنون الأدب (القصيدة، القصة، الرواية، المسرحية) في هذه العملية الإبداعية.

كما أودّ من النقاد الملتزمين النزهاء أن يتابعوا الحركة الأدبية العالمية بعامة، والحركة الأدبية العربية المعاصرة بخاصة، ليخدموا الأغراض التالية:

١) تنبيه الأدباء العرب إلى الانحرافات الجاهلية الخطيرة، التي يتميز بها النتاج العالمي، حتى لا يقعوا هم فيها، فتكون كارثة ثانية.

٢) الإشارة إلى الفنيات الأدبية الجمالية، التي يمكن عدّها من محاسن الآداب الأجنبية، شريطة تحديد أوجه استخداماتها السليمة.

٣) كشف النوايا الخبيثة والأغراض الشيطانية، التي تكمن وراء الكتابات العربية الممسوخة من الروح الإسلامية، والنتاج الفني الذي هو صورة لا غير للآداب المادية الجاهلية.

وبهذه الشروط وغيرها التي تدور في فلكها، يمكن أن نضمن للأدب العربي المعاصر نهضة صحيحة، في مجال البناء الحضاري المنشود.

الأدب والعلم

يحلو لكثير من النقاد والمفكرين في مختلف أصقاع العالم، الحديث عن هذه العلاقة الثنائية بين الأدب والعلم: فبعضهم يراها تناقضية، في حين يراها بعضهم الآخر وحدوية الطبيعة، لا فرق بين طرفيها إلا كالفرق بين وجهي عملة نقدية واحدة.

والأعجب أن الصراع بين هذين الاتجاهين الكبيرين (وكذا سائر الاتجاهات الأخرى) فقد احتدّ واشتد، إلى درجة أن امتلأت بِهِ أنهر عديدة من كل صحيفة أدبية، أما المجَلّات والدوريات والكتب النقدية والأدبية والفكرية، فحدث عنها ولا حرج.

ولعل هذه الظاهرة الأدبية التي تفرد بها عصرنا ترجع في نشأتها إلى جملة أسباب منها:

١ـ أن ازدهار العلوم وتقدم الأبحاث المعملية واتساع نطاق التطبيقات التكنولوجية لم يظهر هذا كله بوضوح شديد، ولا بقوة كبيرة إلا في قرننا هذا (دون أن نهمل جهود العلماء في القرن ١٩م). فكان لهذا الازدهار العلمي أبلغ الأثر في كافة مجالات الحياة البشرية، ومنها مجالها الأدبي والفني. والعاقل يرى أن الإنسان ابن بيئته: يستمد منها مقومات حياته المادية والمعنوية، ويتأثر بها إلى حد كبير، دون أن يفضي به هذا إلى السقوط في جبرية عمياء أو حتمية حالكة السواد.

في ضوء هذه القاعدة الشهيرة، نقول: إن العلم ـ بحكم انتشاره ونفوذه

واكتساحه لأكثر آفاق وأبعاد حياة البشر ـ قد حمل الإنسان (والأديب بخاصة) على أن يحدد موقفه تجاه قضية علاقة العلم بالحياة، أو علاقة الحياة بالعلم. ولا نخرج عن دائرة الصواب إذا أشرنا إلى أن أدب الأديب صورة جميلة لبيئته، أو انعكاس فني طريف لخصائصهاوسماتها البارزة. فأضحى العلم ـ بالتالي ـ مصدراً ثرياً يستفيد منه الأديب المثقف أيما استفادة، دون أن يتجاوز حدود اللياقة الأدبية، أو يثور على ضوابط العمل الفني.

٢ـ أضف إلى هذا أن سنة التطور تحث الناس دوما على أن يواكبوا أحداث العصر، وينفعلوا بها، ويتمثلوا جل خصائصها من جهة الفكر والثقافة والتأمل. فكان العلم ـ بهذا ـ أكبر حدث يتميز عن غيره بسعة العطاء، وتشعب مجالاته وغزارة ينابيعه.

وإن الأديب ـ في عصرنا الراهن ـ قد اقتنع بأن الزاد العلمي الذي يجب أن يحصل عليه ويستزيد منه هو من أكبر مظاهر التطور الثقافي. ثم إنه يعلم حق العلم أن زملاء له في الدرب قد أقبلوا على معارف عصورهم شديد الإقبال.

٣ـ إن كثرة المراكز الثقافية وانتشار المعاهد والجامعات هنا وهناك، قد ساعد على نقل مادة علمية غزيرة إلى رياض الأدب والفن، باعتبارهما وعاء جمالياً للفكر والعلم والثقافة.

ولا ريب أن كثيراً من الأدباء والفنانين قد أخذوا حظاً وافراً من النتاج العلمي، بنسب مختلفة، تبعاً لدوافعهم وظروفهم وخصائصهم الشخصية وميولهم النفسية، فكان من نتائج هذه الظاهرة، أن تنوعت الأعمال الأدبية، ودخلها التجديد من كل جانب، بل إن مظاهر وقضايا قد جدّت على الساحة الأدبية، ومن ثم فرضت نفسها على الأدباء.

٤ـ ولوسائل الإعلام العصرية دور بارز في نقل الثقافة العلمية ـ فضلاً عن فنون الثقافة الأخرى ـ إلى مجال الأدب، ولا أبالغ إذا قلت: إن هذا العامل يعتبر أكبر

العوامل التي أسهمت في تطوير الموضوعات الأدبية وإثرائها.

هذا، وإن النتاج الأدبي ليجد في وسائل الإعلام خير نافذة يطل منها على الحياة، فلا يجوز حين ندرس عوامل التطور الأدبي المعاصر أن نغفل من شأن هذا العامل الهام.

هذه الأسباب وغيرها قد جعلت الأدب في كثير من مجالاته وجوانبه، يستثمر خلاصة الأبحاث العلمية، ويتمثل إبداعات العصر تمثلاً فنياً جميلاً. ولا غرو إذا وجدنا كثيراً من الأشكال الفنية ـ كالوحدة الموضوعية والوحدة العضوية ـ قد أخذت جل خصائصها البنيوية من رحاب العلم.

بل إن التفكير الفني لدى الأديب قد تغير كثيراً إلى درجة أنك تجدُ بَوْنَاً شاسعاً بين تفكير الأديب القديم وتفكير الأديب المعاصر: فالأول يميل غالباً إلى الأسطورة والمبالغة الجامحة، والتهويل، وسرد الدفقات الشعورية والمعاني بطريقة اعتباطية. لكن الثاني صار أميل إلى التحقيق العلمي، والموضوعية، والإنضباط في المشاعر والأفكار والمعاني، وكل هذا ـ بطبيعة الحال ـ في حدود خصائص الأدب الجوهرية، لا يتجاوزها ولا يخلّ بإحداها، إلا بعض الأدباء السطحيين.

بهذا نعلم أن للعلم حسنات كثيرة أفاد بها الأدب إفادة غزيرة، بيد أن هذا لا يجعلنا نغضّ الطرف عن الآثار السلبية والسيئات التي نجمت عن محاولة ربط الأدب بالعلم ربطاً مجحفاً.

إن الموضوعية في البحث النزيه تفرض علينا أن نكشف كل جوانب الظاهرة المدروسة: فنحصي الضار منها والنافع، أو الصالح منها والطالح، أو الصحيح منها والباطل، وهذا العمل ـ لا ريب ـ خطوة جليلة، تعيننا على فهم الأشياء والأفكار والقضايا فهماً شاملاً ودقيقاً.

فظاهرة تأثر الأدب بالعلم ـ كباقي الظواهر الأخرى ـ لها انعكاسات أخرى

(بالإضافة إلى الإنعكاسات الحسنة المذكورة سابقاً) تتصف بالسلبية والوخامة. فعلى الأدباء والنقاد بخاصة، والمفكرين بعامة، أن يتأملوها ويدرسوها دراسة جيدة، كيلا يسقطوا في ما لا تحمد عقباه.

وإن أخوف ما نخافه (على الفكر والثقافة إجمالاً) هو ذاك الخلط المفاهيمي الذي يمزج مجالات المعرفة مزجاً غريباً يذيب جوهر كل منها، فلا يصير ـ بالتالي ـ الأدب أدباً، ولا الفن فناً، ولا العلم علماً، ولا الدين ديناً.

لذا يجب على العقلاء أن يدركوا الفروق الجوهرية بين مجالات المعرفة الإنسانية دون أن ينسيهم هذا مختلف نقاط التلاقي والإفادة والاستفادة ومظاهر التأثر والتأثير بين تلك المجالات.

إن هذا المنطق المنهجي ضروري جداً، يصون الأدب من شتى صنوف التميع والذوبان في بوتقات أخرى.

نقول هذا، لأن تساؤلات عدة قد طرحت في عصرنا هذا حول العلاقة بين الأدب والعلم، فذهب الناس فيها مذاهب شتى. فقد بدا لطائفة أن الأدب والعلم يخرجان من مشكاة واحدة، لا فرق بين هذا وذاك، وطائفة أخرى غَلَتْ في أحكامها، زاعمة أن العلم والأدب لا يلتقيان أبداً، ولا بد من طرح أحدهما لحساب الآخر، يقول رتشاردز «... من أهم فروع النقد التي جذبت أنظار أصحاب المواهب الكبرى منذ الماضي السحيق حتى يومنا هذا محاولة إقناع الناس بأن وظيفة الشعر هي نفسها وظيفة العلم، أو أن أحدهما صورة أسمى من الآخر، أو أن العلم والشعر يتعارضان، وعلينا أن نختار بينهما»(١).

إن هذا الأمر يستوجب ويستلزم منا أن نحدد مفهوم العلم وحدوده المنهجية، لنتمكن من وضع كل شيء في نصابه، ورد الفروع إلى أصولها، والتشعبات والامتدادات إلى منابعها ومصادرها الأصلية.

---

(١) رتشاردز: العلم والشعر. ص٧٣.

فما مفهوم العلم يا ترى؟

وما وظيفته الأساسية في هذا الوجود؟

وما دوره في ترقية حياة الإنسان؟

* * * * *

لقد كثرت تعاريف «العلم» بكثرة العلوم واختلاف ميادينها، لكن هذا لا يمنع من وجود قاسم منهجي مشترك بينها وهذا هو الذي نحاول التركيز عليه وإظهارَهُ بكل وضوح فيما يلي:

أ ـ إن العلم يدرس الطبيعة دراسة دقيقة، محاولاً اكتشاف القوانين والسنن والنوَاميس التي تتحكم في ظواهرها وأشيائها ومظاهرها. والغاية المرجوة هي تعرف الروابط العلّيّة (أي العلاقات بين العلل أو الأسباب، والمعلولات أو المسببات) ليتم ـ بصورة عملية أو تكنولوجية ـ التحكم في الظواهرالمَدروسة وتسخيرها في المنافع الحيوية العديدة.

ب ـ ثم إن الحقائق التي يكتشفها العلم في أي من مجالاته تتميز بأنها موضوعات خارجة عن ذات الإنسان، بحيث لا يجوز لهذا الأخير أن يتخذ بعضها مبادىء يؤمن بها، وبعضها الآخر أباطيل ينكرها ويكفر بها، يقول زكي نجيب محمود: «وكلمة (المبدأ) إنما تعني ما يدل عليه لفظها، إذ تعني النقطة التي «نبدأ» من عندها، غير أن نقطة البدء إذا كانت حقيقة واقعة من حقائق الطبيعة، فإنه لا يحسن تسميتها «بمبدأ» لأنها عندئذ تكون مفروضة على الإنسان، ولا يكون الإنسان هو فارضها. فإذا كان من حقائق الطبيعة، أن الضوء يسير بالسرعة الفلانية، ثم أقمنا على هذه الحقيقة بعض نتائجها، فإن اللغة عندئذ لا تسيغ أن يقول العالم أن «مبدئي» هو أن سرعة الضوء هي كذا»[1].

---

(١) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي: ص١٩٣، إن اقتباسنا من بعض المراجع لا يعني أنها صالحة، وأن ما فيها صحيح، فقد يكون فيها الغث الكثير، إلا أننا ننقل ما نراه متماشياً مع الحقيقة والمنطق السديد.

جـ ـ إن قاعدة الشك يعتمد عليها العلم في كل فروعه كل الاعتماد: لأنها بمثابة غربال يَفْصِلُ الصحيح عن السقيم، ويقول لنا: هذا حق، وذاك باطل. فليست الدراسة العلمية هي تلك التي تجمع ما هب ودب في بوتقه واحدة، وإنما هي ـ أولاً وقبل كل شيء ـ منهج قويم، ينقب عن الحقائق، ويفتش عن أسرار الوجود، مزيلاً عنها كل ما علق من خرافات الناس، وأساطير الشعوب البدائية.

وقد يكون العالم قاسياً في دراساته وأبحاثه، إذ لا عاطفة حب لإنسان ما، يبديها في أعماله تلك، وإلا صارت هذه الأخيرة فلسفة وأدبا أو كلاماً عادياً مألوفاً. ولعل هذا ما يميز العلم بالإضافة إلى مميزات أخرى ـ عن سائر المعارف البشرية الأخرى.

فالعالم ـ إذاً ـ رجل ينزع العواطف عن ذاته مؤقتاً، وذلك حين يشرع في تتبع أحوال ظاهرة من ظواهر الوجود. وهذا أمر ضروري، كما أنه بديهي، لأنه يمهد الطريق للشك العلمي. ويمكّنه من طرح كل ما له علاقة بالأشياء الذاتية، والنوازع البشرية، والأفكار السطحية، والآراء الشعبية الساذجة.

«فقد سئل عالم لماذا يكثر من الشك؟ فأجاب: محاماة عن اليقين. وسئل عالم آخر عن حديث، فقال. أشك فيه: فقال السائل: شكك أحبّ إلي من يقيني. فماذا تريد للروح العلمية الصحيحة معياراً أصلح من هذا المعيار، وكيف يكون هذا ما رسمه الأسلاف طريقاً، ثم نفغر أفواهنا من الدهشة حين يقول لنا قائل: إن أعلام المنهج العلمي في الغرب يطالبون بأن نشك أولاً حتى يأتي اليقين محضاً؟ انظر فيمن حولك تجدهم ـ حكما بما يقولون وما يفعلون ـ يطمئنون إلى صاحب التصديق السريع، ويقلقهم أن يقف متشكك ليتساءل قبل أن يجزم بالصواب. «. . . وما هكذا روح الحياة العلمية، وما هكذا تراثنا في تحديده للقيم»[1].

---

(١) نفس المرجع. ص٣٤٠.

د ـ ثم إن العلم يدرس أساساً كل ما هو ثابت، لا يقبل تحوّلاً ما، كي يستخلص القوانين والقواعد ذات الطابع العلمي الخالص. ولن تكون كذلك إلا حين تحتضن في طياتها الحقائق الثابتة.

وقد تتساءل: وهل هذه الظواهر الكونية التي تتحرك أمامنا طيلة فصول السنة لا يتناولها العلم بالدرس والتحليل؟

اعلم ـ أخي الكريم ـ أن كل الظواهر تتميز بالحركة الدائبة والنشاط المستمر، لكن هذا لا يدل مطلقاً على أن حقائقها الجوهرية تشهد تحولاً دائماً، وذلك لأن هذه الحركة تستند إلى قوانين ثابتة وعلل موجودة داخلها أو خارجها. وإن العلم ـ وهو يدرس هذه الحركة الدائبة ـ يفتش عن تلك العلل ليصوغها في شكل قوانين تتميز بالاطراد.

هذا، وإن الفكر العلمي يفيد البشرية قاطبة في صقل حياتها المستقبلية صقلاً صحيحاً، إذ «الحكم على المستقبل قياساً على الماضي، لا يجوز إلا في حالات الثبات والاطراد، أما في حالات التحول، فبحكم الفرْض نفسه ـ والفرض هو أننا «نتحول» ـ لن يجيء المستقبل على صورة الماضي وغراره، وإذاً فلا يحق لأحد أن يحكم بالذي كان على الذي سوف يكون.

بعبارة أوضح، لا يجوز اليوم للتقاليد أن تكون حكماً يبين الصواب والخطأ، فـ «التقليد» هو محاكاة الكائن لما كان، ولو جرت هذه المحاكاة لجاء غدنا كأمسنا، ولم يكن ذلك ليستوجب العجب لو كنا في حالة مستقرة من تاريخنا، أما ونحن «نتحول» فمحال لغدنا أن يحاكي أمسنا. فلئن كان الاطراد في الجماعات المستقرة هو الأصل، والتغير هو الشذوذ، ففي مرحلة التحول، ينعكس الموقف، ليصبح التغَير الدائم الدائب هو الأصل، والثبات المطرد هو الشذوذ»[1]

---

(١) نفس المرجع. ص٢٢٧.

نقول: إن هذا صحيح، حين لا يمس التغير هذا أصول الحياة الإنسانية التي شرحها الإسلام وبيّنها أوضح بيان، فالتغير من أجل التغير هو اضطراب خطير، وفوضى عارمة تفسد تلك الحياة أيما إفساد، وما أحوال الأمم المصنعة إلا شواهد ميدانية على ما نذهب إليه.

هـ ـ أضف إلى هذا أن ميدان العلم هو عالم المتناهيات، أو بعبارة أوضح: عالم الموجودات التي تقع تحت الحواس وآليات الإدراك المباشر (وكذا الوسائل العلمية الدقيقة التي تساعد في هذا المجال). أما عالم اللا متناهي (وهو الذي يستعصي إدراكه والإحاطة به) فهو أبعد عن دائرة العلم.

وهذا لا يعني أننا نهمله ونقصيه من مجال المعرفة، بل يعني أن مصدره الذي تستقي منه حقائقه غير العقل العلمي القاصر المحدود. هذا المصدر هو الوحي السماوي الذي يعين الإنسان في حياته ومعيشته وتعامله مع الوجود، مقدّماً له كافة الضمانات والضوابط والقواعد التي تفيده في تحقيق السعادة المنشودة.

ولقد صار من البديهي ـ في عصرنا الحالي ـ أن تسمّى الأبحاث التي تتناول بالدراسة الميدانية المتصلة بالإنسان، بالعلوم الإنسانية، ولعمري إن هذه التسمية ـ مع عدم رفضنا لها كلية ـ فيها كثير من التجاوز للحقيقة. والسبب في هذا هو أن الله تعالى قد أعطانا الحلول الناجعة لمشكلات الإنسان وأزماته الحادة. بيد أن البشرية ـ على مر العصور ـ قد استدبرت تلك الحلول الربانية، مؤثرة عليها افتراءات الفلاسفة، وأقاويل المذهبيين، وآراء المفكرين الماديين.

ولا عجب إذا وجدنا الحياة المعاصرة تختنق بالمعضلات المزمنة، بل إن هذا الاختناق القاتل ليزداد بكرّ الأيام، كلما كثرت النظريات والتفسيرات الوضعية البشرية في مجال «الإنسانيات».

إن الإسلام يأبى أن تتيه المجتمعات في دوامة الفلسفات الهدامة، لذا فهو

يقدم لها أفانين العلاج وطرائق الحل، كي تعود إلى رشدها، وتستقيم أحوالها وتنهض قدماً نحو آفاق الرقي الحقيقي.

بناء على هذا، نقول: إن «العلوم الإنسانية» أو «الإنسانيات» يستحسن أن تهتم بالجزئيات والفروع والمشكلات الآنية المتجددة، لكن شريطة أن يكون هذا كله في الإطار الإسلامي العام الذي يصون الفكر العلمي من الزيغ والتيه والضلال.

هذا، ولا بد من تصحيح مفهوم كل من (العلم) و(العمل)، لأن الترجمات الكثيرة التي انتقلت إلى أسواقنا الثقافية قد خدّرت العقول، وشلّت الأذهان، فصارت هذه الأخيرة تفكر بتفكير الغرب، وتخطط بتخطيطه، وتنقد بمقاييسه.

إننا - إذاً - في حاجة ماسة إلى تعرف المفاهيم الصحيحة، ومنها مفهوما (العلم) و(العمل) لئلا نبقى دوماً أذيالاً للفكر الجاهلي. فما هو العلم؟ وما هو العمل؟

إن «العلم - من ناحية - هو العلم الطبيعي، والعمل - من ناحية أخرى - هو تطبيق العلم بالأجهزة التقنية على اختلاف مجالات العلوم وتطبيقاتها»[1]. هذا ما يقوله جل علماء عصرنا، فما رأي علمائنا المسلمين؟

يقول الإمام الغزالي - على سبيل المثال - «إن العلم المقصود هو العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الإنسانية والحيوانية، من حيث إنها مرتبة بقدر الله، من حيث ذواتها، فالمقصود الأقصى: العلم بالله. وأما العمل فمقصود به - أساساً - مجاهدة الهوى، حتى تزول الحوائل التي ربما أعاقت الإنسان عن العلم بالله»[2].

ولا بأس أن نوفق بين التعريفين: القديم والمعاصر، مع تحديد الميادين،

---

(١) نفس المرجع. ص١٨٠-١٨١.

(٢) نفس المرجع. ص١٨٠-١٨١.

وتبيان الأطر العلمية لكل مجال معرفي، وبهذا وحده يسلم فكرنا من كل مظهر من مظاهر الإفراط والتفريط أو الغلو في الأحكام.

فإذا تحقق هذا علمنا ـ لا محالة ـ أن التقدم الحق لن يكون بنقل قشور المعرفة، واستيراد النظريات المهزوزة والمذاهب الوضعية، وإنما يكون فقط بتسيير الحياة البشرية تسييراً راشداً، يعتمد أصول الإجتماع الإسلامي، ومبادىء السعادة المستمدة من الوحي وحده. ولا ريب أن العلم يندرج ـ كوسيلة ـ ضمن هذا الإطار العام، بدل أن يكون ـ كما هو الحال اليوم ـ إلهاً يُعْبَدُ، ووثناً تسفك حوله ملايين البشر، دونما رحمة، ولا شفقة، ولا أدنى شعور بالإنسانية.

ولنعد الآن إلى موضوع تعريف العلم، لنقول فيه كلمة أخيرة وهي: إن للعلم الذي يتناول الطبيعيات والموجودات الحسية منهجاً خاصاً، تستقى قواعده من الظواهر المراد دراستها، وهذا المنهج لا يجوز أن يكتسح مطلقاً ميدان (الحقيقة المطلقة)، لأن له منهجاً خاصاً يناسبه، فإذا تحقق هذا استقامت حياتنا العقلية، وفي هذا الخير كل الخير، يقول: زكي نجيب محمود «إن الطريق لتستقيم أمامنا، إذا نحن جعلنا للعلوم الطبيعية منهجاً، ولما يتصل بالحقيقة المطلقة منهجاً آخر. أما منهج العلوم فقائم على مشاهدة الحواس وعلى إجراء التجارب وعلى سلامة التطبيق ... وأما منهج ما وراء الوقائع الصماء... فذلك شيء آخر، قد لا نلجأ فيه إلى شهادة الحواس، وإلى التجارب العابرة، بقدر ما نلجأ فيه إلى إدراك البصيرة، أو إلى إملاء الوحي...»[٢]

نقول: إن المقالة هذه صحيحة المضمون إلا زاويتين اثنتين، هما:

الأولى: إن العلوم الطبيعية ليْست مفصولة تماماً عن علم الحقيقة المطلقة، فإذا كان لكل من المجالين منهج خاص، فهذا لا يحول دون الاستفادة من

---

(١) نفس المرجع. ١٨٢.

الطبيعيات لمعرفة الخالق سبحانه وتعالى: فالكون مخلوق، والله خالق، والأول يوصل معرفياً إلى الثاني.

الثانية: إن معرفة الحقيقة المطلقة لا تؤخذ من البصيرة، وإنما من مصدر الوحي وحده، ثم ما البصيرة؟ أليست هي الرؤوس البشرية التي تخطىء كثيراً، وتصيب نادراً؟

ومن المستحسن أن نذكر في هذا المقام فقرتين هامتين اقتبسناهما من كتاب (منهج الفن الإسلامي) لمحمد قطب، وهما تشيران بكل وضوح إلى أن الرؤية الأدبية للطبيعة لا تمتاز بالعمق الفكري والجمال الفني ووضوح الحقيقة، إلا إذا استقت ذلك كله من المنظور الإسلامي. ولا ريب أن الاضطراب الذي أصاب الرؤى الأدبية غير الإسلامية مرجعه إلى الانفصام النكد بين الأدب ورسالة السماء الخالدة.

فإليك هاتين الفقرتين الهامتين:

يقول محمد قطب حفظه الله: «ومجالات الفن الإسلامي هي كل مجالات الوجود مرسومة من خلال النفس المؤمنة المتفتحة بالإيمان، فحين يتحدث عن الكون، عن «الطبيعة» فهو يراها خليقة حية متعاطفة، ذات روح تسبّح وتخشع، وتغضب وترضى، وتصادق وتعادي.. تصادق الحق وتغضب على الباطل.. ويرى في كل كائن نوعاً من الحياة والروح، من وراء الأشكال التي قد تبدو جامدة أو ميتة، كما يقول القرآن عن السماء والأرض: «**فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين**» وكما يقول الرسول ﷺ عن جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه».

وحين يتحدث عن الخلائق «الحية» من حيوان وطير ونبات، فهو يحس نحوها بالتعاطف والمودة ووشائج القربى التي تصل كل الكائنات بعضها ببعض وتصل بين الأحياء خاصة في هذه الأرض»(١).

---

(١) ص ١٨٠-١٨١.

«يعجب الإنسان حين يستعرض مشاهد الطبيعة في القرآن، كيف خلا الشعر العربي الإسلامي من وصف الطبيعة إلا في النادر، وفي وصف لا يكاد يتعمق الطبيعة إلا قليلاً، ولا يكاد يصل بينها وبين الوجدان البشري إلا في الأقل.

مع أن احتفال القرآن بالطبيعة أمر بارز يلفت النظر ويلفت الحس، ولا يمكن أن يقرأ القرآن قارىء دون أن تلفته هذه الظاهرة في ثناياه (ص٢١٢).

... تلك ظاهرة تلفت النظر في القرآن. وهي ظاهرة يلتقي فيها الفن والدين التقاء كاملاً كأنهما متطابقان، ويعمل فيها الإعجاز الفني جنباً إلى جنب مع التوجيه الديني المطلوب من وراء تلك الصور الجميلة الحية المتحركة التي توقظ الحس للجمال لتوقظه لآيات الله في صفحة الوجود.

فإذا وازنا بين هذه الوفرة العجيبة من مشاهد الطبيعة في القرآن ـ كتاب الدين وبين ندرتها العجيبة في الشعر العربي ـ وهو كتاب الفن ـ أدركنا ـ في هذا الجانب كما في الجوانب الأخرى ـ مدى الخسارة التي أصابت الفن العربي من عدم استمداده من الرصيد القرآني المذخور، ومدى ما كان يمكن أن يكون عليه من الثراء الفني: لو أنه اتجه إلى هذا الرصيد الفني يستمد منه الوحي والتوجيه» (ص٢٢٨).

* * * * *

بعد أن تعرفنا بعض خصائص العلم، يجدر بنا أن نتبين حدود المعرفة العلمية من خلال إجابتنا عن السؤال التالي:

هل استطاع العلم التجريبي وحده (كما يحلو لكثير من الباحثين أن يسموه) أن يحل مشكلات الإنسان المعاصر، ويجلب له السعادة المنشودة؟

إن هذا السؤال محرج ـ بطبيعة الحال ـ لأنه يفرض على (مؤلّهي العلم) أن يقفوا منه موقفاً نقدياً صريحاً. وهذا ما يمقتونه ويرفضونه رفضاً باتاً. بيد أن

العقلاء من الباحثين يفضلون كشف الحقيقة وإماطة السدول عنها، لتظهر ناصعة مشرقة.

إن هذه الطائفة الآخيرة قد بيّنت ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن للعلم مساوىء، كما أن له محاسن. والمساوىء هذه ليست نابعة من ذات العلم، بل إن الإنسان هو المسؤول عنها، وذلك لأنه أحدثها بسبب فرضه للمناهج التجريبية على كل شيء: فخرج العلم ـ بالتالي ـ من ميادينه الأصيلة ـ ليتيه في مجاهل لا يقوى على الخوض فيها، والسير في مفاوزها شبراً واحداً. ولعل من

ولعل من أسباب قصور (العلوم الإنسانية) وضعف نتائجها وتهافت نظرياتها ذاك الإلزام المنهجي الذي اقتضى دراسة الإنسان بالطرائق التي تدرس بها المادة الصماء العمياء. وهكذا لم تتجاوز تلك العلوم مرحلة الطفولة الساذجة.

يقول كارلوني وفيللو «في عصر الفلسفة العلمية لم تكن العلوم الإنسانية إلا في طورها الطفولي، ومفاهيمها الأساسية ليست إلّا ثمرة الأبحاث المتتالية أكثر منها ملاحظات دقيقة: أي تنقصها الرزانة العلمية. لقد أدركوا منذ ذلك الحين أن التفسيرات التي بنيت على مفاهيم كهذه قد تلقّت بالوراثة العطب السريع»(١). والأدهى والأمر أن يذهب اللادينيون مذهباً غريباً حين يحاولون إقصاء الإسلام عن تسيير شؤون الحياة، زاعمين أن مذهبهم هذا يستند إلى العلم وحده، لذا سموه بـ (العلمانية). والمتأمل ملياً لهذه الفرْية يلفي أن العلم بريءٌ مما يقولون ويّدعون، فهو ألصق بالماديات منه بالمعنويات. هذا، وإن (العلوم الإنسانية) التي يظنون أنها علوم خالصة قادرة على توجيه الحياة، لم تتمكن من حل أبسط المشكلات الاجتماعية أو النفسية المعاصرة، بل إنها ما زادت الطين إلا بلة، والمرض إلا تأزماً.

فالعلمانية فلسفة متخيلة أو مذهب وضعي ليس فيه شيء من العلم، اللهم إلّا هذا الاسم المموه. وبهذا نعلم أن النظم العلمانية ما هي إلّا نظم سياسية

(١) كارولوني وفيللو : النقد الأدبي : ص٤٧.

محضـة، تخفي وراءهـا أطماع ساسة جشعين. ثم إن الأدب (العلماني) أو (العلمي) لا قيمة له، ولا اعتبار، لكونه جاء ليمسخ حقيقة المشاعر الإنسانية، ويفسـد الفـطرة السليمـة، كيلا تدرك وظيفتهـا الأساسية في الوجود، وهي: تحكيم شرع الله وقوانين دينه الحنيف في هذه الحياة.

إن الغرض الدفين الخسيس لدى أنصار العلمانية وأدابها هو قطع الصلة بين العبد وربه، وإحلال الصلات والعلاقات الجاهلية محلها. وبهذا تنطمس أنوار التوحيد في القلوب، وتنطفىء شمس الهداية الربانية في الأرواح.

وهكذا راح أعداء الإسلام والفطرة السليمة ينشئوونعلاقات وروابط تافهة بين الإنسان والطبيعة، كي يشعر بأنه دمية تسيرها الجبرية المادية أو ريشة في مهب الرياح، لا حول له ولا قوة. ثم يقع بالتدريج الماكر في بوتقة الشهوات والغـرائز التي تبدو له مجموعة قوى حتمية تشكل حياته ووجوده الذاتي، فلا حاجة ـ إذاً ـ لمقاومتها ـ كما يصورون له ـ ما دامت هي أسس الحياة ودعامة الوجود الإنساني.

وفي هذا الصدد، يبين د. زكي نجيب اختلاف الفلسفات المعاصرة في ربط الإنسان بالطبيعة إذ يقول: «لما جاء عصرنا هذا الذي نحْياه، وجد مسرح الفكر في هذا الموضوع لا يكاد يشغله إلا أصحاب نظرة ازدواجية تقابل بين الإنسان في طرف، والطبيعة في الطرف الآخر، لكنه سرعان ما تبين أن مثل هذه النـظرة قد لا تتسق مع الفيزياء النـووية التي تسود عصرنا، ولا مع النظريات القائمة بالنسبة إلى تطور الأحياء. فأخذ فلاسفته، يميلون شيئاً فشيئاً إلى أن ـ يحلّوا ضرباً من الوحدانية بين الإنسان والطبيعة محل الازدواجية القديمة، على اختلاف بينهم في الطريقة التي يُوَحِّدُونَهَا بها، ففريق يختار في هذا التوحيد تعقيلاً للطبيعة، أي أن يجعل الطبيعة عاقلة في سيرها كالإنسان سواء بسواء، وفريق آخر يختار تطبيعاً للعقل، أي أن يجعل العقل ظاهرة كأية ظاهرة أخرى في الطبيعة، يبحث بالمنهج العلمي نفسه الذي تبحث به سائر الظواهر»(١)

---

(١) تجديد الفكر العربي: ص٣٦٦.

ومن مســاوىء تحكيم العقـل العلمي في كــل شؤون الحياة أن صار الإنسان ذاته مجموعة أشلاء، أو ركاماً من الأعضاء والأنسجة لا رابطة بينها إلّا الـوظـائف الفيزيولـوجية والعمليات الكيماوية والبيولوجية، أما جوانبه النفسية والخلقية، وأمـا شخصيتـه الفكـرية والاجتمـاعية فهذا كله لا وزن له بمعايير المادية: ولا اعتبار له في دوائر الدم واللحم والعظم.

ولعل هذا التصور المظلم أحد العوامل التي تقف وراء انحطاط الأخلاق وتضعضع القيم وانهيار العرى الاجتماعية. وكيف لا، والإنسان الذي هو محور الحياة قد استحـال كتلة من اللحم والعـظم، وإن أحسن أحـوالـه في وسطه الاجتمـاعي أن يمتلك نصيبـاً من المـال يرفعـه في أعين الناس إن تضخم، ويسقطه إن قل أو تناثر هنا وهناك.

نستخلص من هذا أن المنهـج العلمي المادي قد شوه حقيقة الإنسان، وذلك بإفراغها من محتواها النفسي والروحي والخلقي «فالعلم هناك (أي في أوروبا وأمريكا) قد أدى إلى صناعة، والصناعة تطورت حتى أسلمت أمرها إلى تقنيات دقيقـة معقـدة، وهذه بدورها قد جزأت الإنسان إلى شرائح دقيقة من التخصـص بحيث كادت حياة الفرد الواحد تنحصر في عملية واحدة يؤديها طيلة نهاره»[1].

ولا عجب إذا رأينا المجتمعات المعاصرة ـ وبخاصة الغربية منها ـ تعاني من قسوة الأزمات الروحية، وشدة وطأة الصراعات النفسية الحادة، لأن العلة كامنـة في محاولة استخراج العلم والقيم الإنسانية من الأرض وحدها، مثلما يستخرج البترول والغاز وسائر المعادن المختلفة. وهذا يتباين تمام التباين مع منهج الإسلام الذي يهدي إلى القيم الراشدة والمعايير الحقيقية، تاركاً الإنسان ينشط ويبدعُ ويكتشف في مجالات العلم الكثيرة. يقول زكي نجيب «العلم والقيـم كلاهمـا ـ في أوروبـا وأمريكا ـ ينبت من الأرض، كلاهما ينشد القوة

(١) تجديد الفكر العربي: ص٢٨٣.

والمنفعة، وأما الثنائية المقترحة فتجعل العلم نباتاً ينبثق من الأرض وظواهرها، وتجعل القيم غيثاً ينزل من السماء ووحيها، العلم نسبي يتغير مع التقدم، والقيم مطلقة تشخص إليها الأبصار، فهي ثابتة من حيث الأسس وإن تغيرت من حيث التطبيق بتغير الظروف»[٢]

هذا، وفي الإنسان جوانب كثيرة يعجز العلم عن دراستها وتعرف حقائقها، وهي جوانب تتعلق بالأخلاق والنفس والضمير والعقل والمشاعر، وما سوى ذلك، «ومن هنا ترانا لا نطمئن بالاً، حين يقال عن الإنسان إنه ظاهرة تخضع كلها للتقنين العلمي، ونحرص على أن نبقي منه جانباً يستعصي على ذلك التقنين، لأنه جانب مريد خلاق، مسؤول عن خلقه وإرادته، يبتكر الفعْل ابتكاراً، قد يغير به تسلسل الأسباب والمسببات كما يتصوره العلم الطبيعي»[٣].

ولا نبالغ إذا قلنا ـ ومقالتنا هذه تعكس بديهية يعرفها العلماء اليوم ـ إن الظواهر الفيزيولوجية ذاتها عبارة عن طلاسم وألغاز قد صار من المستحيل فهمها علمياً، باستخدام المجاهر الالكترونية والأدوات العصرية المتناهية في الدقة والضبط.

وإليك ـ فيما يلي ـ جملة من المشكلات الجوهرية تتعلق بجسم الإنسان، قد عجز العلم عن تفسيرها تفسيراً صائباً ونهائياً:

١ـ كيف بدأت الحياة؟

٢ـ ما هي الصفات الأساسية للمخلوقات الحية؟

٣ـ ما هو البروتو بلازم؟

٤ـ ما هي الصبغيات (الكروموزومات)؟

٥ـ إن اقتران الحياة بالعقل أمر مرجّح، فأين يمكننا تحديد الفاصل بينهما؟ ألم

---

(١) نفس المرجع: ص٢٨٥.

(٢) نفس المرجع: ص٢٧٦.

ننشأ نحن أنفسنا من بويضة مخصبة، حاملين صفاتنا الوراثية النفسية والعُضوية معاً؟

٦ـ ما هي الهرمونات؟

٧ـ لماذا نضحك؟

٨ـ لماذا نبكي؟

٩ـ ما هو الجنس؟

١٠ـ ما هي الأنزيمات؟

١١ـ كيف نتحمل الحرارة؟

١٢ـ كيف نصاب بالبرد؟

١٣ـ ما هي الفيروسات؟

١٤ـ كيف تنشأ التغيرات الجديدة؟

١٥ـ كيف تحدث ظاهرة النوم؟

١٦ـ لماذا نحلم؟

١٧ـ لماذا يتحتم الموت على الكائن المعقد التركيب، حتى لو استطاع الإفلات من كل الحوادث العنيفة ومن كل الجراثيم العديدة؟[١].

هذه بعض أسئلة ذكرناها ولم نشأ إحصاء كل ما جاء في هذا الباب، بيد أن النتيجة التي نستخلصها هي أن حقيقة الإنسان قد تلاشت وضاعت بين العلوم المختلفة التي جزأته تجزئة. فما هو هذا الإنسان؟

إنه «الجثة التي شرحها البيولوجيون (علماء الحياة)، والشعور الذي لاحظه علماء النفس وكبار معلمي الحياة الروحية، والشخصية التي أظهر التأمل الباطني لكل إنسان أنها كامنة في أعماق ذاته. وإنه، أي الإنسان، عبارة عن المواد الكيماوية التي تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا. إنه تلك الجمهرة المدهشة من الخلايا والعصارات المغذية التي درس الفسْيولوجيون (علماء وظائف

(١) سرجون آرثر طومسون: مشكلات تحير العلم. ص٢٣٢.

الأعضاء) قوانينها العضوية. . إنه ذلك المركب من الأنسجة والشعور الذي يحاول علماء الصحة والمعلمون أن يقودوه إلى الدرجات العليا أثناء نموه مع الزمن. . إنه ذلك الكائن الحي العالمي الذي يجب أن يستهلك بلا انقطاع السلع التي تنتجها المصانع حتى يمكن أن تظل الآلات، التي جعل لها عبداً، دائرة بلا توقف»[1].

إن الكسيس كاريل ـ وهو الحائز على جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة ـ قد اعترف اعتراف العالم النزيه أنه في الإنسان مجاهيل لا تحصى، يعجز العلم الحديث ـ بكافة فروعه وإمكانياته الهائلة ـ عن أن يلقي بعض أضواء على أحدها.

وهناك فقرة مطولة هامة من كتابه الرائع تتضمن أسئلة جوهرية تحيّر العلم والعلماء حقاً:

● الإنسان ذلك المجهول، من صفحة ١٧ إلى صفحة ١٩ من قوله (وواقع الأمر. . .) إلى قوله (بدائية في الغالب).

هذا فيما يتعلق بالإنسان، فما الأسئلة المحرجة التي تواجه العلماء في ميادين الطبيعة والحياة بعامة؟

لا بأس أن نذكر غيْضاً من فيض، وذلك على سبيل التمثيل لا غير، وهذا كما يلي:

١ـ ما هي الجاذبية؟
٢ـ ما هيا المغناطيسية؟
٣ـ ما هي الكهرباء
٤ـ ما هي حقيقة الأثير؟
٥ـ ما هي المادة ذاتها؟

---

(١) ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول. ص١٦.

٦ـ لماذا تتحول المادة إلى طاقة، والطاقة إلى مادة؟[1].

٧ـ ما حقيقة الفراغ: أهو مادة أم ماذا؟

* * * * *

لقد تعمدنا جمع بعض الأسئلة العلمية لنبيّن لمؤلّهي العلم أن عقل الإنسان محدود الطاقات، ضعيف القدرات، لا يقوى على الإحاطة بماهية الشيء وكنهه، فضلاً عن أن يحيط علماً بالوجود كله.

فالعلم ـ وهو خلاصة المجهودات العقلية ـ «لا يفيدنا ولا يستطيع أن يفيدنا عن طبيعة الأشياء أخيراً بصورة نهائية، فلا يستطيع العلم أن يجيب على سؤال يصاغ على نحو «ما كنه هذا الشيء؟» وإنما في وسعه أن يخبرنا عن كيفية سلوك هذا الشيء فحسب»[2].

إن هذا التفصيل أردناه لنوضح أن محاولة ربط الأدب بالعلم عن طريق موضوعاتهما المشتركة كالإنسان والحياة والوجود، لا ينبغي أن يكون ربطاً جبرياً حديدياً، خشية ضياع أهداف العمل الأدبي في متاهات وفرضيات ونظريات، أنشأها مؤلهو العلم وسائر أرباب الفكر الجاهلي.

فمن العبث ـ إذاً ـ أن نحْرص كل الحرص على (علمنة) الأدب، وإخضاعه لمنهج غريب عن طبيعته وعناصره وأهدافه ومقاصده. فقد اقتضى الأمر أن يسير كل مجال معرفي في فلك منهجه الخاص، وقد تكون هناك نقاط التقاء بين المجالات والمناهج، لكن لا يتجاوز هذا الالتقاء أو التقاطع حدود التأثر والتأثير الإيجابيين إلى حد المسخ والتشويه، وإقامة التبعية محل الاستقلالية والتميز.

---

(١) انظر الدراسة القيمة التي كتبها د. يحيى هاشم حسن، بعنوان «في مواجهة الإلحاد المعاصر (وعقائد العلم). سلسلة البحوث الإسلامية. ط. الأزهر. يناير ١٩٨٠.

(٢) ١٠١٠ رتشاردز: العلم والشعر ص٦٢.

والعجيب أن يذهب كثير من الأدباء مذاهب شتى في تضمين نتاجهم بعضاً من نظريات العلم الحديث، وكذا نصيباً من التفسيرات المذهبية التي تحمل ـ نفاقاً وتمويهاً ـ أسماء علمية براقة.

إننا نعتبر ما يكتبه هؤلاء هراء، وغثاء، وكلاماً غريباً: لا هو ينسب إلى الأدب، لأنه خال من خصائص الأسلوب الأدبي، ولا هو يتصل بالعلم، لأنه تقليد أعمى ومحاكاة ممسوخة لنظرياته وتفسيراته وتخميناته.

وقد يكون في هذا النتاج الأدبي الغريب بعض الإيحاءات العاطفية ونصيباً من الصور الجمالية، وما له علاقة بطبيعة الفن الأدبي، بيد أن هذا كله يعتمد التصنع والتلفيق، وينأى كلية عن المنهج الفني القويم، أو إن شئت فقل: إن ما يكتبه هؤلاء عبارة عن أشباح فارغة من روح الأدب وطبيعة الفن، لا لشيء إلا لأن هدفهم هو مجاراة الركب (الحضاري) ومسايرة (النهضة) التكنولوجية.

وقد يعلمون ـ أوْ لا يعلمون ـ حقيقة مرّة، يتناسونها أثناء كتابتهم، وهي أن العلم قَدْ منح البشرية تكنولوجيا متسلطة، متجبرة، متكبرة، تغزو الحياة والعقول، محوّلة كل شيء من حالته الطبيعية الجميلة إلى حالة مشوهة غريبة، تنفر منها الفطر السليمة، لكن بدون جدوى:

وقد تولد عن هذه الوضعية مأساة إنسانية أليمة، تزداد وطأً على مر الأيام، ألا وهي تمزق شخصية الإنسان وقلقها النفسي الدائم، من جراء التحدي التكنولوجي، والسيطرة البيروقراطية التي تدّعي أنّها تُؤْثِرُ التخطيط والتنظيم على الفوضى والاضطراب. لذا استحال الإنسان في هذه الأجواء المكهربة كتلة مادية خاضعة للإحصاء والعد والنقل وما سوى ذلك، يقول د. زكي «... لكن العلم قد تولد عنه ولد ـ هو التقنية (التكنولوجيا) ـ فجاء هذا الولد الشيطاني ليضع سلطاناً لا يُحَدُّ في أيدي الممسكين بأزمة الأمور، والذين بحكم أوضاعهم المكتبية (البيروقراطية) قد حولوا أفراد الناس في مخططاتهم وفي إحصاءاتهم إلى نكرات تعرف بالرقم والعدد؛ مما أدى في كثير من الأحيان إلى أن فقد هؤلاء

الأفراد حرياتهم الشخصية إلى حد كبير»[1].

والحديث يطول لو حاولنا تتبع هذه المأساة الأليمة التي أصابت البشرية من جراء تسلط التكنولوجيا، لكن بعض الحديث يغني ويكفي، ليعلم كل عاقل أن تخبط الموجهين والمخططين كان نتيجة تحكيمهم للعقل العلمي وحده، دون أن يلتفتوا إلى توجيهات الدين الصحيح. بل كيف يلتفتون إليها وهم يصمونها بالرجعية والجمود.

نقول كل هذا، ونحن نتحدث عن الأدب، لأن هذا الأخير ما هو إلاّ ظاهرة إنسانية تتأثر وتؤثر، وتتفاعل مع سواها سلباً وإيجابياً. فالعلم ـ كما رأيت ـ قد امتدت آثاره إلى الأدب، فأثرته وأغنته بعناصر جديدة عند طائفة من الأدباء، وأفسدت جوهرهُ وشوهت معالمه وطبيعته الفنية عند طائفة أخرى، ظنت أن مهمته هي تصوير الحياة المظلمة، والدعوة إلى نظريات ومذاهب لا تحمل من العلم إلا اسمه وشعاراته.

ثم لا يجوز أن ننسى دور النقاد الإيديولوجيين الذين أوقدوا نار الصراع الفكري المعاصر، فدعا كل من هؤلاء بإلحاح إلى التمسك بمذهبه الوضعي، وتصوير مبادئه تصويراً أدبياً يساعد على إقناع الناس وحملهم عليها.

هذا، وإن الحيلة التي ما زالوا يستخدمونها بدون كلال ـ وذكرْناها أكثر من مرة ـ هي أن يسموا مذاهبهم ومبادئهم وأيديولوجياتهم التافهة المتهافتة بأسماء علمية خداعة، تسلب عقول السذج البسطاء.

ولا نندهش إذا وجدنا صدى هذه الدعوة المنحرفة في عالمنا العربي، ما دامت الساحة الفكرية والأدبية فارغة من كل شيء إلا من مظاهر التقليد الأعمى والزخارف البراقة التي لا طائل تحتها. ثم نقول بصراحة: إن أدباءنا (وكذا مفكرينا) اندفعوا في هذا التيار الخطير، زاعمين أنه السبيل الوحيد للتقدم

(١) د. نجيب زكي: في فلسفة النقد. ص٨٧-٨٨.

الحق، والأسلوب الناجع لقيام أدب عربي معاصر يكون في مستوى العصر والأحداث، ويستطيع ـ بالتالي ـ منافسة آداب الدول الآخذة بأسباب النهضة والرقي التكنولوجي.

ولعمري، إن ما أصاب أدباءنا هؤلاء نابع من الفراغ الروحي الذي ينخر نفوسهم، ويقضّ مضاجعهم، ولو تأملوا لوجدوا أن نتاجهم الفني لا يعبر عن الشخصية العربية الإسلامية، ولا عن واقعهم وآمال شعوبهم وآلامها ومشاكلها.

وبعبارة أوضح، إنهم يعكسون في أعمالهم الكتابية هموم الغرب ومشكلاته وأزماته، شاعرين بذلك أم غير شاعرين. وهذا هو عين الغزو الثقافي الذي أصاب أمتنا في أقدس ما تملك، وهو عقلها وشخصيتها ودينها.

وفي هذا الإطار، نلفي أدباءنا قد انبهروا بالتقدم الهائل الذي بلغه الغرب في مجالات العلم والتكنولوجيا، فراح أكثرهم يصور مجتمعات أوروبا وأمريكا على أنها النموذج الأمثل الذي ينبغي أن يُحتذى به دون سواه.

والأدهى والأمر، أن هؤلاء يتصفون بضحالة الفكر، وسطحية الرؤية، فظنوا ـ من ثم ـ أن كل النّتاج التكنولوجي والعلمي المعاصر صالح لنقله إلى عالمنا العربي، فراحوا ـ بعد ذلك ـ يدعون إلى ذلك دعوة قوية تتجسد في المظاهر التالية:

أ ـ حاول كثير منهم تصوير بعض منتجات الغرب ومصنوعاته في قوالب أدبية، لكن هذا التصوير جاء مشوهاً ممسوخاً لا روح فيه، ولا مقاصد إنسانية نبيلة.

ب ـ إلى جانب هذا، نلفي بعضهم ينقلون في أدَبهم زخارف الغرب وأشكاله المدنية، دونما تبصّر أو تروّ، وكيف لا ينهجون هذا النهج، وهم عديمو الانتماء الحضاري الصحيح؟

جـ ـ وقد يظهر موقف يبدو ـ بادىء ذي بدء ـ معتدلاً، متزن التفكير، بيد أنه يتصف بالانهزامية الحضارية، وفحواه أنه يلفق بين التراث والمعاصرة تلفيقاً هو

أشبه بالركام. والسر في ذلك هو أن أصحابه (ومنهم الأدباء بشكل خاص) شعروا أن الغرب قد فاق العالم العربي، وتجاوزه بمراحل وأشواط كثيرة، بحيث اتسعت الهوة اتساعاً كبيراً، لا سبيل إلى تقريبها بأي حال من الأحوال. لذا اقترحوا أن يلتمسوا في تراثنا ما يبرر أسباب الأخذ من الغرب. وإنها لكلمة حق أريد بها باطل، لأنهم يحرصون على جمع النصوص والنماذج التراثية التي تحقق نزواتهم وأغراضهم الجاهلية. أما أن يراعوا في ذلك مختلف الضوابط الإسلامية، فلا. لذا فقد وصفنا هذا الاتجاه بالانهزامية الحضارية، على الرغم من أنه يدّعي الاعتدال والوسطية في الرؤية والتحليل واختيار المواقف.

على كل، إن اتجاهات الأدباء عندنا ما هي إلّا مرآة لما ظهر ويظهر لدى غيرنا من مذاهب وآراء ونزعات. وقد ذكرنا سالفاً أن موجة التغريب لم تصب الأدب فقط، بل أصابت أيضاً الفكر والثقافة والدراسات الأكاديمية بعامة. فما أيسر على المثقف العربي اليوم «أن يعبر البحر الأبيض المتوسط، لينهل من موارد العلم في أوروبا، بحيث يجعل من نفسه نسخة مكررة مما هو كائن هناك»[1].

فالفكر العربي المعاصر ـ وكذا الأدب ـ نسخة مكررة لما في الغرب، لا فرق بين هذا وذاك إلا في اللغة. ولما كان الفكر الأجنبي قد تشبّع بالعلم وانعكاسات التكنولوجيا، فإن نظيره العربي قد تشرّب هو أيضاً ذلك، بنسب مختلفة، تبعاً لأهواء الأدباء والمفكرين.

إننا نعد هذا التأثر السلبي ظاهرة مرضية أو أزمة حضارية ـ فوق أنها فكرية وأدبية ـ يجب أن تتخلص منها ثقافتنا باذلة في هذا كل جهودها وطاقاتها، وإلا ذابت شخصيتنا وتلاشت قيمنا الإسلامية الأصيلة في بوتقة الفكر الجاهلي الهدام.

وفي هذا الصدد، لا بد أن يعلم الأديب عندنا أن الغرب قد فشل في ربط

---

(١) تجديد الفكر العربي، ص٢٧٠.

الإنسان بالعلم ربطاً حضارياً صحيحاً، تكون نتيجته السعادة المنشودة. فجاء أدبه ـ بالتالي ـ يصور هذا الفشل أو تلك الأزمة الخانقة. ثم ماذا عسى هذا الأدب أن يفعل أكثر من ذاك التصوير السلبي، وهو خال من القيم الروحية الحقيقية والمعايير الحضارية الصحيحة. بل إنه يشنّ عليها حرباً شعواء لا هوادة فيها.

وإنا لنعلم أن هناك أيدٍ خفية وأيدٍ ظاهرة تسعى دوماً نحو تحريف الأدب عن وجهته الصحيحة، وإبقائه تائهاً في دوامة النظريات والزخارف العلمية الزائفة.

فهو ـ إذاً ـ تابع ذليل، يقول ما يملى عليه، ويصور ما يقدم له أو يراه، دونما محاولة للنقد أو إعادة النظر في أصول الحياة الجاهلية. يقول د. زكي «لقد فشل الغرب نفسه ـ وهو صانع العلم الحديث ـ في أن يقيم لنفسه مثل هذا اللقاء بين الطرفين، فكان له العلم، ولكنه فقد الإنسان. وليس هذا الاتهام من عندنا، بل يكفي أن نتتبع الأدب في أوروبا وأمريكا اليوم ـ والأدب هو المرآة المصّورة للإنسان وما يعتمل في نفسه ـ لنرى ما يحسه الناس هناك في دخائل صدورهم من ملل، وسأم، وضيق وحيرة وضياع»[1]. فالأدب قد فقد دوره الحضاري، وأهمل مسؤولياته الجسام في التربية والتوحيد وتهذيب المشاعر والأذواق، وتقويم المواقف والتصورات، وصار يلبي حاجيات المذهبيين الإيديولوجيين، ظاناً أنه يساير بذلك عصر العلم. ولعمري إن ما يفعله بعيد كل بعد عن الرسالة الكبرى التي هو مكلف بأدائها وخدمتها أحسن خدمة.

فمن المطلوب أن يعالج هموم العصر الناجمة عن سيطرة التكنولوجيا، لا أن يصور هذه الأخيرة تصويراً جذاباً يغري بها النفوس المريضة. ومن المطلوب كذلك أن يقدم الحلول الصحيحة لمشكلات الإنسان المعاصر التي أصابت عقله وروحه بأفانين الشك والتيه والاضطراب في التصورات والعقائد

---

(١) تجديد الفكر العربي، ص٢٧١.

والمواقف، وذلك بدل أن ينقل إلى الناس (نظريات) العلم الباطلة، وأكاذيب الملحدين، لأن هذا النقل الأدبي الخبيث يزيد الطين بلة، ويعقد المشكلات، ويحول الأمراض النفسية من حالة إمكان معالجتها إلى حالة صيرورتها مزمنة، لا ينفع فيها نصْح ولا توجيه ولا علاج.

هذه هي المشكلة الأساسية التي نطرحها في هذا الفصل، ونؤكد عليها دوماً كلما تناولنا أحد جوانبها وأطرافها. بيد أن نقادنا المعاصرين لا يأبهون لهذه القضية ولا يُشيرون إليها، وإذا أشاروا كانت نظرتهم جاهلية خالصة، تعكس وجهات نظر الأجانب لا أكثر. فالنقد الأدبي المعاصر في العالم العربي لا يعنى بشرح موقف الإسلام، وبسط قواعده في هذه المسألة،لأن أصحابه يظنون أن الإسلام لا يتجاوز الشعائر التعبدية، ولا يمس ـ عن بعد ولا عن قرب ـ مجالات الحياة العديدة.

وهـذه المقالة الأخيرة ـ كما ترى ـ هي محض افتراء وهي تشكل قاعدة أساسية تعتمدها التيارات النقدية العربية المعاصرة ـ بل التيارات النقدية الأجنبية المنقولة إلى اللغة العربية ـ وهذه الأخيرة تدعو بكل تبجح وإصرار إلى عصرنة الأدب العربي: أي جعله يصور أحداث العصر، ومظاهره المدنية والتكنولوجية والاجتماعية، كي ينقل بهذا الأسلوب الأجيال الصاعـدة إلى قمة المجد والرفعة.

والله يعلم والعقـلاء أن تطوير الأمـة العـربية والإسلامية لا يكون بمسخ شخصيتهـا، وتذويب كيانها في بوتقة الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي، وإنما يحصل فقط بإحياء أصول حضارتها الإسلامية في كافة المجالات، لتتبوأ هذه الأمة مكان الأستاذية كما كانت من قبل. وبدون هذا، ستبقى ـ لا محالة ـ تابعـة ذليلة لغيرها: تطيع وتنفذ، ولا تعصي ولا تنقد.

أمـا الأدب ـ في أجـواء التبعية التكنولوجية ـ فإنه سيظـل يحمـل سموم الدعوة الجاهلية، ويوجه القراء بخاصة نحو الإعجاب النفسي بمفاتن العلم،

وتشرب نظرياته ومذاهبه وعقائده الفلسفية الإلحادية بلا استثناء. وقد ترى تنوعاً أدبياً في أسلوب العرض وطريقة الدعوة، بيد أن الغاية واحدة، والمقصد مشترك، لا يعدو أن يكون محاولة إقناع الناس بادعاءات الملحدين التي تحمل أسماء وشعارات علمية زائفة.

هذا، وإن الأدب المعاصر الذي يزعم أنه يواكب النهضة المدنية والتكنولوجية لا يعرف ـ عن قصد أو غير قصد ـ أن هناك تناقضاً خطيراً بين العلم (الإله) والحرية الإنسانية، وذلك من حيث أن العلم يؤمن بالحتمية في كل شيء: فالموجودات تتحرك في إطار الأسباب والعلل الثابتة، ويظهر بعضها ويختفي بعضها الآخر بشكل منتظم، بناء على تأثيرات قوى طبيعية.

وقد انتقل هذا المفهوم من دائرة علوم الطبيعة والمادة إلى دائرة العلوم الإنسانية (أو الإنسانيات)، فأضحى الفرد كتلة خاضعة لقوى عديدة، أهمها: الدوافع الباطنية (عند علماء النفس) والظروف الاجتماعية (عند علماء الاجتماع) وقوى الانتاج (عند علماء الاقتصاد) وهلم جرا.

فأين ـ إذاً ـ حرية الإنسان في عالم القوى أو عالم الحتمية العلمية؟ وما حقيقة (الإرادة) في دنيا العلاقات الجبرية؟

لا شك أن مفهوم (الحرية) عند سدنة العلوم الإنسانية لا معنى له، أو هو شبح لا رصيد له في الواقع الإنساني.

وقد تلفي بعضهم يلوكون لفظة (الحرية) هذه، لكن يلوون مفهومها ليستحيل معنى غريباً يحوم حول ذاك الرضا النفسي بحتمية التبعية للغرائز من جهة، وظروف المجتمع المنحرف من جهة أخرى.

إن التفسير الأدبي لتبعية الإنسان لغرائزه وشهواته وأهوائه قد استقيت مفاهيمه وعناصره الفكرية المختلفة من التفسيرات الخاطئة التي ادعى أصحابها أنها «علمية» المحتوى، موضوعية الحقائق. ومجالها الذي ترعرعت فيه هو طبعاً

«العلوم» الإنسانية التي أريد أن تكون على شاكلة العلوم المادية الجافة.

فالماديون الملحدون يقولون: إن الأدب الحق هو ذاك الذي يصور العلاقات الطبيعية بين الإنسان وغرائزه وشهواته، ويصفها بوصفين:

الأول: أنها علمية خالصة، تطابق طبيعة النفس البشرية وتعكس حقائقها الفطرية.

الثاني: أنها عين التحرر، وأسمى مظاهر التميز والظهور والاستقلالية.

وَرَدُّنَا على هذه الشبهة يتمثل فيما يلي:

أ ـ إن العلم ـ في حقيقته ـ لا يدرس إلا الثوابت، والحتميات، والأشياء الخاضعة لقانون العلمية أو السببية. لذا وقعت «العلوم» الإنسانية في أزمة خانقة، حين أراد أصحابها الملحدون أن يردوا حياة الإنسان إلى مجرد ظواهر حتمية، ويجعلوا فطرته عبارة عن قوى باطنية محكومة أصلاً بقوى طبيعية.

ب ـ إن الدراسات الإنسانية لا تكون هادفة وموضوعية إلا إذا أدخلت إرادة الإنسان وحريته في اتخاذ التصرفات والمواقف، في الحسبان. وعلة ذلك أن جل الظواهر الإنسانية وأغلبية الظروف البشرية تحركها ـ أكثر ما تحركها ـ قوة الإرادة، وصرامة الحرية. ولا تعجب إذا قلنا: إن إرادة الإنسان قد تتحدى صعاب الحياة، وترد قوى قاهرة إلى الوراء، وذلك إذا اجتمعت الإرادة والعزيمة والصبر وسائر الفضائل النفسية المعروفة.

جـ ـ إن صفة «العلمية» لا يمكن إلحاقها بالتصور النقدي الأدبي لعلاقة الإنسان بغرائزه وظروف مجتمعه، لأن التصور هذا خاطىء كل الخطأ، فهو يشوّه الحقائق، ويكذب على العلم الصحيح، بزعمه أن متّبع الأهواء والخاضع لجاهلية مجتمعه هو الموضوع الذي يجب تصويره أدبياً، لكونه يعتمد قانون العلية أو الحتمية.

د ـ ثم يقع هذا التصور النقدي الأدبي في تناقض صارخ، فهو يشير من جهة

إلى الترابط الحتمي «العلمي» بين الإنسان «السوي الطبيعي» وغرائزه وأهوائه ـ وما هو بِسَوِيٍّ ولا طبيعي في هذه الأحوال الدنسة ـ ثم يذكر من جهة أخرى أنه حرّ، مريد، يختار من الشهوات ما يشاء، ومن الأهواء ما يحب.

هـ ـ والحقيقة أن الإنسان ـ في منظور الإسلام ـ عبد ذليل حين يتساقط ويجثو أمام شهواته وغرائزه، فلا حرية حقيقية، في هذا المقام. بيد أنه حر، كامل الإرادة، يتصرف بعزة وشهامة وشجاعة وكرم نفس إذا تسامى على وساوس الشيطان، وإغراءاته، وأخضع نفسه لما يحب الله ويرضى.

هذه الردود الفرعية توضح لنا ـ كما رأيت ـ مدى تهافت التصور الجاهلي ـ في مجال الأدب ـ لعلاقة الإنسان بدوافعه النفسية المختلفة. وقد تبين لنا من هذا البسط أن الأدب الحق يعنى في هذا الميدان بإبراز مفعول الإرادة الإنسانية الطيبة، وآثارها الحسنة التي لا تحصى ولا تعد. فلا يجوز ـ إذاً ـ أن نطمس هذه الحقيقة، ونستبدل بها أخرى لا رصيد لها في الواقع الإنساني الطاهر، كما أنه لا يجوز كذلك أن نلوى عنق العلم ليقول لنا كرهاً: إن اتباع الشهوات والغرائز دون الأخلاق والقيم النبيلة هو عين التحرر وقمة السعادة المنشودة.

فالعلم لا يدرس إلا الظواهر ذات العلاقات السببية التي تميل إلى جانب الحتمية ميلاً كبيراً، أما ما له علاقة وثقى بالإرادة أو الحرية، فلا شأن للعلم به ما دام يأبى القيود ويثور على الضغوط والحتميات والضرورات.

استناداً إلى هذا، نقول: إن الإنسان ذو شقين (من الناحية الوظيفية لا الخلقية الفطرية):

الشق الأول: تحكمه الضوابط المختلفة، وكثير من القوى الخارجية. وهذا هو الجانب الذي يعنى به العلم أشد عناية، إذ العلم ـ كما ذكرنا سالفاً ـ يدرس ما هو مطرد، وما هو محكوم بأسباب فاعلة وعلل ملزمة.

الشق الثاني: تسيره قوى الإرادة الإنسانية التي منحنا الله إياها، فبها نستمكن

من تحديد المواقف، وتخير التصرفات اللائقة لمواجهة مشكلاتنا ومعالجة قضايانا الحيوية. فلا يجوز ـ إذاً ـ أن نخلط بين الشقين أو نؤثر أحدهما على الآخر، مثلما يفعله المثاليون (يؤثرون العقل النظري وما له علاقة به كالإرادة) والماديون (يغلبون المادة: فلا إرادة، ولا أخلاق، ولا عقل). يقول د. زكي «أعني ضرورة أن يخضع الإنسان لواقع العالم كما يثبته العلم، مع ضرورة أن تظل للذات حريتها: فترغب وترهب، وتحب وتكره، وتختار وتدع، وتقبل وتدبر، وتجرؤ وتجبن، وتستجمل وتستقبح ما شاءت لها أهواؤها وميولها.

فالعلم بالطبيعة الخارجية قيد، وانطلاق الطبيعة الداخلية على سجيتها حرية، والجمع بين ذلك القيد وهذه الحرية هو ما نريده للمواطن العصري»[1].

من هذا نستنتج أن الأدب يفقد طبيعته الفنية الحقيقية وينأى عن رسالته الحضارية، حينما يمشي وراء التفسيرات المادية، فيصور الإنسان شيئاً كالأشياء وكتلة كالكتل، تخضع لقوى المحيط وضغوط الغريزة. والأعجب أن انصار هذا التيار الأدبي الجاهلي يغلفون نتاجهم الهش بغلاف العلم، ليأمنوا شر النقد وسهام الكشف المخزي لنواياهم الخبيثة وأغراضهم الخسيسة.

إن الأدب الحقيقي يحرص دوماً على تصوير مواقف الإنسان الإرادية، وهو يتحدى مختلف قوى الشر، وسائر الضغوط المفسدة. كما أنه يهتم أيما اهتمام بالوصف الفني لانتصار قوى الخير ونتائجه الحسنة، على مستوى الفرد والمجتمع والبشرية جمعاء.

* * * * *

هذا، وإن من مساوىء تألية العلم وإخضاع الأدب له إخضاعاً كلياً، أن صارت العواطف الإنسانية أشباحاً لا وجود لها. فالأديب ـ عند أصحاب هذا التصور المظلم ـ يجب أن يعبر عن مشاعره وأحاسيسه الباطنية تعبيراً واقعياً

---

(١) تجديد الفكر العربي: ص٣٠٠ـ٣٠١.

مادياً، أي أن يجعلها ـ بأساليبه الفنية الخاصة ـ مجرد انعكاسات لغرائزه الحيوانية وأغراضه الشهوانية. ومن المستحسن ـ عند أنصار هذا الاتجاه ـ أن يحرك في نتاجه الأدبي شخصيات معينة تتمثل مشاعره وأحاسيسه تلك.

فالعواطف (أو المشاعر والأحاسيس) لا وجود ولا استقلال لها، لأنها بعض إفرازات المادة أو الغريزة، فلا فرق بين هذه وبين إفرازات المعدة والأمعاء وسائر الغدد في جسم الإنسان.

هذا، وقد انتشرت موجة المادية أو الإلحاد في أوساط الشباب بخاصة، فجعلتهم تائهين في تصوراتهم ومواقفهم ومعاملاتهم السلوكية والاجتماعية. ومنها قراءاتهم التي انصبت على كل ما له علاقة بانحرافهم وضياعهم: فكان الأدب الماجن أو الفنّ الحيواني الرخيص مادة مستساغة لدى هؤلاء، لأنه يساعدهم على التمادي في غيهم وباطلهم.

وانظر ـ إن شئت ـ إلى ذاك الركام الضخم من الدواوين والقصص التي يدّعي أصحابها أنهم يعبرون فيها عن العواطف الحقة والمشاعر الصادقة، مع أن الحقيقة تكذب ذلك، فما يعنون به هو كل ما يبرز حيوانية الإنسان الجاهلي ويزيدها اشتعالاً أو غلياناً.

إن الأديب الملتزم بالقيم الصحيحة والمبادىء الإنسانية السامية، التي يتضمنها دستور الإسلام الخالد، هو ذاك الذي يكرس جهوده واستعداداته وقدراته الفنية، لتجلية العواطف النبيلة والمشاعر الفاضلة، التي تراكم عليها غبار النسيان بل الإهْمال. وقد يتعبك البحث الطويل عن الأدب الجاد، فسوف لن تجد منه إلا النزر القليل الذي ينهج نهج التصور الأدبي الإسلامي الأصيل.

* * * * *

أضف إلى هذا أن الأدب ليس كالعلم، وذلك لأن الأول يعتمد أسلوباً خاصاً يتضمن عناصر التأثير العاطفي وعوامل الحفز النفسي، في حين أن الثاني

لا يقبل إلا الأسلوب البرهاني أو الاستدلالي. ولا مبالغة في قولهم بأن أسلوب التأثير النفسي مفسدة أيما مفسدة للبحث العلمي، الذي تشترط فيه الموضوعية وإبعاد الذات وسائر العواطف والانفعالات البشرية.

والغاية من هذا التميّز هي أن العلم يهدف إلى تقديم الحقائق الصحيحة والمفاهيم الظواهرية، فيما يتعلق بالحياة في جوانبها المحسوسة، بينما الأدب يحرص دوماً على ترقية المشاعر وتصفية الأرواح من العواطف الطالحة، وذلك عن طريق تحبيب الأحاسيس والقيم الفاضلة إليها. وهو في هذا يستخدم أيضاً أدوات فنية هامة، مثل الإيقاع الصوتي الجميل للألفاظ، وانتقاء العبارات ذات الطاقة التأثيرية. يقول رتشاردز «فليس العامل الأساسي الذي نفسر به الحديث (أي الأدب) هو المدلول المنطقي المحدود للكلام، وإنما هو نغمة الصوت المناسبة التي قيل الكلام فيها. ويجدر بنا أن نذكر أن العلم يحاول استبعاد هذا العامل، ونجاحه في هذه المحاولة يزداد على مر الأيام. فنحن نصدق العالم، لأنه يستطيع البرهنة على صحة ما يقول، وليس لكونه بليغاً فصيحاً في قوله. بل إنّما نشك في قوله إن كان يعتمد في أسلوبه على سبيل التأثير فنياً»(١). ويقول كذلك «هناك فرق كبير بين التقديرات العلمية والتعبير العاطفي. فالقضية العلمية نثبت صدقها أو كذبها، عن طريق التحقيق العلمي بالمعنى الدقيق للفظة التحقيق، كما يفهمها العالم في معمله.

أما صدق التعبير العاطفي، فمعناه أولاً قبولنا هذا التعبير قبولاً عاطفياً، لتوافقه مع موقف من مواقفنا العاطفية، وبعد ذلك قبولنا الموقف العاطفي ذاته الذي يتضمّنه التعبير»(٢). فالأسلوب الأدبي - إذاً - يتميز بكونه يحمل عناصر لغوية وبلاغية وجمالية تحرك فينا العواطف، وتخاطب أرواحنا أكثر مما تحاور عقولنا. ولا ريب أن هذا أكبر عامل يجعل الأدب يحتل إحدى مراتب الصدارة

(١) العلم والشعر: ص٢٩.

(٢) العلم والشعر: ص٦٦.

في توجيه الأفراد والجماعات والمجتمعات نحْو ما يراد لها بلوغه.

والسر في هذا هو أن الإنسان يتحركُ في معظم أحواله، بدوافع عاطفية يؤمن بصلاحيتها واستقامتها، أما عقله فلا يقدم له إلا المبررات المنطقية لمواقفه النفسية. وبتعبير أوضح، إن الأدب يحرك الوتر الحساس الذي هو العاطفة المتأججة، تاركاً العقل في رتبة ثانوية لكونه جامداً من جهة، ولأنه ـ من جهة أخرى ـ يكتفي بإصدار أحكام مجردة، يتوزعها مقياسا الصواب والخطأ.

فالعامل الأولي والأساسي في الأدب ـ وفي الشعر بخاصة ـ ليس هو الفكر (أو العقل)، وإنما هو التجربة النفسية للأديب. وهذه القضية تعتبر إحدى القضايا الجادة التي يعالجها النقد المعاصر، ليقنع الناس بأن الأدب له دور حضاري كبير، قد يفوق دور العلم، فـ «إساءة فهم الشعر والتقليل من أهميته مردها قبل كل شيء المبالغة في أهمية العنصر الفكري فيه. ولكننا نستطيع أن نتبين بصورة أوضح، كيف أن الفكر ليس هو العامل الأولي في الشعر حينما ننظر إلى تجربة الشاعر نفسه»(1).

* * * * *

هذا، وإن من الفروق الكبرى بين العلم والأدب أن الأول يبحث عن الاطراد والثبات في ظواهر الحياة والوجود، بيد أن الثاني لا يأبه لهذا مطلقاً، لأنه لم يوجد لهذه المهمة أو لم ينشأ لتلك الغاية. وقد أشرنا ـ غير ما مرة ـ إلى أن لكل من ضروب المعرفة أو الفكر الإنساني، مجالاً خاصاً يصول فيه ويجول، كما أن له منهجاً معيناً لا ينبغي أن ينحرف عنه.

فالأديب ـ استناداً إلى هذه البديهية الهامة ـ ليس مطالباً بالبحث عن القوانين والضوابط العلمية، التي تعنى بتحديد مظاهر الاطراد والثبات والتعميم، وإنما رسالته فنية خالصة، تتمثل في إبراز ذاته من خلال ظواهر

---

(1) العلم والشعر: ص٣١.

الحياة، وتصـوير مواقفـه والتعبير عن مشاعره بأشكال جمالية، تتميز بخاصية الإيحاء أو التعبير غير المباشر.

وإني أطـالبـك بأن تقـرأ مقتطفات من عيون الآداب ـ فضلاً عن الأدب العـربي ـ لتعلم أن الأديب العبقـري هو ذاك الـذي يستخـدم الرموز اللغوية استخداماً فنياً، يرمي من ورائه إلى ربط الكون به أو تشخيصه (أي نقله من حالة الجمادات إلى عالم البشر).

ومن المعلوم أن سر نجـاح الأدبـاء يتنـاسب ودرجـة التشخيص، ومـدى القدرات الفنية الأخرى، التي من شأنها تحوير ظواهر الطبيعة تحويراً جمالياً رائعاً.

وهذا لا يفيد مطلقاً أننا نؤيد التحوير الأسطوري أو الخرافي، الذي ساد في جل العصور القديمة ـ وما زالت النزعة الأدبية الأسطورية هذه تلقى آذاناً صاغية في وقتنا الحاضر ـ ومهما كان أمر النقاد عن ذاك التراث الأسطوري، فإن الرأي الصائب هو أن الأدب لا يجوز أن يشوّه الحياة، بواسطة إخراج فن التحوير عن حدوده المعلومة. ويكفيك أن تقرأ شيئاً من إلياذة هوميروس، لترى هذا الأخير يحمل العقول حملاً على الإيمان بجملة من الخرافات، لا هم لها إلا تحطيم الفـطرة البشـرية السليمـة، وعـرقلة عجلة الحضـارة الحقة، والحيلولـة دون تصحيح المفاهيم والتصورات.

إن الفن الأسطوري لا قيمة له، بل هو وصْمة عار في جبين الأدب، لكونه يدفعـه نحو متاهات وخرافات، لا رصيد لها في الواقع والحياة، في حين أن الإسـلام يحثنـا دومـاً على تطوير فكرنا، وترقية ملكاتنا العقلية، وبخاصة في عصرنا هذا الذي تهزه الاكتشافات العلمية هزاً عنيفاً.

فما المخرج ـ إذاً ـ؟.

أهو اقتفاء آثار أدباء الأسطورة: نحلق معهـم في أجواء غريبة، ونصف ما

لا حقيقة له، كاذبين على عقولنا ونفوسنا؟

أم هو رفض التقليد الأعمى لعمل هذا الطائفة الضالة، مؤثرين على ذلك انتهاج أسلوب التصوير الفني السليم، الذي لا يسيء إلى ظواهر الطبيعة أي إساءة؟

لا شك أن العاقل اللبيب لا يرضى إلا اتباع الطريق الثاني: فإن كان أديباً حرص على استخدام التحوير الفني مراعياً قواعده، وإن كان قارئاً أقبل على مطالعة النتاج الأدبي الذي يحافظ على الجوهر الطبيعي لكل موضوع.

فالتحوير الفني الذي ندعو له هو كل عملية جمالية، تتبنى نقل مشاعر الإنسان (أديباً أكان أم شخصية أدبية مصورة) من عالم البشر إلى عالم الوجود كله، دون أن ينجم عن هذا أي تشويه لأي حقيقة علمية.

فالعلاقة بين العلم والأدب ـ في هذه الزاوية ـ هي علاقة تماس، لا علاقة تعارض أو تضارب (كما هو واضح لدى أنصار النزعة الأدبية الأسطورية). وما يثير دهشتنا أكثر هو ادعاء الأسطوريين أن للعلم مجالاً، كما أن للأدب مجالاً آخر. والذي نقوله في هذا الصدد، هو أن مقالتهم كلمة حق أريد بها باطل: فنحن نؤمن ـ حقاً ـ بأن لكل منهما مجالاً خاصاً، لكننا نرفض رفضاً باتاً أن يخاصم الأدب العلم، مسفّهاً حقائقه، مشوهاً إياها أبشع تشويه، بحجة أن ما يعمله فن لا أكثر.

إن الفن ليس معولاً هداماً يقوض دعائم الوجود وحقائقه وأسس الفطرة والفهم السليم، وإنما هو مجموعة عمليات جمالية، تعنى برصدها وتجليتها من منظور شعوري جذاب.

أضف إلى هذا أن الفن الأسطوري ـ فضلاً عن مخاصمته للعلم ـ يكذّب جل حقائق الدين الإسلامي، ويفسد المنطق السديد، بل إنه ـ أكثر من ذلك ـ

يجادل العقيدة الإسلامية وصفاء حقائقها جدالاً عنيفاً، ليس وراءه إلا الشر والضلال والتيه.

بعد هذا العرض الضروري، نقول: إن النتيجة الهامة التي يجب التركيز عليها، هي أن العلم يميل إلى التعميم والاطراد، تاركاً للأدب التخصيص ومجال الرؤى الفردية. يقول د. زكي «إن أهم مميزات العلم هو أنه يبحث عن الاطراد في ظواهر الطبيعة، فليس الذي يعنيه هو الحادثة الفذة الفريدة التي لا تكرار لها، بل الذي يعنيه هو التشابه بين مجموعة من الظواهر، بحيث يجوز إدراج المجموعة المتشابهة كلها تحت قانون واحد. وأما الحادثة الواحدة أو الكائن المفرد الواحد، فلا يهم العلم إلا من حيث هو حالة، من بين مجموعة الحالات التي تخضع كلها على السواء لتعميم واحد»(١).ثم يقول «فقد ترى من الأدباء الثائرين على ضياع الفردية الإنسانية تحت ضغْط الحياة العلمية المعاصرة، من لا ينتقل من مكانه، فلا يذهب إلى حضارة بعيدة في المكان إن كان من أدباء الغرب، ولا يذهب إلى مثل عليا بعيدة الزمان إن كان من أدباء الشرق. بل تراه يلجأ إلى الغوص في أعماق نفسه هو، ليكون في ذلك تثبيت لشخصه وإقرار بوجوده الفردي»(٢).ويقول أيضاً «فالعلم تعميم والفن تخصيص. العلم تجميع والفن تفريد. العلم يلاحظ الأشباه والنظائر ليستخلص منها أوجه الشبه فيصوغها في قانون واحد ينظمها، والفن يلاحظ جزئية واحدة يقف عندها ويحلل خصائصها. العلم يستبعد نفس الخصائص التي يستبقيها الفن، فالخصائص الفريدة التي تميز فلاناً من الناس دون سائر الأفراد هي التي يستبقيها الفنان ليحللها ويصورها، وهي نفسها التي يستبعدها العالم لأنها ليست مشتركة بين سائر أفراد النوع الإنساني»(٣).

بهذا التحليل الوافي نكون قد أوضحنا ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن

---

(١) و(٢) في فلسفة النقد. ص٧٩ـ٨١.

(٣) قشور ولباب. ص١٠٧ـ١٠٨.

الأدب يعالج الموضوعات والظواهر الوجودية، معالجة نفسية وتأملية وشعورية، تتميز - بطبيعة الحال - بخاصية الفردية: فالموضوع الأدبي الواحد له تجليات فنية وأشكال جمالية، يتناسب عددها مع عدد ذوات الأدباء الذين يصورونه ويعكسونه في نتاجهم.

نستخلص من هذا، أن محاولة ربط الأدب بالعلم ربطاً شكلياً تعد فاشلة، بسبب أن أصحابها يجهلون حقائق الأمور - أو يتجاهلون - كما أن محاولة ربط الأدب بالفن الأسطوري (أي إبعاده عن دائرة المنطق السليم والفكر المستقيم) تعتبر هيَ أيضاً زائفة، لأنها ترجع بنا إلى عصور الظلام والجهل والكفر والجاهلية العمياء.

* * * * *

ثم قد يبدو لبعض النقاد المتحمّسين لنظريات البيئة (وهم المعتقدون بصحة نظريات تين Taine وبرونيتيير Brunetieie وغيرهما) أن ربط الأدب بالبيئة ربطاً حتمياً، هو أحد مظاهر علمية الأدب: فالأديب - وهو يصور محيطه الطبيعي والاجتماعي - لا هَمَّ لَهُ إلا تلقّي التأثيرات الخارجية وصياغتها بشكل موضوعي، مثلما يفعل العالم. فالمهمة واحدة، ولو اختلف الأسلوب والمنهج.

إن هذه المقولة - كما ترى - تتضمن تهافتها وضعفها، وذلك لأنها تحدث خلطاً في المواقف والتصورات والأعمال: فالأديب والعالم يشتركان في الموضوعات، إلّا أنهما يختلفان في أمور كثيرة، أهمها: الموقف، زاوية الرؤية، الهدف المرجو، طبيعة التحليل.

ويكفي أن نقول: إن العالم يدرس البيئة دراسة حسية، تعتمد أساليب الإحصاء والتجريب والمقارنة، ليستنبط من ذلك كله قوانين عامة، تتصف بالثبات والاطراد. أما الأديب فلا يهمه هذا على الإطلاق، لكونه يحرص كل الحرص على تصوير تأثيرات ذاته - أو ذوات غيره - بالبيئة العامة والمحيط الإجتماعي، وهي تأثرات شعورية، يكسوها طابعاً جمالياً جذاباً.

إننا لا نرفض ظاهرة تأثير البيئة في الأدب، لكنا نأبى أن يستحيل هذا الأخير دمية جامدة، تعبث بها أيدي البنات الصغار. إن الأدب كيان خاص يتلقى مختلف التأثيرات البيئية، ثم يتخيّرمنها ما ينسجم وشخصية الأديب ليصبها ـ في نهاية المطاف ـ في قوالب فنية حية، تبعث في نفوسنا دافع الإعجاب.

يقول د. زكي «فالحياة تؤثر في الأدب بتأثيرها أولاً في أشخاص الأدباء، الذين ينتجون ذلك الأدب، وهؤلاء الأدباء إنما يستجيبون للضغوط والمثيرات المحيطة بهم، ولذلك فلا يجمل بنا أن نعمم القول عن «الأدب المعاصر» وعن «الحياة المعاصرة»، كأنما هذه أو ذلك كل واحد متجانس، فالأدباء في مجتمعاتنا «أفراد»، ولكل فرد منهم خصائصه الفريدة، وبالتالي فله طرقةُ الخاصة في الاستجابة للحياة التي تحيط به»(1).

إن الأديب ـ كما تفيد هذه الفقرة ـ ذو شخصية إيجابية، تحاول دوماً أن تبرز كينونتها وخصائصها النفسية وقدراتها الإبداعية، من خلال الأعمال الفنية الرائعة. فالبيئة ـ إذاً ـ موضوع خارجي يخضع لكل إجراءات التحوير أو التكييف الفني، ويتشكل تشكيلات مختلفة، تبعاً لنوازع الأديب ومراميه الخلقية والاجتماعية والإنسانية.

* * * * *

وأخيراً، وفي خاتمة هذا الفصل، يجدر بنا أن نجلي القضية الكبرى التي نعالجها، وكذا ملامحها الأساسية، ليكون هذا خلاصة تشدنا إلى أطراف الفصل شداً متيناً.

فقد ذكرنا ـ سالفاً ـ أن موضوع علاقة الأدب بالعلم قد شغل نقاداً كثيرين وأفرز نظريات ومفاهيم عديدة، احتدّ الصراع بينها زمناً طويلاً، إلى يومنا هذا. ولا بأس أن نذكر أشهرها فيما يلي:

---

(1) في فلسفة النقد، ص٧٦.

أ ـ تذهب طائفة من النقاد إلى أن الأدب عالم آخر، لا يمتّ بأي صلة للعلم، ومن يزعم غير هذا ـ في نظرهم ـ فقد أخطأ خطأً فاحشاً، لأنه أحدث خلطاً شنيعاً بين المجالات والمعارف الإنسانية.

إن هؤلاء يسعون إلى تخليص الأدب من ربقة العلم، ليحلق في أجواء الأساطير والافتراءات، وليتحرر الأديب تحرراً كاملاً من ضوابط الحقائق والقيم الإسلامية.

والأعجب ـ في هذا الصدد ـ أن يدّعي جل الأدباء الإباحيين أن تصوير الحياة الماجنة ـ بحجة الواقعية الفنية ـ هو تصوير صادق، فيه الجمال كل الجمال. ولا ريب أن العقلاء من العلماء والمفكرين قد بينوا أن التصوير الفني لأي مظهر منحرف ـ مهما حشرت فيه الزخارف الجمالية ـ يحمل في طياته إيحاءات وتأثيرات نفسية، تنتقل إلى عشاق الأدب عن طريق اللاشعور (أو بتعبير أصح: انتقالاً عفوياً بفعل التكرار).

ونؤكد مرة ثانية أن تصوير أي موضوع ـ بما في ذلك موضوعات الطبيعة ـ يجب أن يخضع للمعايير الأخلاقية الإسلامية، قبل خضوعه للمعايير الفنية الخالصة. ودَليلنا في هذا أن الإنسان المتلقي يستقبل تأثيرات العمل الأدبي، بكل ذاته وبكامل مشاعره، فهو ليسَ مجموعة أجهزة، يشغل أحدها في شأن، ثم يشغل آخر في أمر ثان.

وهذا يذكّرنا بالانتقادات الوجيهة التي ضعضعت جوانب النظرية الذرية، وأبطلت ادعاءها القائل بأن الإنسان ـ وكذا الوجود ـ هو ركام من القدرات لا أكثر. إن الإنسان ـ في منظور الدراسات النفسية الصحيحة ـ كيان متكامل، يتفاعل مع غيره، وينفعل، دون أن يتعطل جهاز ما. ويعجبني ـ في هذا المقام ـ ذاك البحث العلمي الموضوعي الذي قام بها الدكتور ألكسيس كاريل (الإنسان ذلك المجهول) ليبرهن على صحة البديهية الهامة التي فحواها، أن

حقيقة الإنسان لا تعرف في أجزائه، بل تعرف وتفهم حين نعرف ونفهمْ شخصيته ككل.

ب ـ مقابل الطائفة السابقة التـي نادت بفصل الأدب عن العلم، قامت طائفة أخرى من النقاد، تدعو إلى الربط الحتمي بدل ذاك الفصل. وحجتهم في هذا أن التقـدم الـذي أحـرزتـه الشُعوب الأوروبية والأمريكية، كان بفضل العلم وتطبيقاته التكنولوجية.

فإذا أردنـا للأدب ذاك الرقي، فما علينا إلا أن نفرض على الأدباء تأدية واجب واحد، ألا وهو تقليـد العلماء، من جهة صب نظرياتهم وآرائهم ونتائج أبحاثهم في قوالب فنية وأشكال أدبية.

إن هذه الـدعوى باطلة من أساسها، مثل سابقتها، وذلك لأن أصحابها يجهلون تمـام الجهـل، أن رسالة الأدب لا تنحصر في خدمة العلم وصياغة قضـاياه، وإنمـا تتمثـل في نقـل المشاعر النبيلة والقيم الخلقية والاجتماعية الفاضلة إلى الناس كافة، في قوالب جميلة وأشكال فنية جذابة.

وإن كانت هناك علاقة بين الأدب والعلم، فهي لا تتجاوز حدود المنطق السديد والتفكير العقلي الصحيح. أما تلك الشطحات اللامعقولة والتخبطات في عالم الأساطير والخرافات، فهذه تشوه طبيعة الأدب ووظيفته أعظم تشويه.

هذا، ومن الأغراض الجاهلية التي يرمي إلى تحقيقها أنصار علمنة الأدب غرض خسيس، وهو: جعل الأدب يعكس نظريات الإلحاد ومظاهر الإباحية، بحجة أن هذه الأخيرة هي من الإفرازات العلمية الخالصة.

بيد أن هؤلاء يتجاهلون وجود فرق كبير بين (العلم) و(النظريات العلمية). فهم يخلطون بين هذا وتلك خلطاً غريباً، يوحي ـ لا محالة ـ بأنهم يتعمدون تضليل العقول وإفساد الحقائق، إن كانوا يعرفون ذاك الفرق.

والأمر واضح لدى العقلاء: فالعلم هو وسيلة اكتشاف القوانين والأنظمة

والضوابط التي أودعها الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته: الجامدة منها والحية المتحركة. فهو (أي العلم) لا يقف حجر عثرة أمام معرفة الوجود، بل يحرص دوماً على تبصير الإنسان، ببعض مظاهر قدرة الله تعالى وآثارها في الحياة والوجود لكن إن فسدت النيات وانطمست القلوب، وانحرفت النفوس، فإن النتيجة - بداهة - في مجال العلم لا تكون إلا التأويل الغريب والتفسير المادي الساقط.

وليس ببعيد عنا عصر داروين ودوركايم وماركس وفرويد، ومن حذا حذوهم واقتفى أثرهم. فهذا العصر قد شهد ضجيجاً وصخباً في عالم الأفكار والنظريات، التي نسبت إلى العلم ظلماً وجوراً، وما هي من العلم في شيء وقد حدّثنا تاريخ الفكر المعاصرَ عن نشوء تيارات ومذاهب مضلة، عدّها العلماء الموضوعيون من إفرازات التفسيرات الجاهلية التي قدمها أولئك اليهود، ومن شابههم في التفكير والتحليل والنظر.

وانعكس كل هذا على بعض النتاج الأدبي المعاصر: فصار الأدباء - ومنهم العرب - يبدعون أعمالاً فنية تعتمد مناهج الجاهليين ونظرياتهم «العلمية». وبهذا ضاع جوهر الأدب وامّحت وظيفته الحقيقية، لأن أصحابه أبوا إلا أن يصيّروهُ عبداً ذليلاً، يخدم الضلال الفكري، ويفسر أدبياً ما يذهب إليه أقطاب الجاهلية، من آراء وتصورات وتأويلات.

وتوضيحاً لذلك نقول: إن من الأدباء من أعجبوا أيما إعجاب بمنهج التحليل النفسي الفرويدي، فراحوا يقدرونه ويشرحونه من نواح كثيرة: ناحية المشاعر والعواطف في مجال الشعر، وناحية تصوير الشخصيات ورسم ملامحها، وناحية تصوير الواقع والحياة الاجتماعية.

ومن الأدباء من أعجبوا بنظريات دوركايم، التي تزعم أن الضمير الجمعي هو أساس التحرك الاجتماعي. فحاولوا أن يجعلوا هذا الافتراء حقيقة طبيعية وواقعاً مألوفاً، مسخرين في هذا المطاف فن القصة وفن المسرحية بشكل خاص. ومن الأدباء من فتنتهم النظرية الماركسية، فاعتقدوا أن العلم الذي تخدّر به البشرية - لا شك - حاصل (والعقلاء من المفكرين يعلمون حق العلم

أن هذا العلم لم يتحقق في الدول الشيوعية ذاتها)، فاندفعوا ـ نتيجة لهذا ـ يصورون في نتاجهم الأدبي، صنوفاً عدّة من الصراع الدموي بين الطبقات الاجتماعية، بل إنهم باركوا الحيل وأساليب المكر والخداع والنهب والسلب، ما دامت هذه الأخيرة وسيلة لهدف خسيس، ألا وهو: سيطرة البروليتاريا.

ثم إنهم يباركون ديكتاتورية جديدة: (هي ديكتاتورية العمال)، بدل كل الديكتاتوريات، في الوقت الذي يدعو فيه جل المفكرين الإنسانيين إلى الإخاء والمساواة والحرية والعدل واحترام كرامة الإنسان.

ولا داعي لضرب الأمثلة من واقع أدبنا العربي المعاصر، لأنه يكاد يختنق وتتمزق أوصاله بها. وإننا لن نعثر على أديب عربي يحترم معايير دينه الحنيف، ويعتمد منهجه القويم في أدبه، إلاّ بشق الأنفس. بيد أننا نجد جيشاً عرمرماً من الكتّاب والشعراء والقصاصين، تتوزعهم المذاهب الأجنبية والتيارات الجاهلية: فأجسادهم عربية، ودماؤهم عربية، لكن عقولهم: بعضها فرنسية وبعضها سوفياتية، وبعضها أمريكية، وهلم جرا.

وهذا هو التمزق الخطير الذي ينخُرُ عالمنا العربي الإسلامي، ويضعضع أركانه، ويطمس شيئاً فشيئاً معالم حضارتنا المجيدة، فإلى متى نظل في هذه الظلمات نتآكل، ونِنهزم، ونقبل الدنيّة في ديننا، راضين بصنوف التبعية الفكرية التي لا تزيدنا على مر الأيام إلا ذلاً وهواناً وانحطاطاً؟ ولماذا لا يعود أدباؤنا إلى المنهج الإسلامي ليستلهموه ويتمثلوه، فينفعوا ـ نتيجة ذلك ـ أمتهم ويقودوها نحو المجد الحق والسعادة المرجوة؟

*****

تلاحظ معي كيف أن الأدباء لدينا، قد انحرفوا من جراء اتباعهم لسخافات الفكر الجاهلي، فأتى نتاجهم نسخة لها، لا فرق بين هذه وتلك إلاّ اللغة وأسماء الأعلام. وقد رأيت أيضاً ـ من خلال البسط السابق ـ أن ربط الأدب بالعلم تارة وبالنظريات العلمية تارة أخرى ذاك الربط الحتمي، هو عمل غير

لائق بالأدباء الحقيقيين. فللعلم دور آخر، وبينهما أواصر وعرى وروابط تفيد الأدب بخاصة، دون أن تمس جوهره، أو تسيء إلى طبيعته ووظيفته أدنى إساءة.

إن الموقف الصحيح ـ كما ترى ـ لا يرفض عملية تبادل الأثر والاحتكاك الدائم، بين مجالات الفكر والعلم والأدب، بيد أنه يعلن حرباً لا هوادة فيها على عملية مسخ مجال لحساب مجال آخر. ومن هنا فللأدب كيان خاص، ومناهج فنية تناسبه، فلا سبيل ـ إذاً ـ لإحداث أي خلط أو مزج غريب في هذه المناهج، أو ذاك الكيان المستقلّ.

هذا، وحسبنا التحليل الوافي الذي قدمناه على صفحات هذا الفصل، فهو كفيل بإعطائنا نظرة كافية، حول موضوع علاقة الأدب بالعلم، وأملنا أن تتوالى الدراسات، مبرزة أكثر مكانة العلم في الإسلام من جهة، ومسؤولية الأدباء في حسن استخدام العلم من جهة أخرى.

الأدب والنفس البشرية

كانت جولتنا الفكرية في الفصل السابق مرتبطة بوظيفة الأدب في حياة الإنسان، فتعرّفنا أثناءها على دوره الثنائي: السلبي والإيجابي، وخطورة ترك الحبل على الغارب، هذه الخطورة التي تؤدي إلى تفاقم الأوضاع، وتزايد الأزمات النفسية والسلوكية والاجتماعية.

ونظراً لأهمية هذا المبحث، ارتأينا أن نحلل بشيء من التفصيل جوانبه المختلفة، لنعطي كلاً منها حقه من الدراسة والاستنباط، والقضية الأولىٰ التي نبدأ في معالجتها هي: علاقة الأدب بالنفس البشرية من الوجهة الوظيفية، متتبعين القيم الأساسية التي يجدر بالأدباء ألا يتناسوها، وهم يكتبون للإنسان: الكائن الفريد من نوعه، وخليفة الله في الأرض.

وإن علة بدء حديثنا عن النفس قبل غيرها، هي كونها محور الوجود: وجود الإنسان الذي لا تفهم حقيقته بدونها، ووجود الكون الذي ما خلق إلا لتتأمله النفس، وتستفيد من جماله وخيراته الباطنية والظاهرية.

هذا، وإن جوهر النفس معقد، لا يعلمه إلا الله تعالىٰ الذي أخبرنا في محكم تنزيله فقط، عن أحوالها وتقلّباتها، وُوسائل توجيهها الوجهة الصحيحة، فمن أراد لنفسه سعادتي الدنيا والآخرة، عمل بمقتضى الأوامر الإلهية والتوجيهات النبوية، ومن أراد لها الشقاء والتعاسة والهلاك في الدارين، سلك دروب الشيطان، وما أكثرها!

وبتحليل علمي متواصل لأزمات الإنسان المعاصر، نكتشف الارتباطات العديدة الكائنة بينها وبين أسبابها الأولىٰ، المنبعثة من النفس الأمارة بالسوء، ولم

يفلح علماء هذا الميدان في معرفة الحقائق الناصعة عن ذلك، لا لشيء إلا لأنهم يسيرون وفق مناهجهم الوضعية الضعيفة، بعيدين عن المنهج الإلهي القويم.

وليس الشعور بهذه النتيجة خاصاً بنا نحن المسلمين، بل هو عام يشترك فيه معنا حتى هؤلاء العلماء الذين حكّموا في نتائجهم قواعد الموضوعية والنزاهة العلمية.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن معظم الدراسات النفسية الوضعية تعدّ من الأسباب الكبرىٰ، التي دفعت أزمات الإنسان أكثر نحو التعقّد والتأزّم، لأن الشباب المرضى نفسياً، الذين يعالجون في مستشفيات خاصة، أو يطلبون العلاج من خلال مطالعة تلك الدراسات، يخدعون بالنظريات البشرية الفاسدة، وبالتالي يزيدهم هذا انحرافاً على انحراف، كمن يطلب الدواء من الداء.

★★★

وليست النظريات النفسية المادية هي المعوق الوحيد، الذي يحجب التربية الصحيحة، ويحول دون بلوغ أهدافها، وإنما المعوقات كثيرة، أهمها:

١ ـ **فساد الأوضاع التعليمية**: إن التعليم السائد في العالم العربي بخاصة، معظمه مستورد من الكتلتين: الشيوعية والرأسمالية، بحيث ترجمت المناهج، وطرائق التعليم، وأساليب توصيل المعلومات، دون مراعاة الاختلافات البيئية، والخصوصيات الحضارية المتباينة بين الأمم والشعوب. فكانت الطامة الكبرىٰ أن تخرجت دفعات من المعلمين والباحثين، تنكروا لأصولهم ومبادئهم، وأحسنهم أولئك الذين دعوا إلى مزج الماضي بالحاضر مَزْجاً مشوّهاً، ضيع لنا حقائق حضارتنا، وأفسد حسنات العلم المعاصر. فالرسالة التعليمية العربية ربطت أهدافها بقيم الأرض، تاركة قيم السماء، بل ضرَبت بها عرض الحائط، لكن إن وجدت بعض هذه الأخيرة، فعلىٰ سبيل التمويه والتضليل والتبعية، وذلك على حساب صفائها ورونقها واستقلاليتها. وقد تجد التربية الإسلامية منزوية في ركن

ضعيف، وفي مادة هزيلة لا اعتبار لها في مقاييس التقييم. هذه هي أحسن أحوالها، أما غيرها فحدث عنها ولا حرج.

إن المشكلة التعليمية يجب أن تطرح من جديد على بساط البحث العلمي، ليتم الخلاص من تبعية الإيديولوجيات الأجنبية. ولن يتم هذا العمل، ولن يتحقق هذا الهدف، إلا إذا حكّمت المقاييس الإسلامية، لأنها الوحيدة التي تصحح المواقف، وتجّنب المرء من الوقوع في مثل هذه الأخطاء الفادحة التي تزلزل ميادين التعليم بخاصة.

٢ ـ وسائل الإعلام: يتشبث اليهود في هذه المرحلة الحرجة بوسائل الإعلام في معظم بقاع العالم، ويغدقون عليها البلايين من الدولارات، لسبب دفين لا يدركه إلا ذوو الألباب الأذكياء، وما أقلهم! هذا السبب هو محاولة السيطرة الثقافية، والاستعمار الفكري، تمهيداً لأنواع الاستعمار الأخرى.

وإن التشبث هذا منطلقه مدروس، قد بحث من قِبَل اختصاصيين، ينتمون إلى الحركة الماسونية العالمية، ولهذا ترى الشبه في البرامج الإعلامية واضحاً إلى حدّ كبير، وذلك على المستوى العالمي.

وما الانحلال السلوكي، وضياع القيم، والجري وراء الماديات، وظهور جماعات الهيبيز، إلا نتائج وخيمة لهذه المخططات الإعلامية الجهنمية. وإن هذه المظاهر الفاسدة لتزداد يوماً بعد يوم، وتتفاقم إلى درجة التأثير في سياسات الدول.

ويقال: إن أغنية مائعة، يسمعها الملايين من البشر، تفسد الجوّ، وتعكّره على ألف واعظ، فلا تنفع بالتالي دروسهم ولا مواعظهم إلا قلّة قليلة من الناس، معظمهم من الشيوخ. وقس هذا المثال على بقية المسموعات التي تذاع صباح مساء، لتعلم المصير الخطير الذي تدفع نحوه الأمة لو بقيت الأمور على ما هي عليه الآن.

ولا أتكلم عن البرامج التلفزيونية، إذ تكفي الإشارة إلى أنها أشدّ خطراً من البرامج الإذاعية، لكونها تضيف إلى الصوت الصور المبتذلة، والمظاهر المرئية الخليعة: من عري، واختلاط، ورقص، وهلم جرّا.

٣ ـ **المقاهي والنوادي**: هذه ميادين يختلط فيها الصالح بالطالح، فيتعلم منه أساليب الانحلال والفساد، لينقلها إلى غيره. وفيها يتعود الإنسان الصراخ والضجيج، والتحايل، والحديث عن عورات الناس، والنيل من أعراضهم، والغيبة والنميمة، والسبّ والشتم، كما يضيع أمواله في ألعاب القمار والنرد والشطرنج. وقد تدفعه بعض الأحوال إلى ارتكاب جريمة فيها، لسبب من الأسباب، أو يشارك في عملية سرقة أو قتل، باتفاق مع بعض رواد هذه الأمكنة.

ويعد بعض العقلاء المقهىٰ والنادي طريقين ممهدين لارتياد ما هو أخطر منهما أثراً، كالحانات والمغارات والغابات، فتكثر ـ إذن ـ عصابات السرقة، والغصب والاعتداء، وقطع الطريق، وقتل الأبرياء.

٤ ـ **الشارع**: إن معظم أرباب الأسر يستهينون بأثر الشوارع في نفسيات أولادهم، فيتركونهم فيها، يضيعون أوقاتهم في الألعاب الخطيرة غير مأمونة النتائج، وفي الجري وسط الطرق دون مبالاة بالسيارات السريعة، وفي أفانين العبث المؤذية للمارة: من سبّ وترويع وغيرهما.

ويحلو للأمهات تناسي أحوال أبنائهم الماكثين في الشوارع، لما يجدْنه في هذا من راحة بالٍ لهن، بل قد يدفعنهم إلى خارج البيوت مكرهين، ظانات أن القيام بالواجبات المنزلية يتعطل بوجودهم معهن.

ومراكز الشرطة تعجّ بسجلات الحوادث المختلفة، التي تقع في هذه الأماكن الخطرة كما أن الشارع لا يقل خطراً عن المقهىٰ وغيره، لأن الشاب يحتك فيه بالمنحرفين فيتخذهم أصدقاء، وهكذا يجد نفسه في نهاية المطاف، بعد سنين، مجرماً كبيراً ـ إن لم يجد من ينقذه من مهاوي الرذيلة ـ يهدد أمن الناس في كل حين.

ولم تفلح السجون في عملياتها التربوية المزعومة، لأنها صارت مراكز أخطر من المذكورة سالفاً، إذ يتعلم الشاب فيها السبع الموبقات، وعلى رأسها اللواط، إلى جانب اطلاعه على تجارب المجرمين المتطورة، لتدفعه بعد خروجه من السجن، إلى القيام بما هو أفدح، وما لا يخطر ببال البشر.

هذه أهم المعوقات التي تحول دون استقامة النفوس، وصقل القلوب، وتربية الأرواح، وقد تكون هناك معوقات أخرىٰ، لكن يمكن إدراجها تحت ما ذكرناه.

بناء على هذا، يظهر أمام الأديب الملتزم مجال واسع للكتابة الأدبية الهادفة، والتتبع الفني الدقيق للمخاطر التي تتصيّد النفوس، وتحطّم المعنويات. ولا يعني هذا أننا نؤيد التصوير الفاحش لأماكن السوء المشار إليها سابقاً، مثلما نراه متفشياً في مئات القصص والمسرحيات، فضلاً عن الأفلام، إذ طريقة التصوير هذه أجنبية، ما في ذلك شك، يريد الأدباء المعجبون بها أن يزينوا ويزخرفوا كل ما يدعو إلى الفجور، بأساليب ملتوية ماكرة، تفوح منها رائحة الخبث والرذيلة.

إن الأديب الذي يريد أن ينجي بنتاجه الأدبي نفسيات ضائعة تائهة، يجب عليه أن يفرّق بين الداء والدواء: الداء الذي حطّمها ودفعها، والدواء الذي يصلح لها، بصفته وسيلة إنقاذ وتربية وتوجيه، وتخليص من براثن الشرّ والفساد.

أما طريقة التصوير الجاهلية فليست بدواء، إنما هي داء عضال، لأن عرض الفساد بمظاهر الحسن في الأعمال الأدبية، يسهل انتشاره في أوساط الشعب. وأحب أن أذكر أن تأثير الأدب الماجن في النفوس، أعظم بكثير من نسبة تأثير المجون ذاته، وأماكنه ذاتها، هذا أن النفوس قد تتقزز من الذهاب إلى تلك المواطن، بينما نجد ذاك الأدب الماجن يغزو البيوت والمدارس والمكتبات، فيصل إلى كل الأفراد ـ إلا من رحم ربك ـ في شكل مجلات وكتب جميلة، فيقرؤه الأب والأم، والإخوة والأخوات، ومن ثم يدبّ الفساد دبيباً، فيه بطء شديد، لئلا يفزع أرباب الأخلاق، فيهاجموه بشتى وسائلهم الممكنة.

وفي فصل سابق، بيّنا أن التصوير الحقيقي المطلوب هو ذاك الذي لا يقف

طويلاً، عند مظاهر الإغراء، لأن هذا يتناقض والأهداف النفسية المنشودة، فعليه أن يشير إلى تلك المظاهر فقط، إشارات خالية من أسباب الجذب والإعجاب والتأثر.

كما يطالب الأديب ـ إضافة إلى هذا ـ بأن ينبه القراء بطرائق فنية رائعة، إلى الظلمات التي تنجم عن الأعمال السيئة الخبيثة، ليحقق هدفين أساسيين: الأول: تقبيحها إلى النفوس، بأن تشمئز منها، كلما رأت معلماً من معالمها، أو مظهراً من مظاهرها، والهدف الثاني: هو تطهير تلك النفوس، وتزويدها بمناعة نفسية إسلامية، تقيها كل شر.

★ ★ ★

ومن المعروف أن النفس البشرية خاضعة لقانون التأثر والتأثير، باعتبارها همزة وصل بين الإنسان الذي يضمها بجسده، والعالم ذي الأرجاء الشاسعة.

وإننا لا ننسىٰ الصراع المرير الذي ظهرت بداياته منذ العصور اليونانية القديمة، وما زالت نيرانه متأجّجة إلى ما شاء الله، هذا الصراع يدور حول الذات والموضوع، أو النفس والعالم، وأيهما تعطىٰ له الأولية.

وانقسم المفكرون ـ منذ أفلاطون وسقراط وأرسطو، إلى كانْت وهيجل وماركس ـ إلى قسمين كبيرين: المثاليين والماديين.

فالمثاليون يعتبرون الإنسان كائناً ـ روحياً أو عقلياً ـ أساسياً مفضلاً على الكائنات الأخرىٰ، يمثل المركز لهذا العالم الذي يدور حوله، فهو الذي يدركه بمقولات عقله، وبالتالي يغيّره وفق أهدافه الباطنية، فالعالم أو الكون هذا لا سلطان له على الإنسان، فهو خاضع له، لا يستطيع أن يؤثر فيه، على الرغم من طاقاته الهائلة وقواه الضخمة.

من هذا نعرف أن المثالية تولي الإنسان، عقله ونفسه، أهمية كبرىٰ، مغفلة كل الآثار الخارجية التي تأتيه من المحيط.

أما الماديون، فهم يقفون موقف النقيض، إذ يرفضون ما يسمىٰ بالنفس، عادّينها منعكسات مادية لا غير، تأتي من محيط الإنسان، في شكل إحساسات مادية، تنقلها الأعصاب ـ وهي مادة ـ إلى المخ ـ وهو مادة ـ، فالكل ـ بما في ذلك الكون والإنسان ـ مادة لا تقبل ثنائية أو ازدواجية، وإن طرح عليهم السؤال التالي: كيف تفسرون التنوعات في الكون ذاته، والاختلافات الجوهرية بينه وبين الإنسان؟ فإن إجابتهم بسيطة وساذجة في آن واحد، فَحْواها أن هذه التنوعات والاختلافات، على الرغم من البون الشاسع بينها ـ وبخاصة تلك التي بين الكون والإنسان ـ ترد إلى وجود تفاوت تدريجي، في درجات التعقيد التي تخضع لها المادة: فإذا كان تركيبها بسيطاً، كانت الحياة كذلك بسيطة، أما إذا تعقدت، فلا شك أن الحياة تتبعها في نسبة التعقيد. وقد استندوا في زعمهم هذا إلىٰ وجود تدريج في تركيبات الكائنات الحية.

على العموم، نلفي هذين التيارين الفكريين وجهين لعملة واحدة هي المادية، وليس هذا مثالاً يفضي بنا إلى التعجب، لأن المثالية في جوهرها تؤمن بالمادية، لكنها تختلف عنها في الاصطلاح، والدليل هو زعمها أن مادة الكون هي تجليات الروح، أي أن مشاهدتنا للمادة التي تتكون منها أجسامنا، وما يحيط بنا من مظاهر الكون كلها. هي عين مشاهداتنا للروح.

والخلاصة من عرضنا لهذا الاختلاف القديم الجديد، هي أن علة التضارب حول قضية الروح والمادة نرجعها إلى المنهجية الجاهلية، التي تحكم العقل الضعيف في ظواهر لا تنتمي إلى مجاله، مع أن هناك أدلة كثيرة، لا حصر لها، تبطل مزاعم الطرفين، طرف المثاليين وطرف الماديين.

ولسنا بصدد جمع الأدلة، لأن حيز الفصل لا يسمح لنا منهجياً بحشرها هنا، ويمكن الرجوع إلى الدراسات الإسلامية التي تتبعت بدقة هذه القضية، ومنها: كتابا محمد باقر الصدر: (اقتصادنا)، (فلسفتنا)، كتاب (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي، (كبرىٰ اليقينيات الكونية) لمحمد سعيد رمضان البوطي، وغيرها كثير لا يقع تحت حصر.

وما تنبغي الإشارة إليه: هو أن النفس البشرية جوهر أصيل في الإنسان، لا يمكن إنكار وجوده، وإلا لزم إنكار حقائق عديدة، لا تستقيم الحياة بل لا توجد بدونها، ومنها: الحرية، المشاعر والعواطف، الباطن النفسي الذي يؤثر في الجسم سلباً وإيجاباً، التجريد العقلي، الصفاء الروحي، وهلمّ جرّاً.

نخلص من هذا إلى القول بأن النفس تؤثر وتتأثر في آن واحد: تتأثر بالمحيط الجغرافي والمناخي، والتربية الاجتماعية من عادات وتقاليد، كما تؤثر في هذه الأخيرة، فتُطور العلاقات الأخلاقية والاجتماعية نحو الأفضل، أو تجرُّها إلى منحدر الانحلال والتفسخ، فعلىٰ الأديب - إذن - أن يدرك هذه الحقيقة ناصعة، ليعكسها في كتاباته، مبتغيا تطهير النفس من أرجاسها، وإبعادها عن كل التأثيرات المحيطية السيئة. لكن هذا المسلك نراه شبه منعدم في الأدب الحديث، لأنه ابتغىٰ اتباع الآداب الأجنبية، وتقليدها في أبعادها الجاهلية، فلم يبق بينها وبين الأدب الحديث إلا الفارق اللغوي الشكلي.

فمشكلة التأثر والتأثير النفسيين ليست واضحة، لدى كثير من أدباء العصر الحديث، لذا فهم يذهبون مذاهب شتّى في نقل ما تعجّ به حياة الناس: من مساوىء كثيرة، ومحاسن نادرة، وحجتهم في هذا ادّعاؤهم الواقعية في كتاباتهم. وحقيقة الأمر أن هذه الواقعية - كما سنراها في فصل (المذاهب الأدبية) - ما وضعت أسسها، إلا لربط الأديب بالأرض، وواقع البشرية التّعس، محاولة لتحطيم العلاقات بينه وبين خالقه، أي بينه وبين القيم الربّانية الثابتة.

فالمطالب الحقيقية التي يجب أن تتوفر في الأدب الصحيح، تتلخّصُ في التمييز بين ما هو مفيد، فيُقدم للنفس البشرية، وما هو مُضرّ لها، فيبعد إبعاداً، ويقصى إقصاء، وبهذا يتمكن الأديب الملتزم من خدمة هذه النفس من جميع زواياها، مُرقّيا إياها من أحوالها السيئة، إلى أحوال سعيدة، يودّها كل فرد من أفراد البشرية جمعاء.

★ ★ ★

والأديب الحقيقي لا يغفل كذلك أهمية توازن شخصية الإنسان، لما في هذا من فائدة كبرى، وهي تتجلى في المحافظة على صحة النفس البشرية، وسلامتها من العيوب والأمراض كلّها.

وقد بحث علماء النفس طويلاً موضوع التوازن واللاتوازن في الشخصية، فاكتشفوا العجب العجاب، وإن دراساتهم الكثيرة لتثبت خطورة مظاهر الانفصام، التي تحدث للشخصية، ولهذا كثر الإلحاح على أن توجه النصائح في هذا الإطار، بكل الوسائل المتوفرة، ومنها وسائل الأدب الكثيرة.

وفي الحياة مساعدات كثيرة، تجعل الإنسان غير متزن في شخصيته كلها: أفكاره غير متضحة، متناقضة، سلوكه مضطرب، خلو من الأهداف، بعيد عن الأخلاق، أعماله متضاربه، غير منسجمة، أحاديثه تتميز بالازدواجية لازدواجية شخصيته.

ومن الطبيعي أن حلّ مثل هذه الأزمات التي تهز النفس البشرية هزّاً عنيفاً، يكمن في تحليل المجتمع الذي يحتضنها، بأن تعرف أحواله المختلفة التي لها اوثق العلاقة بها، فإذا ما عرفت علمياً، وضبطت ضبطاً دقيقاً، ووجهت الجهود نحو تغييرها، فإن النتيجة تكون حسنة تؤتي ثمارها، وقد ظهرت دراسات قيمة حول هذه القضية منها: دراسة لمحمد سعيد رمضان البوطي بعنوان (مشكلات الشباب).

وإذا كانت أسباب لا توازن الشخصية راجعاً بعضها إلى ظروف المجتمع السيئة، فإن بعضها الآخر مرتبط بالإنسان ذاته، لأنه حرّ في تصرفاته، فقد يندفع طواعية نحو ارتكاب الشر، وقد يزجر نفسه الأمارة بالسوء، ليواظب على عمل الخير، وفعل الصالحات.

وما أكثر الأدباء العرب (قديماً وحديثاً) الذين سخروا نتاجهم الفنّي في تحطيم الشخصية وتشويه معالمنا! وما انحرافات شبابنا العربي الآن، إلا نتائج لعوامل، على رأسها هذه العوامل الأدبية.

بناء على هذا، لا بد أن يرتبط الأدب الحديث بالثقافة الإسلامية المأخوذة من منابعها الصحيحة، لأنها تُريه الطرائق السليمة لإحداث التوازن في شخصية الإنسان، وتبصره بأحابيل الشيطان ووساوسه، وكيفية الوقاية منها. وفي هذه مادة غزيرة وثرية، يستثمرها في أدبه، إذا أراد به إفادة أفراد المجتمع، وإنقاذ المنحرفين نفسياً وأخلاقياً من كلّ شرّ.

★ ★ ★

ليكن في علمنا أن الإسلام أبرز لنا ثلاثة جوانب أساسية في شخصية الإنسان، وهي: الروح، والعقل، والجسم. والنصوص كثيرة، تبين أهمية كل جانب من هذه الثلاثة، ردّاً على من يعلي من شأن أحدها على حساب الجانبين الآخرين.

وإن تاريخ الفكر البشري ينبئنا بوجود هذه الظاهرة، إذ كانت أمم كثيرة - وبخاصة في الشرق الأقصى - (البرهمية - البوذية.. الخ) تحط من شأن الجسد، بل غالباً ما تعذبه، معتقدة أن في تعذيبه تصفية للروح، وما زالت بعض هذه الرواسب العقائدية موجودة إلى الآن.

وليست المسيحية المحرّفة بأحسن حالاً من هذه التصورات البشرية الغريبة، فهي كذلك تدعو إلى الاستهانة بهذا الجسد، لمصلحة الروح، بطرق عدّة، منها: رفض الزواج، العكوف في دور العبادة، الاستكانة، وما شابه ذلك.

ويرى المؤرخون أن النهضة الأوروبية قد بُنيت على المادة والإلحاد، وتحقيق مطالب الجسد فقط، وذلك كرد فعل عنيف لما تدعو إليه المسيحية، لكن لم يكن ظهور تلك النهضة إلا بعد جهود جهيدة، وصراع عنيف دام طويلاً، وقدّم كثيراً من الضحايا وفي مقدمتهم العلماء.

على كلّ، هذان الاتجاهان متطرفان، ما في ذلك شكّ، وإن الإسلام لا يدعو إلى إفراط في جانب، وتفريط في آخر، بل موقفه يتميز بالاتزان الدقيق بين

الجوانب الثلاثة لشخصية الإنسان. ولمحمد قطب في هذا المضمار دراسات قيمة، منها: (التطور والثبات في حياة البشرية)، (دراسات في النفس الإنسانية)، (الإنسانية بين المادية والإسلام).

لا بد ـ إذن ـ من تربية الروح وفق القيم القرآنية والنبوية، لتسمو فوق مغريات الحياة الدنيا، والسرّ في هذا هو أن يتخلص الإنسان من سيطرة المادة والشهوات، ليصير هو المتحكم فيها، يوجهها توجيهاً صالحاً.

وللعقل معايير إسلامية عدة، منها: أن يبتعد عن الخرافات، ولا يقبل إلا ماله دليل قوي، ولا يستمد عقيدته إلا من مصدرين يقينيين هما: القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة. ولهذا اندهش علماء الغرب من وجود المنهج التجريبي نظرياً في نصوص الإسلام، وتطبيقياً في منجزات الحضارة الإسلامية، يقول الله تبارك وتعالىٰ: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾**.

إن الخالق عز وجل ينهانا عن البحث في أمور لا يستطيع الخوض فيها عقلنا الضعيف الذي هو مكبّل بقيود الحسّ، من سمع وبصر، وبهذا عرف المسلم قدر عقله وحدوده، فسخره في الممكنات، موكّلاً ما وراء الحس لله تبارك وتعالىٰ.

وإذا كانت عناية الإسلام بالروح والعقل كبيرة، فإن عنايته بالجسد لها أيضاً أهميتها المعتبرة، فكثيراً ما كان الرسول ﷺ يحث أصحابه على تعلّم أنواع الرياضة المختلفة: من رمي، وسباحة، وركوب خيل، والمحافظة على نظام التغذية الذي يفيد الجسد، ولا يلحق به ضرراً، وما الصوم إلا طريقة من الطرق الإسلامية من فوائدها الكثيرة: تطهير الجسد من سمومه، وإراحة المعدة من عناء طحن الطعام.

وأمامك نصوص إسلامية ـ دون أن نبتغي الحصر هنا ـ تلقي أضواء ساطعة على عناية الإسلام بجوانب الشخصية الثلاثة:

أ ـ عناية الإسلام بالروح:

قال تعالى: **﴿إذ قال ربك. . . ساجدين﴾** ص ٧١، ٧٢.

قال تعالى: ﴿**ونفس وما سواها.. دساها**﴾ الشمس ٧، ١٠.

قال تعالى ﴿**ألا إن أولياء الله**﴾

قال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله...**﴾ فصلت ٣٠، ٣٢.

قال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا...**﴾ العنكبوت ٦٩.

قال تعالى: ﴿**واذكر اسم ربك...**﴾ المزمل ٨.

ب ـ عناية الإسلام بالعقل:

قال تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك...**﴾ الإسراء ٣٦.

قال تعالى: ﴿**إن في خلق...**﴾ آل عمران ٩٠، ٩١.

قال تعالى: ﴿**أفلم يسيروا...**﴾ القتال ١٠.

قال تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل...**﴾ النحل ١٢٥.

جـ ـ عناية الإسلام بالجسم:

قال تعالى: ﴿**ياأيها الناس كلوا...**﴾ البقرة ١٦٨.

قال تعالى: ﴿**وكلوا...**﴾ المائدة ٨٨.

وقال تعالى: ﴿**هو الذي أنزل... تذكرون؟**﴾ النحل ١٠، ١٧.

وقال تعالى: ﴿**قل من حرم...**﴾ الأعراف ٣٢.

الحديث «يا عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء» أحمد والنسائي. الحديث «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه».

ولا بأس أن نبرز أهمية العقل في نظر الإسلام، لأن كثيراً من الأدباء يرون دين الله مبنيّاً على التسليم، وعدم المناقشة، وقبول الأوامر الإلهية، دون استخدام العقل فيها.

فالإسلام ليس هذا هو الذي يتصورونه ويتخيلونه، إنه دين أنزله الله تعالىٰ الذي خلق كل شيء فقدّره تقديراً، وجعل لكل من الإنسان والكون نواميس خاصة، بلغت من الدقة أنها لا تعرف اضطراباً، ولا انحرافاً عن مساراتها الصحيحة.

وفي هذا الإطار، تجد العقل ـ تلك النعمة الكبرىٰ الممنوحة للإنسان وحده ـ له قوانينه الخاصة التي يسير وفقها، ويبدع في حدودها. وإن تاريخ الفكر البشري ينبئنا أن العقل قد كبا كبوات فادحة كثيرة، حينما لم يهتد إلى مسالكه الحقيقية، فظل وأمسىٰ يخبط خبط عشواء، يهذي هذيان الأطفال والمجانين، وما آداب الأمم القديمة وفلسفاتها إلا نتائج مَرَضية وخيمة لهذا كله.

على النقيض من هذا قام الإسلام يحارب مناهج التفكير العقيمة، مستبدلاً بها مناهج العقل الفطرية، التي تتماشى والخصائص المودعة في الإنسان، والتي تميزه عن الكائنات المحيطة به. لكن لماذا هذا التمييز الذي حظي به دون غيره؟

إن السبب واضح، ألا وهو أنه مفضّل ومكرّم، وخليفة الله في الأرض، أُمر بتطبيق شريعته، وبالتالي فهو مسؤول عن هذه الخلافة، وعن هذا التطبيق. قال تعالىٰ: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾** (البقرة: ٣٠).

والأمانة لا يفهم مدلولها، ولا تدرك حقيقتها، ولا تعرف كيفيات أدائها الصحيحة بدون العقل الذي أودعه الله تعالىٰ في الإنسان. فالعقل ـ إذن ـ وسيلة وحيدة لأهداف عديدة لا تتحقق في عالم الوجود بدونها. ومن بين هذه الأهداف:

١ ـ معرفة وجود الله وقدرته ورحمته، من خلال التدبّر في مخلوقاته الكثيرة التي لا تقع تحت حصر ولا عدّ.

٢ ـ الاهتداء إلى معرفة أقل القليل عن أسرار الكون الكثيرة، ليعلم أن كل شيء يسبح لله تعالىٰ، ولكن لا يفقه كيفية تسبيحه، يقول الله تعالىٰ: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾** (فصلت ٥٣)، وقال تعالى: **﴿تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾** (الإسراء: ٤٤).

٣ ـ بمعرفة الإنسان بعض الأمور عن محيطه، يتمكن من أن يستثمر ما يعرف، في سبيل الخير والإصلاح والتعمير، بعيداً عن سبل الشرّ والفساد والتدمير،

وهذا الفهم الدقيق لا يتأتىٰ له إذا كان بعيدا عن منهج الله، وهدى الإسلام، وسنة النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ (البقرة: ٢٩)، وقال أيضاً: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (لقمان: ٢٠)، وقال أيضاً: ﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ (هود: ٦١).

٤ ـ توجيه الطاقات كلها تجاه إقامة العدالة، وتحقيق المساواة الإنسانية، ومحاربة الظلم ومظاهر الطاغوت جميعها، قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات: ١٠)، وقال أيضاً: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ (الرعد: ١٦). وقال في آية أخرى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يٰأولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ (المائدة: ١٠٠)، وقال تعالى في سورة البقرة الآية ٢٥٦: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها والله سميع عليم﴾.

هذه أهم الوظائف التي أُسندت إلى العقل، ليقوم بها خير قيام، لأنه سيسأل عن ذلك يوم القيامة سؤالاً عسيراً، يتتبّع دقائق الأمور، ولا يترك صغيرة إلا جلّاها وبيّنها، لأن السائل هو الله تعالىٰ الذي ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوٰت ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتٰب مبين﴾ (سبأ: ٣).

من أجل هذا، تكفّل الإسلام بحفظ العقل، وصيانته من كل شطط وانحراف عن جادة الحق، أما الأنظمة الجاهلية ـ حيث يحكم فيها الطاغوت ـ فإنك واجد لديها أن العقل في واد، والحياة البشرية في واد آخر، لأن العقل إذا قال ـ استناداً إلى أدلة علمية ـ إن الزنا، والخمر، وتحرر المرأة الشهواني، وغير هذه من أمراض العصر، كلها ضارة مهلكة، فإن أعداء الفطرة والإنسانية قد أصروا شديد الإصرار على أن يعاكسوا هذا الاتجاه الصحيح.

وفي الأنظمة الجاهلية تلغي أيضاً العقل واقفاً: إما في طرف التفريط، إذ لا حرية تفكير، ولا محاولة إبداء رأي (النظم الشيوعية)، وإما في طرف الإفراط، حيث يجوز أن يقول أي شيء ولو كان كذباً، وأن يصيح بشعارات حيوانية شهوانية، كيفما كانت النتائج (النظم الديمقراطية الرأسمالية).

ولا تعجب إذا فرض على العقل أفكار مادية خاطئة، دون أن يسمح له بنقدها (النظم الشيوعية)، أو إذا قدّم له ركام من الايديولوجيات والفلسفات الهدّامة، قائلين له: إنك حرّ في اختيار ما تشاؤه نفسك وتهواه (النظم الرأسمالية).

هذا وإن الإحصائيات ـ كما يقول سعيد حوى ـ تثبت أن مكانة العقل في تناقص مذهل مستمر، بحيث إن نسبة الذكاء في هبوط دائم، ونسبة الأمراض النفسية والعقلية في تزايد مطّرد (انظر: الإسلام جـ ٢ ص ٤).

لقد ذكرت هذه القضايا لألفت الأديب إلىٰ ضرورة العناية الفنية بها، لأنه قلما يوجد نتاج أدبي، جعل نصب عينيه خدمتها، وتبصير الناس بحقائقها.

★ ★ ★

وإذا وجب على أدباء العصر الحديث أن يولوا أهمية لجوانب الشخصية كلها، فإن أوجب الواجبات يتمثل في ضرورة التفريق بين حالات النفس، كما يقدّمها لنا القرآن الكريم. فالأدهى والأمرّ هو ذهاب الأدباء مذاهب شتىٰ ـ مقلدين الأجانب ـ في التحليل النفسي الخاطىء، والتصوير الجاهلي الحالك السواد، فيستهجنون ويقبّحون ما فضّله الله تعالىٰ، ويمدحون ويطرون ما شانه وحرّمه وأبعده عن رضوانه.

وتوضيحاً لهذا نقول: إن النفس البشرية ـ كما ورد ذلك في القرآن الكريم ـ لها ثلاث حالات، تنتقل بينها وتضطرب، فتتخذ في هذا الاضطراب والانتقال أحد اتجاهين: اتجاهاً جاهلياً، أو اتجاهاً إسلامياً. والسر في هذا هو أن الله تعالىٰ أودع في النفس البشرية استعدادات وطاقات حيادية، يمكن أن تستخدم في الخير أو في الشر: ﴿**ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من**

زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس: ٧ ـ ١٠)،

وحالات النفس الثلاث هذه هي:

١ ـ النفس الأمارة بالسوء: وهي حالة كونها غارقة في بحار السيئات، مقترفة آثاماً شتى، جاعلة الحرام حلالاً والحلال حراماً. لهذه الأسباب كلها سميت أمارة بالسوء، لأنها تأمر صاحبها به، وتدفعه دفعاً قوياً نحو ارتكاب الموبقات والخطايا، يقول الله تعالىٰ: **﴿وما أبرّىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾** (يوسف: ٥٣).

وعلى ضوء التعريف القرآني هذا، تظهر أمامنا ميادين اجتماعية ضخمة، تصول فيها وتجول النفوس الأمارة بالسوء، وتملأ الأجواء وتسد الآفاق بغيوم كثيفة من الذنوب والمعاصي.

٢ ـ النفس اللوّامة: هي الحالة الثانية التي تكون عليها نفسية الإنسان، وضابطها العلمي أنها تنقد الأفعال السيئة، والتصرفات القبيحة التي صدرت من قبل، فهي تلوم نفسها، بمقاييس اجتماعية، اكتسبتها عن طريق التربية والتوعية والتوجيه.

ويطلق عليها علماء الأخلاق تسمية أخرىٰ، هي (تأنيب الضمير)، لكننا نؤثر عليها التسمية القرآنية، لأنها أدلّ منها وأبلغ، يقول تعالى: **﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾** (القيامة ١ ـ ٢).

والحالة هذه أوضح عند المسلم منها عند الكافر والمنافق، لأن دين الله فتح له باب التوبة على مصراعيه، ليؤوب إلى الرشاد، تاركاً التيه والضلال، فالمحاسبة ـ إذن ـ مطلوبة لترفع النفس دوماً نحو آفاق عليا: من الطهارة والصفاء الروحيين.

٣ ـ النفس المطمئنة: وهي الحالة الثالثة التي يرجوها كل مسلم، ليرضى عنه ربّه عزّ وجلّ، ولا تتحقق وجوداً إلا بتغلب عوامل الخير ودوافعه على عوامل الشر وأسبابه، ولهذا سميت نفساً مطمئنة، يقول تعالى: **﴿يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾** (الفجر: ٢٧ ـ ٣٠). إنها مطمئنة، لكونها حبذت الاستقرار النفسي الصالح، وفضلته على الاضطرابات

الباطنية ولن تكون النفس مستقرة إلا في رحاب الإيمان والخير والفضيلة، أما إذا نأت النفس عن ذلك، فسوف لا تجد إلا مستنقعات الرذائل، ومهاوي الضلالات، التي تورّثها شتى الاضطرابات الخانقة القاتلة.

إلى جانب السعادة التي تلفيها النفس المطمئنة في دنياها، هناك سعادة أبدية أخروية، لا تقاس بالسابقة الفانية، **﴿فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾**.

فإذا ميّز الأديب بين هذه الحالات الثلاث للنفس، وراعىٰ مفاهيمها وأبعادها في كتاباته، واستزاد من المعلومات الإسلامية الصحيحة الخاصة بها، فإنه يستطيع أن يذيب العقد النفسية التي عَمَّ بلاؤها، وفشت مخاطرها إلى درجة أنه لم يسلم منها إلا من رحم ربك.

★ ★ ★

والأدب الإسلامي المرجو لا يغفل أهمية الانسجام النفسي للأوساط الاجتماعية، لأنها الإطار الصحيح الذي تتفجر فيه طاقات الإنسان الصالحة، ويتنشق فيه نسيم السعادة الروحية.

والمراد بالانسجام النفسي للأوساط الاجتماعية تلك التوافقات التي تصهر وظائف كل مؤسسات المجتمع في بوتقة واحدة، بحيث تتجه كلها نحو أهداف نبيلة واحدة، وأهمّ هذه المؤسسات: المسجد، الأسرة، المدرسة، النوادي الثقافية.

وإن تحقق هذا الذي ترنو إليه أفئدتنا مشروط بضرورة إيجاد مناهج تربوية سليمة، كبديل للمناهج الجاهلية المعمول بها حالياً: فتوضع للأسرة طرائق خاصة، وللمسجد طرائقه الخاصة، وللمدرسة مناهج معينة، وهلمّ جرّا. وليس معنى هذا أن الخصوصيات ستتحوّل إلى أسباب تفريق وتمييز بين المؤسسات الاجتماعية، وإنما هي فنيات تطبيقية للمقاصد التربوية المشتركة، تختلف من مؤسسة إلى أخرىٰ، تبعاً لطبيعة كيانها البنيوي.

على هذا الأساس، لا تشعر النفس البشرية بأي تناقض أو اضطراب حينما يتردد صاحبها على المسجد، والأسرة، والمدرسة، وغيرها، لأنها تجد قيما واحدة، ومعايير مشتركة، وثقافة واحدة، وتصوراً واحداً. أما أحوالنا الحاضرة، فهي غارقة في أمواج الصراعات الإيديولوجية، والتناقضات العقائدية: فالمدرسة تدعو إلى أهداف معينة والأسرة تنشىء أفرادها في إطار مطالبها الخاصة، والمسجد يسعىٰ سعيه الحثيث لإنقاذ الشباب من دوّامة التيه والضياع. وهكذا تسير عجلة حياتنا طاحنة الطالح والصالح في آن واحد.

إذن لا بد من رفض المظاهر المتضاربة، وتخليص الحياة النفسية منها، وهذا لن يكون إلا بتهيئة أجواء تربوية سليمة، ووضعها تحت رقابة إسلامية مستمرة، تقف بالمرصاد لأدنىٰ تسرب جاهلي.

وفي هذا المضمار ننتظر من الأدب الشيء الكثير: ننتظر منه أن يصوّر للقراء الحياة الحقيقية المنسجمة الجوانب، مبيناً في الوقت نفسه سلبيات حياتنا الواقعية، وننتظر منه أيضاً أن يعكس، بأشكال فنية جميلة، الحلول الإسلامية لمشكلات العصر النفسية، كما ننتظر منه كذلك أن يضع سدّاً منيعاً بين امتدادات الجاهلية المعاصرة، ونفوس شبابنا التواق إلى السعادة المنشودة.

★ ★ ★

هذا، ومن المفروض علينا منهجياً أن نشير إلى أهم القيم الروحية التي جاء بها الإسلام ـ دون محاولة استقصائها ـ من أجل تطهير النفس، وتوجيهها الوجهة الحضارية الحقيقية. وغايتنا من هذه الإشارة هي تبيان المضامين النفسية التي يجدر بالأديب أن يخدمها فنياً، ليوصلها بالتالي إلى أفراد الشعب، وسنشفع كل قيمة بالنصوص الإسلامية التي لا نظير لها في تجلية الحق وإحقاقه، والكشف عن الباطل وإبطاله.

وأهم هذه القيم الروحية الإسلامية ما يلي:

١ ـ **الإخلاص**: وهو التوجه الروحي إلى الله تعالىٰ، أثناء القيام بعمل خيري أو

شعيرة تعبدية، دون أن ننوي الافتخار بما نفعل أمام الناس، أو نطمع في مدح أو ثناء، قال تعالىٰ: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوىٰ منكم﴾ (الحج: ٣٧) وفي الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم». رواه مسلم.

وإن ثمرات الإخلاص كثيرة، منها: نيل محبة الله، ومضاعفة الأجور والحسنات، ومحو السيئات. عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربّه تبارك وتعالىٰ قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالىٰ عنده حسنة كاملة؛ وإن همّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالىٰ عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة». متفق عليه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راضٍ» رواه ابن ماجة.

ولا بد أن تكون العبادة خالصة لله تعالىٰ، لا يبتغيْ بها غير ثواب الآخرة. قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ [البينة ٥]

أما إذا اتخذت الآخرة وسيلة لخدمة الأهداف الدنيوية الخسيسة، فإن النهاية سوف تكون سيئة.

هذا، وإن الإخلاص يتطلب من الإنسان أن يهجر عالم المعاصي، لينتمي إلى عالم الطاعات.

فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله

ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» متفق عليه.

٢ ـ **الصلاة معراج روحي للمؤمن**: سميت الصلاة كذلك لأنها صلة بين العبد المؤمن وربّه، لهذا تنبغي المحافظة عليها، وتأديتها في خشوع وتذلل ومسكنة، مع طلب الرحمة والغفران.

قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ (الأنفال: ٢ ـ ٣).

والصلوات تكفّر الذنوب والخطايا، كأن هذه الأخيرة لم تكن من قبل، وهذه رحمة من الله للمؤمن.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان، إلى رمضان مكفرات لما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر» رواه مسلم.

ويطلب من المؤمن ألا يتخلف عن صلاة الجماعة، لما فيها من فضل كبير. قال تعالى: ﴿**يـأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولٰئك هم الخاسرون**﴾ (المنافقون: ٩). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من سرّه أن يلقى الله تعالى غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن. . . الحديث» رواه مسلم.

٣ ـ **الصوم**: للصوم فوائد عجيبة وكثيرة، منها تطهير النفس المسلمة من كل رذائل الشيطان، بحيث تصفو، وتنجلي عنها غشاوة الشرّ، وظلمات الوساوس، عن أبي

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجّل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني صائم» متفق عليه.

والصيام وسيلة لاكتساب التقوىٰ والتقرب إلى الله تعالىٰ، قال تعالى: **﴿يـٰأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** (البقرة: ١٨٣).

٤ ـ تلاوة القرآن الكريم والمداومة على الذكر والدعاء: من يتلو كلام الله تعالىٰ يجد راحة قلبية، واطمئناناً روحياً لا مثيل له.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحَفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم.

ويراد بتلاوة القرآن الكريم تدبّر آياته، والتمعن في معانيها، مع تحسين الصوت ليتم التأثر الوجداني بما يقرأ. قال الله تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** (محمد: ٢٤). وروي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنّوا به، فمن لم يتغنّ بالقرآن فليس منا» رواه ابن ماجة.

ويراد بالذكر دوام تذكر الله تعالى، واستشعار عظمته ومراقبته لنا، لتستقيم أحوالنا، وتصلح أعمالنا، وذلك بالمواظبة على قراءة ما تيسر من الأذكار النبوية المأثورة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أربع من أعطيهن، فقد أعطي خيري الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدنا على البلاء صابراً، وزوجة لا تبغيه حوبا (لا تقع في ذنب بسبب عصيانها أوامره) في نفسها ماله» رواه الطبراني بإسناد جيد.

والذكر يحيي القلوب الميتة، ويجعلها نورانية، موصولة برحمة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً**﴾ (الكهف: ٢٨). وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر الله، مثل الحي والميت» رواه البخاري ومسلم.

والمؤمن يطلب ـ في أجواء الدعاء ـ المدد والإعانة من العلي القدير، الرحمن الرحيم، غير ملتفت إلى البشر، لأنهم مخلوقات ضعيفة، قال الله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ (البقرة: ١٨٦).

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي: كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني اكسكم. يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم... إلى آخر الحديث» رواه مسلم وغيره.

٥ ـ التوبة: الإسلام يحث المسلمين على المداومة على التوبة، لأنها طريق الخروج من السيئات، والشرط الوحيد لنيل رضوان الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله**﴾ (الحديد: ٢١). وقال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ (التحريم: ٨). وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» رواه مسلم والنسائي.

وليعلم المسلم أن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد إذا عزم على ترك الآثام والمنكرات. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلت إليه أهرول» رواه البخاري ومسلم.

٦ ـ **المراقبة والخوف والرجاء**: إن المراقبة شرط ضروري لإصلاح النفس، وتقويم سلوكها، وتهذيب مشاعرها، قال الله تعالى ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ (الفجر: ١٤)، وقال تعالى: ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ (غافر: ١٩). والمراقبة لا تحدد زماناً ولا مكاناً فعن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

ولا تكون المراقبة كذلك، إلا إذا اعتمدت على محاسبة دقيقة، متواصلة للنفس، فعن أنس رضي الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» رواهُ البخاري. وعن أبي يعلى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» رواه الترمذي وقال حديث حسن.

ولا ينفصل عن المراقبة الخوف من الله، ولا الرجاء في ثوابه، أما الخوف من الله، ففضله الاستقامة في الدنيا، والأمن في الآخرة. قال الله تعالى: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ (الرحمن: ٤٦). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين

وأمنين: إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة». رواه ابن حبان.

وإذا أراد المؤمن أن تتساقط ذنوبه، فعليه أن يخاف من عقاب الله تعالى. فقد روي عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتّت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها». رواه أبوالشيخ والبيهقي.

ولا ينبغي للمؤمن أن ييأس من رحمة الله تعالى، فعليه أن يرجوها محققاً متطلباتها، قال الله تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم**﴾ (الزمر: ٥٠). وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن شئتم أنبأتكم ما أوّل ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة، وما أول ما يقولون له؟ قلنا: نعم يا رسول الله، قال: إن الله عز وجل يقول للمؤمنين: هل أحببتم لقائي؟ فيقولون: نعم يا ربنا، فيقول: لم؟ فيقولون: رجونا عفوك ومغفرتك، فيقول: قد وجبت لكم مغفرتي» رواه أحمد.

٧ ـ **الصبر**: المؤمن صبور على المحن والمصائب، لا يلين إيمانه ولا يضعف ولو كثرت. لأن الله تعالى يريد أن يخرجه من المعاصي التي ارتكبها، ليلقاه يوم القيامة صافي السريرة، موفور الأجر. فعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه» متفق عليه.

والصبر وسيلة لنيل محبة الله تعالى، إذ يقول: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون**﴾ (العنكبوت: ٥٨، ٥٩). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ «من يرد الله به خيراً يصب منه» رواه البخاري.

وهكذا يصير كل أمر المؤمن خيراً، فعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»، رواه مسلم.

٨ ـ **تذكّر الآخرة**: تصلح النفس وتستقيم، حينما تتذكر دوماً أنها ستموت، وأنها آيبة إلى ربها، ليحاسبها عن كل صغيرة وكبيرة، يقول تعالى: ﴿**كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ (آل عمران: ١٨٥)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»، رواه البخاري.

والبكاء من خشية الله مطلوب أساساً، لأنه يحول بين صاحب العين الباكية ونار جهنم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»، رواه الترمذي.

ومن كان قلبه دائم الارتباط بالآخرة، استعلى على الدنيا الفانية، ولم يتأثر بشهواتها، يقول تعالى: ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾ (العنكبوت: ٦٤). ويقول أيضاً: ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى**﴾ (النساء: ٧٧).

ولكن الويل والثبور لمن صيّر نفسه عبداً للدنيا، وعكف على جمع حطامها، يقول عز من قائل: ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾ (الكهف: ١٠٣، ١٠٤). ويقول أيضاً: ﴿**إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين**

هم عن آياتنا غافلون، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ (يونس: ٧، ٨).

ومن فوائد الإيمان بالآخرة وإيثارها على الدنيا: طمأنينة النفس، وعدم استعجال النتائج، وعدم الاغترار بالحرية المطلقة لأنها ألصق بالوهم منها بالواقع، وربط الحياة الدنيا بأهداف الآخرة، وذلك بإعادة النظر إلى الأفعال: صالحها وطالحها. يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من منيّ يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾** (القيامة: ٣٦، ٤٠)، ويقول أيضاً: **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾** (المؤمنون: ١٥). ويقول أيضاً: **﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدعّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهوَن الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون﴾** (الماعون).

نكتفي بذكر القيم السابقة، لندرك ضرورة وجودها في الحياة النفسية المتعطشة إلى الصلاح والاستقامة. فما على الأديب إلا أن يستثمر هذه المادة الغزيرة التي ذكرنا بعض معالمها، في نتاجه الأدبي، وهذا أحد معالم المسلك الوحيد الذي ينقذ البشرية من هلاك محقق، تحيكه لها الجاهلية المعاصرة.

وإن مسيرة الأدب لن تكون صحيحة، إذا هي بقيت على حالتها هذه، تستمد مضامينها من القيم الأرضية الضالة المضلة. فالمسيرة الحقيقية التي نأملها مستقبلاً، هي تلك التي تحرص على إصلاح النفس البشرية، بكل ما أوتيت من جهود فنية، وذلك بأن تستقي أغراضها ومواضيعها من القيم والمعايير الإسلامية الخالدة، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

الأدب والأخلاق

مرّ معنا في الفصل السابق دراسة أهم الروابط الوظيفية بين الأدب وميدان النفس البشرية، وتبين لنا من ذلك ضرورة العناية الأدبية الجادة بجوهر الإنسان، لترقيته نحو آفاق عليا، بعد تصفيته من كل شوائب الهوى والاعوجاج.

وفي هذا الفصل سنرى ميداناً كبيراً، لا يقل عن السابق أهمية، كما أنه شديد الارتباط به، لكونه نتائج طبيعية له، تظهر في الوجود الخارجي، إذا تحقق هو في الوجود الباطني، وبعبارة أوضح، إن صلاح النفس واستقامتها يؤديان حتماً إلى صلاح الأخلاق واستقامة السلوك.

لهـذا السبب ارتـأينا أن نقف ملياً، محلّلين الجانب الأخلاقي، متتبعين ملابساته المختلفة، وهذه ضرورة أدبية يجب أن يفهمها النقاد فهماً جيّداً، ليقوّموا بموضوعية هادفة ما تعج به أسواق الكتب، فهم ـ لا شك ـ واجدون أن معظم النتاج الأدبي الحالي ركام جاهلي، لا يسْمن ولا يغني من جوع، بل يجر على البشرية جمعاء، ويلات لا أول لها ولا آخر.

فماذا نصنع بأدب منحل خلقياً، ونحن نريد إرساء قواعد صحيحة لمجتمع سليم؟ وأي فائدة ترجى منه، وقد عزم على تحطيم كل قائم، وهدم كل صالح؟ وما بال هذه الأجيال الفتية تفني زهرة شبابها، وأفضل أوقاتها في قراءة الكتابات الأدبية التافهة والعناية بها، بدل ما يفيدها ويفيد أمتها؟

هذه تساؤلات يطرحها كل غيور على الأخلاق التي أهدرت، والقيم الإنسانية التي أبيحت حرماتها، وذلك ليعي وجوده، وما يحيط به، وما يحاك ضده وضد أمته، فيتخذ بالتالي المواقف السليمة النابعة من معين الإسلام وأصوله المتينة.

هذا، وقد كثرت التفسيرات حول هذا الموضوع، وتشعّبت الآراء، واختلفت المـذاهب، فنجم عن ذلـك كله أن اضطربت الأخلاق وتضاربت مفاهيمها في العقول، فصار الواحد منّا لا يستطيع أن يفرق بين ما هو صالح وما هو طالح.

ووراء هذا تعمّد مقصود، يتمثّل في محاربة الجاهلية لكلّ الأهداف الأخلاقية والمعايير السّلوكّية القويمة.

★ ★ ★

ومن مظاهر الاختلافات الفكرية حول قضية الأخلاق، ضلال العقل عن معرفة مصدرها الحقيقي: فبعض الفلاسفة والمفكرين يدّعون أنها تستمد من العقل الذي يمتلك موازين الحسن والقبح. وبعضهم يرون أن مصدرها العاطفة، لكونها تكسبها حرارة الاندفاع وحيوية التطبيق. وبعضهم الآخر يعتقد أن المجتمع هو الذي يتزعم إنشاء أخلاقه، وينقلها إلى كل أفراده في شكل ضمير خلقي.

هذه أهم النظريات الوضعية البشرية التي تحاول ربط الأخلاق بمصدر غير المصدر الإلهي، وهناك آراء أخرى تسعى هذا المسعى الجاهلي، إلا أننا سنكتفي بشرح موجز للنظريات الثلاث السابقة:

١ ـ نظرية العقلانيين:

هؤلاء (ومنهم الفيلسوف الألماني المثالي إيمانويل كانط) يزعمون أن العقل هو جوهر الإنسان وماهيته المدركة للوجود، ولما يدور حوله من مخلوقات، وهو وسيلة الاتصال الأساسية والوحيدة التي تربطنا بالعالم الخارجي، لنستمد من هذا الأخير كل ما نحتاجه من معلومات وتجارب وأخبار.

فإذا كانت الأخلاق هي مجموعة مقاييس، نستخدمها في تحسين هذا وتقبيح ذاك، فلا شك أن واضعها هو هذا العقل الذي يتميز بديمومة التحليل والتركيب لمختلف ظواهر الحياة: يحلل الصدق مثلاً إلى أجزائه، ليركّب بين النتائج ذات الفوائد العاجلة، وهلم جرا.

فالعقل - إذن - هو القادر على تخيّر الأخلاق النافعة، وطرح الأخلاق التي لا تجلب نفعاً ولا يرجى منها فائدة ما، كما أن قدرته تتجلى في عقلنتها: أي رد بعضها منطقياً، يقبله الفهم السديد، ورد بعضها الآخر غير منطقي لا يستسيغه التحليل الفكري.

٢ - نظرية أنصار العاطفة:

إن الذين يزعمون (ومنهم برغسون) أن العاطفة هي مصدر الأخلاق يحتجون بما يلي:

أ - إن العقل - على الرغم من قدرته الكبيرة على التحليل والاستنباط والتقويم - بارد، لأنه متخصص في الأقيسة المنطقية، فمن أين اكتسبت الأخلاق حرارتها واندفاعها لولا وجود عنصر العاطفة؟

ب - بعض الأخلاق تتناقض مع ما يراه العقل. فالجهاد مثلاً يعني احتمال انتهاء حياة الإنسان المجاهد، وهذا ما لا يدعو إليه العقل بمقاييسه النفعية، وهنا تأتي العاطفة النبيلة لتحقيقه وجوداً في حياة المسلمين.

جـ - إن فرحنا أثناء القيام بعمل أخلاقي أو حزننا الناجم عن ارتكاب سيئة ما، ليست طبيعته - كما هو ظاهر - عقلية، وإنما هي عاطفية، إذ أن العقل لا يفرح ولا يحزن.

بهذه الحجج وغيرها، يذهب أنصار العاطفة إلى أنها - لا العقل - هي المصدر الحقيقي والوحيد، الذي يصوغ الأخلاق صياغة نفسية، تدفع الإنسان دفعاً قوياً نحو تحقيقها في حياته.

٣ - نظرية علماء الاجتماع:

يرى هؤلاء - ومنهم دوركايم على الخصوص - أن مصدر الأخلاق هو المجتمع الذي له السلطة التشريعية، وله إمكانية وضع مبادىء أخلاقية مكان أخرى لم تعد صالحة في نظره. أمّا العقل والعاطفة، فلا دخل لهما في هذه العملية الأخلاقية، إذ يقوم مكانهما ما يسمى بالعقل الجمعي، أو الضمير الجمعي.

ويعرّف «دوركايم» الضمير الجمعي بأنه مجموعة ضمائر الأفراد واشتراكها في قيم ومعايير معينة، تتحول مرة ثانية إلى الفرد، لتوجّه سلوكه، وتسيطر على أخلاقه سيطرة تامة، فليس هناك مفر من هذا المسلك، ولا اختيار آخر، لأن المجتمع يريد المحافظة على كيانه، وفق قانون البقاء للأصلح، متخذاً الوسائل الممكنة جميعها، لزجر كل فرد تسول له نفسه الانحراف عن مبادئه وأسسه البنيوية.

هذا، وإن أكبر دليل على اجتماعية الأخلاق هو تغيرها المستمر، وتبدل قيمها بتغير المجتمعات فيما بينها، وتغير المجتمع الواحد من فترة زمنية لأخرى!

فلكل مجتمع أخلاقه الخاصة، ومظاهره السلوكية المعينة، كما أن لكل مرحلة تاريخية يمر بها مجتمع ما، مظاهرها الخلقية التي تميزها عن التي سبقتها، والتي ستليها فيما بعد.

لكن لا يخفى أن في قول «دوركايم» تناقضاً واضحاً، إذ كيف نتصور أن ضمائر الأفراد تنشىء الضمير الجمعي وتخضع له في آن واحد؟

على العموم نستخلص أن منطلق الأخلاق ليس هذا المجتمع المتغير باستمرار، ولا العاطفة الهائجة التي تحتاج إلى توجيه، ولا العقل البارد المنعدم الحرارة الروحية، ولكي نعرف حقيقة الأمر لا بد من التمييز بين نوعين من الأخلاق:

أ ـ الأخلاق الجاهلية الوضعية: وهي التي يصطلح عليها أفراد كل مجتمع ويتواضعون عليها، لتدخل في مجموعة المميزات التي تميز مجتمعاً ما عن غيره من المجتمعات، خشية ذوبانه فيها، وحفاظاً على خصائصه الجوهرية الموروثة، من الانهيار والتلاشي. فهذا الصنف من الأخلاق يشترك في إنشائه المصادر الثلاثة كلها المذكورة آنفاً: العقل، العاطفة، المجتمع، دون تفضيل أحدها على الآخرين.

ب ـ الأخلاق الإسلامية: وهي النابعة رأساً من الدين الإسلامي، فواضعها ومنزلها هو الله سبحانه وتعالى الذي خلقنا، وعلم أزلاً ما يلائمنا فأمرنا به، وما يضرنا

فنهانا عنه. وبالتالي فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل، يقول الله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾ (النساء: ٥٨).

ولا ينبغي أن نستقي لتنظيم حياتنا أخلاقاً من إله الهوى (المجتمع، العقل، العاطفة) يقول تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذّكرون**﴾ [الجاثية: ٢٣]. كما أن اتباع أنصار الهوى وعبيد الجاهلية فساداً كبيراً، وهلاكاً محققاً: دنيا وآخرة، يقول تعالى: ﴿**ولا تطيعوا أمر المسرفين**﴾ [الشعراء: ١٥١] ويقول تعالى: ﴿**يٰأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين**﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فعلى الأديب الذي يريد خدمة القضايا العادلة أن يلتزم بالأخلاق الإسلامية، مضمناً إياها نتاجه الفني تضميناً هادفاً، كما عليه أن يظهر ـ فما يكتب ـ الرذائل الجاهلية في صورها الحقيقية الدنيئه: حتى لا تنخدع شبيبتنا المتعلمة بالعسل المسموم: سواء أتانا من الغرب الرأسمالي أم الشرقي الشيوعي.

وعلى الأديب أن يعوّد عشاق الإبداع الفني عملية استمداد الأخلاق السامية، من الله سبحانه وتعالى، عن طريق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتحكيمها دوماً: في حياتهم المعاشة حين يتحركون في المجتمع وفي نقدهم للشخصيات الأدبية حين يقرؤون.

وعلى الأديب أن يرسخ في عقولهم أن الذي يحلل ويحرّم هو الله تعالى، لا المجتمع، ولا العواطف، ولا العقول، ولا المذاهب الجاهلية الهدّامة، يقول الله تعالى: ﴿**إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون**﴾ ويقول: ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكمُ الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام لتفتروا**

على الله الكذب. **إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾**. ويقول: **﴿يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله. واتقوا الله. إن الله سميع عليم﴾**.

وقد فطن سيد قطب في تفسيره الرائع (في ظلال القرآن) إلى المنهج الإسلامي الأصيل، الخالي من كل الشوائب الفكرية البشرية، والذي كان سائداً في عصر صحابة الرسول ﷺ، ألا وهو منهج التّلقّي للتنفيذ: أي تلقي القيم الربانية والأوامر الإلهية، واتخاذها دستوراً للحياة جمعاء، يقول الله تعالى: **﴿ثمّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها. ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾**. ويقول: **﴿قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾**. ويقول الرسول ﷺ: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل».

فالأخلاق الإسلامية ينبغي أن تكون مظاهر عملية للإيمان، إذ الباطن لا يكون صالحاً، إلا إذا صلح الظاهر الذي ما هو إلا امتداد طبيعي له، وبالتالي فلا فرق بين هذين الجانبين، ومن فرق بينهما فهو أبعد عن المنهج الإسلامي الصحيح. هذا، وإن منهج التلقي للتنفيذ يمنع المسلم الملتزم من أن يجعل ولاءه لغير الله تعالى، في قضايا الأخلاق والسلوك والشريعة وغيرها، وإلا فكيف يستبدل ما هو بشري ظني خاطىء باليقين الحق، يقول الله تعالى: **﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾**. ويقول أيضاً: **﴿بشّرِ المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾**. ويقول أيضاً: **﴿إن الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشيطان سوّل لهم، وأملى لهم﴾**.

★ ★ ★

ومن العقبات التي تواجه الأدب العربي الحديث، وتحول بينه وبين الدعوة إلى الحق والخير، عدم التفريق بين الأسس النفسية للخلق، والمظاهر الأخلاقية الخارجية، وعدم التمييز بين مختلف النّيات التي ينبعث منها السلوك البشري.

وعلى هذا الأساس، نرى أن عدم الإدراك الأدبي لمثل هذه الأمور، فيه خطورة بالغة، لأن النتاج الأدبي الذي لا يُراعي صاحبه عمق هذه القضية

الأخلاقية، سريعاً ما ينخدع قارئه بالسطحيات الأخلاقية المتضمنة فيه.

ولهذا فالأديب الحقيقي هو ذاك الذي يسبر أعماق النفس البشرية، وينقل معه القارىء في هذه الرحلة الشيقة، ليلمسا سوياً البواطن والدوافع المختلفة التي تحرك السلوك وتنشيء الأفعال.

ومن الطبيعي أن هذا لا يتأتّى إلّا للأدباء المتمرّسين، الذين يعرفون أدوات السير بدقّة، ويفقهون وظائفها.

ونقصد بالأدوات هنا الألفاظ التي تتناسب دلالاتها ودرجات العواطف، ومراتب المشاعر، ومدارجها. كما نقصد بها التراكيب الدقيقة، والصور والأخيلة التي تخدم هذا الغرض خدمة جليلة، وقد سبق أن ذكرنا أهمية عناصر الأدب هذه، في الكشف عن باطن الإنسان، دون ادّعاء استقصائه استقصاءً تاماً، لأن هذا من قبيل المستحيل، لاعتبارات ذكرناها، حينما حلّلنا عنصر العاطفة، فليرجع إلى موطنها من ذلك الفصل من أراد.

لهذه الأسباب كلها، أردنا أن نحلّل القضيتين هاتين تحليلاً كافياً لنستوضحهما وذلك فيما يلي:

١ - الأخلاق والمظاهر الأخلاقية:

أشرنا سالفاً إلى أن الإسلام لا يعترف بإقامة الفصل بين ما هو إيمان وما هو عمل، فكلاهما وجهان لِظاهرة واحدة لا ينفصلان، مثلهما مثل وجهي الدينار الواحد.

وكنا قد شفعنا هذه الإشارة بحديث الرسول ﷺ: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل».

وبالتالي لا يُقبل من الإنسان أخلاق مظهرية، لا أساس قلبياً لها، لأنها شبيهة بالشجرة التي اجتثّتْ من الأرض، وهذه حالة من حالات النفاق التي ينبغي على المسلم أن يتجنبها، ويطهّر نفسه منها، يقول الرسول ﷺ: «آية المنافق ثلاث:

إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» حديث متفق عليه.

من هذا الحديث نلفي أن حياة المنافق النفسية متناقضة تماماً: ظاهرها ليس هو باطنها: فحديثه يقابله كذبه، ووعده يقابله إخلافه، وائتمانه تقابله خيانته، وقس على ذلك.

إن الإسلام حريص على جعل الكيان النفسي للإنسان شيئاً واحداً، يدل ظاهره على باطنه (بالنسبة للملاحظين)، كما يدل باطنه على ظاهره (بالنسبة لصاحبهما)، والذي يحقّق التوازن ذاتياً تصير شخصيته سوية، ليس فيها عقد تقضها من مضجعها، وتنغص لها حياتها.

وفي المقابل، نجد معظم النتاج الأدبي المعاصر يعكس الواقع الجاهلي: بكل تناقضاته النفسية والأخلاقية، مصوّراً إيّاه بأمانة علمية، كأنه هو الواقع الصالح للبشر، وهذه ـ والله ـ سخافة وحماقة لا حدّ لهما: ويذهب الأدب العربي الآن مذاهب شتى، في تقليد هذه الواقعية السطحية، كأن ليس في الوجود اتجاه صحيح، يخدم الإنسانية غير هذا. ولو تأمل النقاد والأدباء ملياً، لوجدوا الاتجاه الصحيح هو الإسلام، إذ يكاد يلمس أنوفهم، لكن ـ مع الأسف الشديد ـ إذا كان هو موجوداً في بطون الدراسات الكثيرة، فإن عقولهم تسرح وتمرح هنالك: في جامعات أوروبا الاستشراقية، وجامعات الشرق الشيوعي.

هذا وإن سبب تشبث الأدب العربي المعاصر بالمظاهر الأخلاقية الخارجية، هو إيمانه بصحة النظرة المادية، وبطلان النظرة الروحية: فالأخلاق في نظره ـ إذن ـ مجموعة علاقات اجتماعية، تفرضها ظروف الحياة، وهي تتغير بتغيرها، في ديمومة لا نهاية لها، فلا ضمير إسلامياً، ولا مشاعر روحية، ولا أحاسيس إيمانية عميقة.

نستنتج من هذا أن الجاهلية المادية قد تمكّنت من التغلغل في النتاج الفنّي العربي بكل صنوفه، وأحكمت ربطه بها، ومن ثمّ سهل عليها توجيهه الوجهة التي ترومها هي لا غيرها.

إن الخلاص من هذا التفكير الإلحادي هو رفضه، للتخلص من تناقضاته، واستخدام البديل الإسلامي الذي يعيد الأمور إلى مجاريها الطبيعية، ويزنها بالموازين الصحيحة، فيجعل المرتبط بالجاهلية لا يُساوي شيئاً، وما يخدم الإسلام وينتمي إليه ثقيلاً في ميزان الحسنات، لهذا نراه يحثّ الأديب على أن يعطي الأولوية للضمائر والنفوس، بدل أن ينظر إلى المظاهر تلك النظرات السطحية المادية.

٢ ـ النية والمظاهر الخلقية:

وهذا الشق الآخر للقضية، ووجهها الثاني المرتبط بها، كما أنه تفصيل لها، إذ أن طبيعة النية ونوعيتها هي التي تحدد بالضبط المظاهر السلوكية، التي يتخذها الإنسان في كافة مجالات حياته. لذا صار لزاماً على الأديب أن يعرف أنواع النية، ليكون فهمه للمظاهر الأخلاقية المنبعثة عنها أدق، فلا يخطىء خطأ غيره في ذلك، باستعمالاته اللغوية والفنية.

وأنواع النية أربعة هي:

أ ـ النية الشخصية النفعية: قد ترد بعض المظاهر السلوكية إلى نيات أصحابها، فلا يجاوز مفعولها خدمة مصالحهم، وتحقيق أغراضهم النفعية، فإذا ما دخلت مثلاً، محلات تجارية، فإنك واجد غالباً الترحاب الحسن، والمعاملة الطيبة، والاستقبال الحار، لكن هذه المظاهر لا تخدع ذوي الفطنة والانتباه، لأنه يظهر عليها طابع التكلف، الناجم عن الارتباطات المصلحية الخاصة، والدوافع النفعية الذاتية.

والأدهى والأغرب أن بلغت النفعية قمتها، حينما نقرأ أن الأم يجب أن تدفع ثمن مصاريف الضيافة، إذا هي زارت أحد أولادها أو إحدى بناتها، والعكس صحيح.

ويشكل الأدب العربي الحديث جسراً كبيراً من هذه الجسور التي تنقل المظاهر الأخلاقية النفعية التي تعج بها المجتمعات الجاهلية المصنعة.

ب ـ النية القومية: هي ربط الأخلاق بمصالح القومية، وإن التاريخ المعاصر يُبيّن بوضوح انتقال هذه الفكرة من أوروبا إلى العالم العربي، فظهر ما يُسمى الآن بالقومية العربية، وهي دعوة إيديولوجية ترد كل شيء إلى العبقرية العربية المزعومة، وما الإسلام إلا مظهر من مظاهر قوتها لا أكثر، طبّق في أوانه، لأنه يلائم تلك الظروف القديمة فقط، أمّا الآن فإن الاشتراكية العربية القومية هي البديل الصالح لظروفنا. ومن هذا الأساس القومي، نبعت أخلاق وطنية، تدور في هذا الفلك، ممجدة إله العرب الجديد، فاندفع الشعراء بخاصة يطرون البطولات العربية المزعومة، ويلبسونها ثياب المجد، وتطورت هذه القضية إلى درجة أن رأينا أن لفظ (العرب) قد فاقت نسبة استعماله كل نظيراتها بالنسبة للألفاظ الأخرى، كما أن هذا اللفظ غزا مجال التاريخ الإسلامي كلّه: محمد ﷺ ليس رسولاً فقط، بل هو في الدرجة الأولى إنسان عربي، وأبوبكر الصديق ليس صحابياً جليلاً، وخليفة راشدياً، بل هو حاكم عربي، وهلم جرا. هذا وإن مخاطر الأخلاق القومية عديدة، منها: تفشي العصبيات، وكره الأجنبي ولو كان مسلماً، والتربص به الدوائر، والقضاء عليه، وما حادثة القاء القنبلتين النوويتين على هيروشيما وناغازاكي المدينتين اليابانيتين منا ببعيدة. كما أن الاستعمار خير مثال على ما نقول.

جـ ـ النية الإنسانية: تتجاوز هذه النية حدود الأوطان والقوميات، لتحلق في أجواء الإنسانية، رافضة التفرقة العنصرية، وأنواع التمييز القائمة على اللون أو الدين أو اللغة وغيرها. ولم ينحصر مجالها في محيط السياسة، بل تعداه ليدخل عالم الأدب، فظهر في القرن العشرين بخاصة غرض جديد: هو الأدب الإنساني أو العالمي.

وتدور مضامين هذا النوع الأدبي المستحدث حول الدعوة إلى السلام، والأخوة، والمساواة، والتعاون، ونبذ كل الخلافات بين البشر، وخدمة مصالح الإنسانية جمعاء، إلى غير ذلك من الشعارات التي ألفتها الآذان.

وحقيقة الأمر أن هذه الشعارات الإنسانية التي تكثر في عالمي السياسة والأدب

فارغة هشة جوفاء، تفوح منها رائحة النفاق والمداراة والخداع، إذ أن العدو الماكر لا يترك باباً مقفلاً يخدم أهدافه، إلّا فتحه على مصراعيه.

انطلاقاً من هذا، تنافس المسمون بالأدباء العالميين أو الإنسانيين في مجال تضمين نتاجهم الفني مثل هذه الشعارات. وإذا كان بعضهم في هذا غافلاً، فإن بعضهم الآخر منافق.

د ـ النية الإسلامية: إن الأديب الملتزم بتعاليم الإسلام يدرك تمام الإدراك أن أنواع النية الثلاثة سالفة الذكر، من مخططات الجاهلية المعاصرة، التي تريد صرفه واتجاهه الفني واهتماماته الأدبية عن الخالق تعالى، ليسقط بين أرجل وثنياتها.

ولهذا، فالإسلام يبين لنا النية الحقيقية، التي يجب أن تكون هي المنطلق الوحيد، والمنبع الأساسي لتصرفاتها السلوكية، وخصالنا وأفعالنا الخلقية، يقول الله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيّمة**﴾. ويقول الرسول ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنما لكلّ امرىءٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». (حديث متفق على صحّته).

بناء على هذا، تكون أخلاق المسلم مرتبطة بالله عز وجل، يستمدها منه، ويخافه، ويتذكر دوماً أنه يراقبه في كل صغيرة وكبيرة، بينما يستطيع الإنسان غير المسلم أن ينفلت من القيود البشرية، وصنوف مراقبتها، ليفعل ما بدا له وحلا، فشتان ـ إذن ـ بين التربية الأخلاقية الإسلامية والتربية الوضعية المادية، التي تغرق بناءها الهش، بأثقال المراقبة الحسية.

بالإضافة إلى قوة النية الإسلامية وجدواها، وضعف أنواع النية الجاهلية، يتجلى لنا أولاً سعة أفق الأولى، بحيث تشمل المحسوسات وغير المحسوسات، وثانياً ضيق مجال الثانية، وتعثرها في أوحال المادية المظلمة: ومعنى هذا أن

المسلم ـ وهو متوجه إلى الله في أعماله ـ يخدم في آن واحد مصالح أمته، ويسعى لإسعاد البشرية جمعاء، ويحقق ضمنيا ـ بين هذه الخدمة وتلك ـ السعي نحو تحقيق أهدافه الخالصة.

إن أدبنا العربي المعاصر خلو من هذه النية الحقيقية، اللهم إلّا ذلك النزر القليل من النتاج الفني، الذي ينشئه الكتاب المسلمون الملتزمون، وتراه مبثوثاً في عدد قليل من المجلات الإسلامية، التي لا تلقى دعماً مادياً ولا معنوياً. لهذا وجب على الأدباء أصحاب لغة الضاد، أن تكون لديهم بصيرة نافذة، يزنون بها كافة الأمور، فلا يقبلون ما له صلة وثقى بأي معلم من معالم الجاهلية المعاصرة.

★ ★ ★

ولكن لماذا نطالب كل أديب بأن يلتزم في كتاباته بالأخلاق الإسلامية فقط، عاكساً إياها في أشكال فنية معاصرة مستعيناً في هذا بكل الوسائل الأدبية المساعدة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال الهام، تفرض علينا أن ننبه إلى أكبر الأهداف التي تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها في عالم الواقع، ومنها:

١ ـ **صفات الله تعالى وصفات المسلم**: لله صفات كثيرة تليق بجلاله وذاته وعظمته وقدسيته، وهي معلومة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وقد فصّل العلماء في مجال العقيدة الإسلامية هذه القضية، وبينوا أن الله تعالى متصف بها حقيقة، دون أن نشبهها بصفات المخلوقات، أو نعطلها وننكرها كما فعلت فرق المعتزلة الضالة.

هذا، وإن الله تعالى قد خلق في ذوات الناس استعدادات، لاكتساب صفات مسماة بأسماء صفاته تعالى، لكنها تختلف عنها جوهراً، ومن يقول بالتشبيه فقد كفر.

ومن هذا نعلم أن الله تعالى يحب من عباده المؤمنين أن يتقربوا إليه دوماً،

وَيَترقّوا نحو التكامل لا الكمال. لأن الكمال لله عز وجل فقط.

فالله قادر والإنسان قادر قدرة بشرية، والله كريم والإنسان كريم كرماً بشرياً، والله عليم والإنسان عالم علماً بشرياً، والله مريد والإنسان مريد إرادة بشرية، وهكذا قس على بقية الصفات الأخرى. لكن ما يطلب إسلامياً هو تحقق هذه الصفات، وفق الشروط الأخلاقية التي نص عليها القرآن الكريم، وسنّة النبي ﷺ.

٢ - **تحقيق الخلافة**: ذكرنا في أحد المواطن السابقة أن الله تعالى أسند الخلافة للإنسان، تكريماً له ورفعاً لشأنه، قال تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر**﴾ وقال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾.

إن هذه الخلافة لن تتحقق إلا بمراعاة المطالب الإسلامية: التي هي مجموعة الأوامر التي يجب على الإنسان أن يلتزم بها، ومجموعة النواهي التي ينبغي أن ينتهي عنها. ويدخل في هذا المضمار الأخلاق النبيلة، لأن الإنسان بدون الأخلاق الربانية والنبوية يستحيل وحشاً لا مثيل له، يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، ويهتك الأعراض، ويستحل الأرحام. وفي التاريخين القديم والمعاصر آلاف الأمثلة والشواهد على ذلك، فواأسفاه على أحوال البشرية المتردية إلى هاوية الدمار والانحطاط، ولن ينجيها من هذا الخطر المحقق إلّا الرجوع إلى منابع الإسلام، عن طريق التوعية الصحيحة التي يقوم بها العلماء والأخصائيون والأدباء والنقاد.

٣ - **تفجير الطاقات**: من أهداف الأخلاق الإسلامية تفجير كل الطاقات البشرية، وتوجيهها في إطار تحقيق الخلافة المنشودة. فكثيراً ما ضاعت طاقات أفراد الأمم والمجتمعات قديماً وحديثاً، وذهبت مع أدراج الرياح، بل كثيراً ما أضرّت بالإنسانية شر ضرر، وألحقت بها الويل والهلاك.

ومن هنا يستطيع الأديب المسلم أن يوضح في نتاجه الفروق الأخلاقية الكبيرة، بين الذين يضيّعون طاقاتهم في وهاد الشر ومفاوزه لأطماع مادية خبيثة،

والذين يخافون من الله تعالى، فيتفانون في توجيه كل ما يملكون من جهد، في وجوه الخير والصلاح، بغية نيل الأجر العميم. والرحمة الواسعة يوم القيامة.

٤ - **شمولية الأخلاق الإسلامية:** يذهب أكثر الإيديولوجيين إلى أن الأخلاق مسألة شخصية، كما أن التدين قضية فردية لا اجتماعية، ومعنى هذا أنك لن تجد الأخلاق والتدين يعمان كل نواحي الحياة البشرية. وهذه دعوة باطلة لا أساس لها من الصحة، إذ لولا الأخلاق والدين الذي يدعو لها لضاع مفهوم الإنسانية من الوجود تماماً. وما هذه البقية الباقية من المعايير الأخلاقية الصالحة، التي نراها في العالم هنا وهناك، إلا آخر ما تركته الرسالات السماوية قبل أن تحرف (ما عدا الإسلام).

إن الموقف السليم تجاه هذه القضية هو أن الأخلاق الإسلامية تتصف بالشمولية التامة، وهذه ميزة يتميز بها الإسلام وحده، دون غيره من التيارات الفكرية البشرية، والأديان التي أصابها ما أصابها من التبديل والتشويه.

ونعني بشمولية الأخلاق الإسلامية إحاطتها بكل مجالات حياة الإنسان، وبالتالي لا يجوز أن نقول: في هذا المجال أخلاق، وفي ذاك اقتصاد فقط، وذلك سياسة لا غير، إن هذا القول باطل، لأن الإسلام لا يعترف بالتجزئة والانفصالية والاستقلالية، فالكل واحد يجب أن ينصهر في بوتقة واحدة: هي بوتقته الصافية الهادية للخير.

ومن ثمّ لا يعقل بتاتاً، أن يكون الإنسان متخلقاً في المسجد، وغير متخلق في الأسرة، ومكان عمله، ونشاطه الدنيوي، ولا يعقل أيضاً أن تكون سياسة الحاكم - أي حاكم - بدون أخلاق. ولا يقبل كذلك أن نعلم أبناءنا تعليماً خلواً من كل قيمة أخلاقية (كما هو سائد الآن).

فالأخلاق الإسلامية - إذن - يجب أن تعود إلى مواطنها ومجالاتها كلها بدون استثناء، ومجالاتها هي كل ميادين الحياة: الميدان السياسي، الميدان الاقتصادي، الميدان الثقافي والتعليمي، الميدان العسكري، الميدان القضائي

والقانوني، الميدان الاجتماعي، وهلم جرا. لأن في الإسلام أخلاقاً سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، وعسكرية.

وإذا كانت المسيحية مثلاً تؤمن بانفصالية أخلاقها عن الحياة، وانحصارها في أجواء الكنائس، فإن الإسلام يعد منافقاً كل إنسان يخالف فعله قوله، وظاهره باطنه، في أي ظرف من الظروف، وفي أي مناسبة من المناسبات، وفي أي مكان من الأمكنة.

٥ ـ القيام بالواجبات وتأدية الحقوق: تحرص الأخلاق الإسلامية أيضاً على تحديد الأدوار الاجتماعية لكل فرد، فهو مكلف ـ باعتبار انتمائه الاجتماعي ـ بتأدية كل الحقوق التي هي عليه، لأن العمليات الاجتماعية، وتكاليف الحياة المختلفة لا يمكن أن تتحقق وجوداً، إلا إذا تضافرت جهود أفراد المجتمع جميعهم، كل بحسب طاقته، وكل بحسب مركزه الاجتماعي الذي يشغله.

وفي هذا الإطار، وفق الأستاذ الجزائري مالك بن نبي أيما توفيق في تحليله لقضية الحقوق والواجبات، فاعتبر أن فهمها والسير وفق نواميسها الطبيعية، وقوانينها الصحيحة، مقدمات ضرورية لكل تطور اجتماعي نصبو إليه. وتوصل في تحليله هذا إلى اكتشاف ثلاث حالات، نوجز الكلام عنها فيما يلي:

أ ـ الحقوق الواجبات. (رمز رياضي معناه: أكبر).

هذه الحالة تدل على أن القيام بالواجبات ضعيف لم ينجم عنه تغطية شاملة للحقوق كلها، بحيث بقي قسم كبير منها معطلاً. ففي هذا الظرف يحدث عجز كبير، يشلّ أجهزة اجتماعية هامة بأكملها. وبالتالي فالأمة التي تكون هذه حالها، لا شك أنّها سوف يصيبها الانحطاط، فالانهزام الذاتي أمام القوى الخارجية، التي تتربص بها الدوائر.

ويعد العالم الثالث بأقسامه الثلاثة (آسيا، إفريقيا، أمريكا الجنوبية) مسرحاً لهذه الأحداث الناجمة عن الخلل في قانون الحقوق والواجبات.

ب ـ الحقوق = الواجبات:

هذه الحالة تتمثل في أن الواجبات التي يقوم بها أفراد مجتمع ما، تتساوى والحقوق المطالبين بتأديتها، فلا زيادة ولا فضل، أي أن ما ينتج يستهلك جميعه، ومن البديهي أن هذه الحال ـ وإن كانت أحسن من السابقة ـ لا تحمل للمجتمع أسباب حمايته ووقايته من الجمود والركود، فترات طويلة، ما دامت الأمور باقية على ما هي عليه.

جـ ـ الحقوق   الواجبات (رمز رياضي معناه: أصغر):

هذه هي حال الأمة التي تريد لنفسها الرقي والازدهار الحضاري، وذلك بأن تحث أفرادها على مضاعفة الجهود، من أجل ترجيح كفة الواجبات على كفة الحقوق، مما ينتج عنه تأدية كافة الحقوق الضرورية من جهة، ومن جهة أخرى زيادة قوة احتياطية كبرى، تستخدم الأمة بعضها في تطوير هياكلها، وتدّخر بعضها الآخر لمستقبلها.

بهذا التحليل الموجز، تظهر أمامنا الفروق واضحة بين الحالات الاحتمالية التي تقتسمها أمم العالم، لكن الملاحظ من كلام الأستاذ مالك بن نبي أنه اقتصر على الجوانب المادية من الحضارة، إذ أنه ردّد كثيراً مصطلحي الإنتاج والاستهلاك، وهما مصطلحان اقتصاديان معروفان.

وحقيقة الأمر أن مسألة الحقوق والواجبات لا يمكن حصرها في شؤون الاقتصاد، لأن الحياة البشرية ـ بكل أبعادها ومجالاتها ـ يجب أن تقوم عليها بدون استثناء: ففي مجال الأسرة حقوق وواجبات، وفي المدرسة حقوق وواجبات، وفي المسجد حقوق وواجبات، وفي الإدارة حقوق وواجبات، وهلم جرا.

٦ ـ **تنمية القيم الخلقية الفاضلة**: من مميزات الأخلاق الإسلامية أنها تكسب الفرد المؤمن قيماً خلقية فاضلة، لا يجدها في أي مذهب بشري، ولا في أي دستور وضعي. كما تجعله يحرص دوماً على تطويرها وتعميقها، ليتخذها أبعاداً نفسية راسخة في أعماق ذاته.

والذي يطالع التاريخ الإسلامي ـ وبخاصة سيرة الصحابة رضوان الله عليهم ـ متأملاً الصفات الخلقية، المتجسدة فيهم، يلفي أن الإسلام قد نقلهم نقلة عجيبة، من جاهلية مظلمة حالكة السواد إلى ضياء الهدى ونور الحق، ومن العلاقات الجاهلية الهشة إلى الروابط الإيمانية الربانية، ومن سفاسف الدنيا والجري وراء شهواتها الدنيئة إلى إقامة مجد الإسلام على بقاع الأرض كلها.

إن هذه النقلة العجيبة جعلت كل صحابي يرقى سلم الأخلاق بسرعة البرق، ليصير رجـلاً ربانياً، لا تحركه إلا أوامر الله، ولا تمنعه عن ارتكاب محظور ما إلا نواهي العزيز الجبار، فأيّان توجد مثل هذه التربية الراشدة؟ وأين تكون مثل هذه الجامعة: جامعة الإسلام التربوية؟

٧ ـ **اجتثاث الرذائل من النفوس**: وكما تعمل التربية الإسلامية على إكساب نفوس المؤمنين قيماً فاضلة، ومعايير سلوكية صحيحة، فإنها تسعى سعيها نحو اجتثاث كل رذيلة، وكل خلق سيء من أصوله ومنابته، وإن أحاديث رسول الله ﷺ لخير دليل، يبين لنا حرص النبي المصطفى على تنحية كل شائبة جاهلية، مهما تناهت في الضآلة والصغر، من نفوس صحابته الكرام. وكنا قد ألمحنا في فصل مضى، إلى ما حدث بين الصحابيين الجليلين: بلال وأبي ذر رضي الله عنهما، مما يدلّ على قمة الترقي التربوي الذي وصلا إليه وغيرهما من الصحابة الكرام. ويستحسن أن نذكر مثالين آخرينْ في هذا الصدد، يوضحان أكثر هذه الميزة العظمى:

المثال الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: «يعمدُ أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده!» فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك، انتفع به. قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ. (رواه مسلم).

المثال الثاني: عن أنس رضي الله عنه قال: «إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشّعر، كنّا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» (رواه البخاري).

٨ ـ **تمييز المسلم عن حيوانية الكافر**: شتان بين أخلاق المسلم الملتزم، ورذائل الكافر وحيوانيته، فالإسلام ميز معتنقيه عن أعدائه تمييزاً واضحاً لا غبار عليه: فالمسلم رحيم كريم، مؤدب، مخلص، معين، مجتهد، بينما الكافر نفعي، مادي، أناني، بخيل، شهواني، ظالم، ملتوي السلوك، يداري الناس وفق مصالحه وأغراضه، كما أن الإسلام رفع من شأن المسلم إلى درجة الربانية، فصارت أخلاقه موصولة بربه عز وجل، يشعر بمراقبته ورحمته ورعايته.

بينما يرتبط الكافر في سلوكه بطين الأرض، مطأطىء الرأس: البطن همه، والنساء قبلته، وحطام الدنيا متاعه، والدينار والدرهم دينه، فهذه والله حيوانية أحط بكثير من حيوانية الحيوان ذاته، قال تعالى: **﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾** (الأعراف: ١٧٩).

فهذه المميزات التي لا وجود لها في غير الأخلاق الإسلامية، تجعلنا نطالب بضرورة إيجادها في الأدب العربي الحديث، وتبوّئها مرتبة عالية فيه، وتصويرها فنياً، لتكون شغل شبيبتنا الشاغل، والعمود الفقري لاهتماماتهم السلوكية. وإن أيّ أدب يبعد قليلاً أو كثيراً عن مقاصد الإسلام هذه، لهو أدب ضياع وتضليل، وإهدار لكل حقوق الإنسانية.

★★★

وقد فطن الكاتب الإسلامي محمد قطب إلى ظاهرة أدبية تقع في مفترق الطرق بين الإسلام وإيديولوجيات الجاهلية المعاصرة ألا وهي: لحظة الضعف البشري، ، وذلك في كتابه «منهج الفن الإسلامي». ويراد بها الهفوات والسقطات التي يكبوها سلوك الإنسان في مختلف ظروفه وحالاته، وهذا طبيعي لأنه يدل على بشريته وآدميته التي تخطىء، فهو واقع، بيْن الحيوان والملك: الحيوان توجه سلوكه الغرائز والشهوات، والملك نوراني، لا يعرف أكلاً ولا شرباً ولا شهوة ما. يقول الله تعالى في شأن الملائكة: **﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما**

يؤمرون﴾ ويقول الرسول ﷺ: «أطّت السماء وحقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد» رواه ابن أبي حاتم. وفي قوله «إنّ البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون» في الصحيحين.

وفي قوله أيضاً: «خلق الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» رواه مسلم.

وبين درك الحيوانية ومنزلة الملائكية، نلفي الإنسان ثنائي الطبيعة: من جهة أولى تجذبه شهوات الجسد وغرائزه إلى الأرض، ومن جهة ثانية ترفعه روحه إلى مراتب السمو ومدارج الصّفاء. لكن هذه الثنائية ظاهرية فقط، لأن النفس في حقيقتها واحدة، تتمثل في آن واحد جسدها وروحها في كيان واحد، وفي طبيعة واحدة، إلا أن هذه الطبيعة البشرية قد تستولي عليها الشهوات، فتردها إلى درك الحيوانية، كما قد تأخذ بزمامها الأشواق الروحية، فترفعها إلى مرتبة الملائكية، ولكنها في هذا الهبوط وذاك الصعود لا تفقد ـ بأي حال من الأحوال ـ خصائصها الآدمية، فهي هي.

إن الدين الإسلامي يراعي هذه الطبيعة البشرية مراعاة دقيقة، عكس ما تفعله الجاهلية أي جاهلية، حينما تغلّب جانباً على آخر: فالمسيحية المحرّفة تغلو غلواً كبيراً، في دعوتها إلى الرهبانية والزهد الخيالي، والانقطاع عن الحياة، وعدم الزواج (بالنسبة للرهبان والراهبات، لكن أثبتت الوثائق والتحقيقات أن ظاهرة الزنا شائعة في الأديرة والكنائس، نتيجة للكبت النفسي)، يقول الله تعالى: **﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله، فما رَعَوْها حقّ رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون﴾**. بينما تغلو الجاهليات الأخرى غلواً فاضحاً، في دعوتها للمادية، والانحلال، والسقوط الجنسي، والشذوذ الجنسي (بين النساء على حدة، وبين الرجال على حدة) واقتراف مختلف الآثام. قال الله تعالى: **﴿اتخذ إلهه هواه﴾** ويقول: **﴿اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخرٌ بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يكون حُطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله**

ورضوان، **وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾** (الحديد: ٢٠) ويقول: **﴿زُيِّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب﴾**.

بناء على هذا، فإن لحظة الضعف في منظور المفاهيم الجاهلية هي لحظة قوة نفس، وبروز شخصية، وتفتح مشاعر، بل هي لحظة بطولة، يجب أن يرقى إليها الإنسان، لأن هذا ـ في زعم الماديين ـ هو الطريقة السليمة للنجاة من الكبت، والانغلاق النفسي، والعقد المختلفة، فإذا ما سمح المرء لنفسه بأن يزني، ويشرب الخمر، ويفعل ما تمليه عليه شهواته، فإنه يتحرر من أمراضه اللاشعورية، والضغوط الباطنية التي تورث له دوماً الشقاء والتعاسة.

هكذا تصوّر الآداب المعاصرة لحظة الضعف البشري، دون خجل أو حياء، ولماذا تخجل وتستحي، وقد أذهبت ماء وجوهها بدون رجعة؟! ويأتي الأدب العربي من بعيد مسرعاً، تاركاً وراءه مجده وحضارته وشخصيته الإسلامية، ليتلقف هذه السموم ويتجرعها، مبرهناً لغيره أنه يحسن تقليده في كل شيء، اللّهم إلاّ في الأصوات اللغوية.

على كل، هذا طرف من المأساة القاتلة التي تعيشها أمتنا، وهي تطلب النجدة من كل النقاد والأدباء المخلصين الذين يحبون لها الخير والعافية والرقي والسؤدد.

هذا، وإن لحظة الضعف في نظر الإسلام مسألة طبيعية يمرّ عليها كل إنسان، لكن أن تكون هي قمة الرقي الإنساني، فهذا ما لا يقبله عقلاء العالم، ولا يتبناه المنطق السليم، فضلاً عن أن يسمح به الإسلام: دين الحق واليقين.

وقد فتح الإسلام للإنسان باب التوبة على مصراعيه، حنيما تلم به لَمَّةٌ من لمام الشيطان، وهو لا يغلقه دونه، طيلة حياته، باستثناء الفترة الأخيرة التي تتميز بالغرغرة، (وهي وقت خروج الروح).

يقول الله تعالى: ﴿وأن استغفروا ربكم ثمّ توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمىً ويؤتِ كلّ ذي فضلٍ فضله، وإن تولّوا فإنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ كبير﴾. ويقول أيضاً: ﴿يأيّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربكم أن يُكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾.
وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة» (رواه البخاري).

وعن أبي موسى عبدالله بن قيسٍ الأشعريّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» حديث رواه مسلم.

إن الأديب المسلم يجب عليه أن يعتني بهذه الظاهرة في نتاجه الفني مبينا إياها بأنها ظاهرة مرضية، تمثل سقوط الإنسان في بعض فترات حياته، مراعياً الشرطين التاليين:
١ - ألا يقف عندها مصوّراً مظاهرها، عاكساً كيفيات السقوط، لأن القارىء يعرفها، وهي بديهية لدى جميع الناس. كما أن هذا التصوير الفني المفصل يغري ضعاف النفوس التي تعجب بما يبديه لها الخيال الأدبي، فترتكب الجرائم الخلقية والموبقات المختلفة، وتتساقط عليها تساقط الفراش على النار.

فلا يبقى - إذن - أيّ فرق بين هذا الأدب والآداب الجاهلية التي تجعل نصب أعينها إظهار الرذائل في صورة محاسن، والفضائح الخلقية في صورة فضائل إنسانية.

لذا يجب - في مجال الكتابة الفنية الهادفة - أن يكتفي بالتلميح والإشارة، مع تجنب التصريح والتصوير الخليع وتتبع العورات.

٢ - كما يجدر بالأديب الملتزم أن يقدم حلولاً إسلامية لكل لحظة ضعف، تمر بها الشخصية الأدبية (ويكون هذا بخاصة في مجالات القصة والرواية والمسرحية. أما في الشعر. فتقديم الحلول تكون مباشرة، دون ما حاجة إلى تقديم شخصية

أو موقف تصويري)، كما يجب أن تأتي هذه الحلول فور الإشارة إلى فترة الضعف، حتى يكون التأثير النفسي أقوى، أمّا إذا تباعد الطرفان (الضعف ـ الحل)، فإن الفائدة الخلقية المرجوة تضيع. وهكذا فنسبة التأثير النفسي تقل عكساً، كلّما ازداد ذلك التباعد.

بهذا نكون قد ميّزنا في موضوع لحظة الضعف البشري بين الموقفين: الموقف الجاهلي الطالح الضال المضل، والموقف الإسلامي المنير، الذي يرفع الغشاوة عن عيون البصائر، وينقي الأفئدة من الران، وهو الصدأ الذي يغلّف القلوب المريضة، بالمعاصي والنفاق وحبّ الشهوات، قال تعالى: ﴿**بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾.

★ ★ ★

وأخيراً لا بد أن نذكر بعض القيم الأخلاقية التي يتضمنها دستور الإسلام، طالبين أن تكون الشّغل الشاغل للأديب الملتزم، وهي كالتالي:

١ ـ خليقة الحياء: الحياء شعبة من الإيمان، ولهذا فلا فصل بينهما، إذ لا يعقل ألا يكون المؤمن متصفاً بالحياء، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ مرّ على رجلٍ من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنّ الحياء من الإيمان» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» رواه الحاكم والطبراني، وإن الحياء جالب للخير دائماً، ومزيّن كل شيء، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلّا بخير» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء إلّا شانه، وما كان الحياء في شيء إلّا زانه» رواه ابن ماجة والترمذي.

ولكن يجب على المسلم إذا أراد هذا أن يحقق مستلزمات الحياء، فعن

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حقّ الحياء. قال: قلنا يا نبي الله: إنّا لنستحيي والحمد لله. قال ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حقّ الحياء. أن تحفظ الرأس وما وعى. وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقّ الحياء» رواه الترمذي.

٢ ـ خليقة الرفق: يطالب الإسلام أن يرفق المؤمن بأخيه، فلا يضايقه ولا يشدد عليه فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفروا» رواه البخاري ومسلم.

والسر في هذا أن الله تعالى يحب من تكون فيه هذه الصفة الحميدة. قال الله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله رفيق يحبّ الرفق في الأمر كلّه» رواه البخاري ومسلم. ومن شروط الرفق قبول عذر الأخ إذا هو اعتذر، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «عِفّوا تَعِفَّ نساؤكم، وبرّوا أباءكم تبرّكم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل عذره لم يرد عليّ الحوض». رواه الطبراني.

ولا بد من مراعاة الآداب التي يقتضيها اللقاء بين الأخوين: كما حددتها أحاديث الرسول ﷺ، وهذه الآداب هي:

أ ـ **الوجه الطليق**: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ معروف صدقة، وإنّ المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك». رواه أحمد والترمذي.

ب ـ **التبسم**: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضّلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشّوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة» رواه الترمذي وابن حبان.

جـ ـ السلام: عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أيّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

د ـ المصافحة: عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلاّ غفر لهما قبل أن يتفرّقا» رواه أبوداود والترمذي. وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان أصحاب النبي ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفرٍ تعانقوا» رواه الطبراني.

هـ ـ الكلمة الطيبة: عن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتّقـوا النّار، ولو بشقِ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيّبة» رواه البخاري ومسلم.

٣ ـ الحبّ في الله: المؤمن لا يتخذ لنفسه أصدقاء إلاّ أولئك الذين يحبون الله، ويطبقون أوامره، ويجتنبون ما نهاهم عنه، لأن صديق الإيمان يعين على الصلاح والتقوى، روي عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أنّه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان؟ قال: «أن تحبّ لله، وتبغض لله، وتعمل لسانك في ذكر الله»، قال: وماذا يا رسول الله؟ قال: وأن تحبّ للنّاس ما تحبّ لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك» رواه أحمد.

وخليقة الحب في الله ـ إن وجدت عند أحد ـ فقد وجبت له ـ لا محالة ـ محبة الله تعالى. يقول تعالى: ﴿**إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». رواه الترمذي وغيره. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظِلّ إلاّ ظلي» رواه مسلم.

ومن الطبيعي أن يختار المسلم المجالس الصالحة التي تزيده علماً وإيماناً

وتقوى، فعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنّما مثل الجليس الصّالح والجليس السّوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يُحذِيَكَ، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيّبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحاً خبيثة» رواه البخاري ومسلم.

٤ ـ فضيلة اجتناب الغضب: إن الله تعالىٰ كتب على نفسه ألّا يغفر ذنوب العبد الذي تثور فيه ثائرة الغضب على أخيه، فيقاطعه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله عزّ وجلّ في ذلك اليوم لكلّ امرىء لا يشرك بالله شيئاً إلّا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتّى يصطلحا». رواه مسلم وغيره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أمّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان». رواه ابن ماجة وابن حبان.

فعلى المؤمن أن يجتنب الغضب في كل أحواله. يقول تعالى ﴿**والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون**﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردّدها مراراً، قال: «لا تغضب». رواه البخاري.

وسرّ اجتنابه الغضب هو نيل رضوان الله تعالى يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿**سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السمّوات والأرض أعدّت للمتقين الذين ينفقون في السرّاء والضّرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين**﴾.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: دلّني على عمل يدخلني الجنّة؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تغضب ولك الجنّة» رواه الطبراني.

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو

قادر على أن يُنفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق حتّى يخيّره من الحور العين ما شاء» رواه أبوداود وغيره.

ومن متطلبات هذه الفضيلة ـ فضيلة كظم الغيظ ـ عدم سباب المؤمن، وتكفيره، وسب الدهر، واللعن. قال الله تعالى: ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» رواه البخاري ومسلم. ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿من كفر فعليه كفره﴾.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: يا عدوّ الله، وليس كذلك إلّا حار عليه» رواه البخاري ومسلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يسب بنو آدم الدهر، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنّ العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السّماء دونها، ثمّ تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثمّ تأخذ يميناً وشمالاً، فإن لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعِن، فإن كان أهلاً، وإلّا رجعت إلى قائلها.» رواه أبوداود.

ولكن قد يغضب المسلم في بعض الأحايين، فيجب عليه في هاته الحالة أن يفعل ما أمره به الرسول ﷺ، فعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استبّ رجلان عند النبيّ ﷺ، فجعل أحدهما يغضب، ويحمرُّ وجهه، وتنتفخ أوداجه، فَنظر إليه النبيّ ﷺ فقال: «إنّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقام إلى الرجل رجل ممّن سمع النبيّ ﷺ فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: لا. قال: إنّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقال له الرّجل، أمجنوناً تراني؟ رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلّا فليضطجع» رواه أبوداود وابن حبان.

٥ ـ فضيلة التواضع: إنّ التواضع من شيم المؤمنين المخلصين، الذين يعلمون أن الله تعالى وحده هو القوي الجبار العزيز المتكبر، فيتواضعون ويخفض كل منهم جناحه لإخوانه. قال الله تعالى: ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾. وقد شدّد الإسلام النكير على من تهاون في هذا الأمر، فترك رذيلة الكبر تغزو قلبه، وتملأ نفسه ظلمة، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر» فقال رجل: إنّ الرّجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً؟ قال: «إنالله جميل يحبّ الجمال، الكبر بطر الحق وغمط النّاس» رواه مسلم والترمذي.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «من جرّ ثوبه خُيلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقال أبوبكر رضي الله عنه: يا رسول الله إنّ إزاري يسترخي إلاّ أن أتعاهده؟ فقال له رسول الله ﷺ إنّك لست ممّن يفعله خيلاء» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

بهـذا، فالإسـلام يُطهّـر القلوب من هذه الرذيلة، فيتركها صافية، مِلؤها الإيمان. قال الله تعالى: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين**﴾، ومصير كل من المتكبرين والمتواضعين معلوم(قال الله تعالى: ﴿**وخاب كلّ جبار عنيد من ورائه جهنّم ويسقى من مّاء صديد**﴾ وفي الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إيّاكم والكبر، فإنّ الكبر يكون في الرّجل، وإنّ عليه العباءة» رواه الطبراني.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ العزّة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذّبته.» رواه مسلم وغيره.

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل النّار؟ كلُّ عتلٍّ جوّاظ مستكبر» رواه البخاري ومسلم.

٦ ـ خليقة الصمت: إنّ المسلم لا يلغو ولا يثرثر، فكلامه موزون، لا يقول إلاّ خيراً، فإن وجد غير ذلك صمت، مخافة زلل اللسان، لأنّ هذا العضو هو أخطر حاسة في الإنسان. قال الله تعالى: ﴿**لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمرَ بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾.

وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: (إذا أصبح ابن آدم، فإنّ الأعضاء كلّها تكفّر اللّسان، فتقول: اتّق الله فينا، فإنّما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا) رواه الترمذي وغيره.

والذي يكبّ النّاس في النّار هو حصائد ألسنتهم. قال الله تعالى: ﴿**أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّاً على صراط مستقيم**﴾. وقال أيضاً: ﴿**ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد**﴾.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أكل ما نتكلم به يكتب علينا؟ قال: «ثكلتك أمّك، وهل يكبّ النّاس على مناخرهم في النّار إلاّ حصائد ألسنتهم، إنّك لن تزال سالماً ما سكت، فإذا تكلمت لك أو عليك». رواه الطبراني.

لهذا فالمؤمن يطيل الصمت، لأنّه مطردة للشيطان، ووسيلة للتفكّر والتّدبّر، ولا يكثر من الضحك، فعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أوصني. قال: «أوصيك بتقوى الله، فإنّها زين لأمرك كلّه. قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عزّ وجلّ، فإنّه ذكر لك في السماء، ونُورٌ لك في الأرض. قلت يا رسول الله زدني، قال: عليك بطول الصمت، فإنّه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك، قلت: زدني، قال: وإيّاك وكثرة الضّحك، فإنّه يُميت القلب، ويذهب بنور الوجه. قلت: زدني. قال: قل الحقّ وإن كان

مراً، قلت: زدني. قال: لا تخف في الله لومة لائم، قلت: زدني، قال: ليحجزك عن النّاس ما تعلم من نفسك» رواه أحمد وغيره.

وإن البون لواسع بين السبيلين: سبيل رضوان الله وسبيل سخطه، فقد روي عن النبي ﷺ قال: «إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه بها درجات في الجنّة، وإنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنّم.» رواه البخاري وغيره، والترمذي ولفظه: «إنّ العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلّا ليضحك بها المجلس يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض، وإنّ الرّجل ليزلّ عن لسانه أشدّ ممّا يزلّ عن قدميه».

وعن مالك رضي الله عنه بلغه أنّ عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فتقسو قلوبكم، فإنّ القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب النّاس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنّما النّاس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية) ذكره في الموطأ.

٧ ـ خليقة الصدق: المسلم لا يكون كاذباً، لأن الكذب إحدى علامات النفاق، قال الله تعالى: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم مّن قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ليجزي الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفوراً رّحيماً﴾**. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها. إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعلة ذلك أنّ الكذب يفسد قلب الإنسان، ويعرضه للإفلاس والبعد عن رحمة الله تعالى، فعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود قال: (لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب، فتنكت في قلبه نكتة حتّى يسودّ قلبه، فيكتب عند الله من الكاذبين) روله مالك.

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «برّ الوالدين يزيد في العمر، والكذب ينقص الرزق، والدعاء يرد القضاء» رواه الأصبهاني.

ومعلوم أنّ الإيمان والكذب لا يلتقيان أبداً، لاختلاف طبيعة كل منهما عن الآخر. قال الله تعالى: **﴿يأيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين﴾**. وفي الحديث، عن صفوان بن سليم قال: «قيل يا رسول الله أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم، قيل له أيكون المؤمن كذّاباً؟ قال: لا» رواه مالك.

لهذا السبب نلفي المؤمن التّقي يتحرّى الصدق، ولو في أهون الأشياء. قال الله تعالى: **﴿وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾**. وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا أشتهيه يعدّ ذلك كذباً؟ قال: «إن الكذب يكتب كذباً حتى تكتب الكذيبة كذيبة» رواه أحمد وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من قال لصبيّ تعال هاك، ثمّ لم يعطه، فهي كذبة» رواه أحمد وابن أبي الدنيا. وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للذي يحدّث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له» رواه أبوداود وغيره.

ومن الزلّات والرّذائل التي ترتكبها جارحة اللّسان: رذيلتا الغيبة والنميمة، فما هما؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال ذكرك أخاك بما يكره. قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه» رواه مسلم وغيره.

وقال الله تعالى: **﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾**.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّة نمّام» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ مرّ بقبرين يعذّبان فقال: «إنّهما يعذّبان، وما يعذّبان في كبير: بلى إنّه كبير: أمّا أحدهما فكان يمشي بالنّميمة، وأمّا الآخر فكان لا يستتر من بوله». رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

والمؤمن يخشى أن يكون يوم القيامة مفلساً. قال الله تعالى: **﴿إنّ الذين يحِبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**.

وروي عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغيبة والنميمة يحتّان الإيمان كما يعضد الراعي الشجرة» رواه الأصبهاني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له، ولا متاع، فقال: المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» رواه مسلم وغيره.

ويجب على المؤمن أيضاً أن يُطهرّ لسانه من ألفاظ السخرية، قال الله تعالى: **﴿يأيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً مّنهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لّم يتب فأولئك هم الظّالمون﴾**.

٨ ـ **حفظ الأمانة والوفاء بالوعد**: إنّ نهج الإسلام القويم يُربّي النّفوس على كلّ الخصال النّبيلة، التي تعلي من شأن أصحابها دنيا وآخرة. قال الله تعالى: ﴿**ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال لمن حوله من أمّته: «**اكفلوا لي بستٍ أكفل لكم بالجنة**» قلت: ما هنّ يا رسول الله؟ قال: «الصلاة، والزكاة، والأمانة، والفرج، والبطن، واللسان» رواه الطبراني.

ولا إيمان لمن لم يحفظ الأمانات كلها: أمانة الله (وهي الاستسلام لحاكميته تعالى) وأمانات النّاس المعنوية والمادية، قال الله تعالى: ﴿**إنّا عرضنا الأمانة على السّمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً**﴾.

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلاّ قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له) رواه أحمد وغيره. ويوم القيامة يلقى خائن الأمانة الفزع الكبير والعذاب الأليم، قال الله تعالى: ﴿**وما يضلُّ به إلاّ الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هُمُ الخاسرون**﴾. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (القتل في سبيل الله يُكفِّر الذنوب كلّها إلاّ الأمانة، قال: يؤتى العبد يوم القيامة وإن قُتل في سبيل الله، فيقال: أدّ أمانتك، فيقول: أي ربِّ كيف، وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثّل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتّى يدركها، فيحملها على منكبيه حتّى إذا ظنّ أنّه خارج قلّت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثمّ قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدّدها، وأشدّ ذلك الودائع. قال: يعْني (زاذان): فأتيت البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا، قال: صدق. أما سمعت الله يقول ﴿**إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها**﴾رواه أحمد والبيهقي.

وفي الحديث الآخر، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة يرفع لكلّ غادرٍ لواء، فقيل: هذه غدرة فلان أين فلان». رواه مسلم وغيره.

وإلى جانب هذه القيم الخلقية، هنـاك آداب كثيرة: كآداب الـطعـام، والشراب، واللباس، والنوم، والفطرة. ولم يكن غرضنا استقصاء هذه القيم ولا تلك الآداب، وإنّمـا قصدنا تنبيه الأدباء الغافلين عنها، اللاهثين وراء رذائل الغرب: يحصونها إحصاءً، ويلقّنونها لشبيبتنا تلقيناً كاملاً. ونحن بهذا التنبيه؛ نرجو رجاءً حاراً، أن يتجنّب أدبنا العربي المعاصر السبل الشيطانية، التي اقتبسها من الجاهلية المعاصرة، وأن ينهج نهجاً مستقيماً وحيداً: هو نهج الإسلام الخلقي.

الأدب والمجتمع

إن حديثنا السابق عن النفس البشرية والقيم الخلقية، يفرض علينا أن نحلل المحيط الاجتماعي الكبير الذي يلتقي فيه هذان الجانبان: أي النفس والأخلاق، ويتفاعلان سلباً وإيجاباً، لينشىء هذا التفاعل مختلف العلاقات الاجتماعية التي تتناسب مع نوعيته ودرجته.

وطبيعي أن التزامنا بالنظرة الإسلامية يُجنبنا الزلل والشطط، في إدراك القضايا الاجتماعية وتفهم حقيقتها، ويعيننا على أن نُقارن بين طبيعة كل من المجتمعات الجاهلية، والمجتمع الإسلامي. ونؤكد أن الغزو الثقافي الممثل في الاستغراب الفكري قد هزّ الثقافة والإعلام في عالمنا العربي، وأخص بالذكر الأدب العربي الحديث فالمعاصر. وإذا كان علماء الفيزياء يقولون: إن الحيز الفارغ يطلب ذاتياً الامتلاء، فهذا أيضاً يصح أن نقوله في مجال الفكر والأدب العربيين، بحيث إن معظم المُفكرين والكتاب والنقاد والأدباء عندنا، قد أفرغوا عقولهم وقلوبهم من مقوّمات الإسلام وخصائصه النورانية، ليتشربوا الثقافات الأجنبية، بغية أن يقال عنهم: إنهم تقدميون، لا يمتّون بأي صلة إلى الرجعية.

لهذا لزم أن نضع النقاط على الحروف، في كل مواقفنا الفكرية والأدبية والفنية، لتسلم مسيرتنا المستقبلية من الأخطاء الفادحة والانحرافات الكبيرة، التي أصابت الحياة الفكرية والثقافية لهذه الأمة، منذ أن دخلت مرحلة النهضة العربية المزعومة التي يؤرّخونها بدخول نابليون مصر.

من جملة المواقف الفكرية والأدبية التي تحتاج إلى إعادة نظر جذرية، ما يرتبط عن قرب أو عن بعد بمجال الاجتماعيات كلها وفي الإسلام نصوص قرآنية ونبوية كثيرة، لم تترك من هذا المجال مقفلاً ولا عويصاً إلا بينته وأوضحته.

وفيما يلي إشارات كافية، نعدها توطئة تحث الأديب والناقد على الاستزادة من الثقافة الاجتماعية الإسلامية، شريطة أن يبحثا عنها في الدراسات الهادفة، التي يتصف أصحابها بالكفاءة والنزاهة والإخلاص، على مستوى العالم الإسلامي.

★ ★ ★

إن أول ما نبدأ به حديثنا عن المجتمع الإسلامي المنشود، هو ذكر أهم مقوماته وخصائصه، التي تميزه عن المجتمعات الجاهلية، حتى يعرف جل الكتاب العرب أنهم يخدمون في نتاجهم الفني ـ شعورياً أو لا شعورياً ـ أطماع الجاهلية المعاصرة، وذلك بواسطة نقلهم كل الصفات الاجتماعية الذميمة التي تتميز بها مجتمعاتها، لتجد صداها في العالم العربي.

هذا وإن تحقيق التميز بين المجتمع الإسلامي وغيره يحول دون ذوبان الأجيال المسلمة، في بوتقة المدنيات الأجنبية المنحلة، شيوعية كانت أم ديمقراطية رأسمالية.

ومن المميزات الإسلامية الأساسية ما يلي:

١ ـ التصور العقائدي: حين بزغ فجر الإسلام انحسرت خرافات الجاهلية العربية، وتصوراتها الأسطورية الباطلة، أمام أنوار العقيدة الإسلامية فتغيرت العقليات، وسقطت العادات الفاسدة، وتلاشت التّقاليد الوثنية، والتفسيرات البشرية القاصرة.

ومعلوم أن التصور الإسلامي يتحدى مختلف الارتباطات التي تشد الإنسان إلى هذا الطاغوت أو ذاك لتجعله عبداً له. والتحدي يتجلى في تخليص فكره ومشاعره من كل العبوديات الأرضية والتبعيات الوصفية، ليرتبط فقط بخالقه الذي فطره على أحسن خلقة وشمله بعنايته، منذ أن كان جنيناً في بطن أمه، إلى أن يدخل اللحد ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرّشد من الغيّ فمن يكفر بالطّغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ البقرة الآية ٢٥٦.

فالعقيدة الإسلامية تكسب الإنسان تصوراً صحيحاً، تجعله يثور ثورة عارمة لا هوادة فيها، على كل أنواع الطواغيت الأرضية، لأن الفكر الطاغوتي يكبّل أنصاره بقيود الطين والمادة، فلا استعلاء ولا ارتفاع همم، ولا سمو أرواح، ولا صفاء نفوس، فحالتهم إذن لا تتجاوز الجري وراء الشهوات الدنيئة، وسفاسف الدنيا، يطوفون حول أوثان الدنيا، والمرأة والخمرة والمنصب والقصور وهلم جرّاً.

إن المسلم في موازين التصور الإسلامي ينبغي أن يعلو على هذا الهراء والحطام، يعترف فقط بالله تعالى: خالقاً، ومعبوداً، وحاكماً، يستمد منه الإرشاد والتوجيه، والأمر والنهي، حتى يقيم حياته على أسس صلبة، لا تهزها زلازل الجاهلية، ولا أمواج الطاغوت.

وقد أوضح سيد قطب الشهيد ـ في درب المعركة مع الجاهلية ـ أن في التشهد الأول (لا إله إلا الله) ثلاثة مبادىء أساسية، تقوم عليها العقيدة الإسلامية كلها، ألا وهي:

أ ـ الألوهية: الله تعالى هو الإله الذي خلق هذا الكون، بما فيه ومن فيه: أبدع السموات والأرض، وجعل في منخفضات كوكبنا البحار والمحيطات، وجعل على اليابسة الجبال الراسيات الشامخات، وفرّق الكائنات من طيور وحيوانات، على مختلف أرْجاء المعمورة، في تناسب دقيق وعجيب، تكلّ العقول دون الإحاطة بأسراره، وتعجز أقلام عباقرة العلم، عن أن تحصي وتسجل حتى الجزء اليسير من علم التناسبات والموافقات الكونية: صغيرها وكبيرها ﴿**وخلق كل شيء فقدّره تقديراً**﴾ (سورة الفرقان: الآية ٢) (طالع تفسير هذه الآية الكريمة (في ظلال القرآن) لسيد قطب تجد العجب العجاب، كما تجد اعترافات علماء اقتبس بعض أقوالهم في شكل مبحث هام).

إن أمر الله تعالى في هذا الخلق الضخم الدقيق، بين الكاف والنون ﴿**إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ (يس: الآية ٨٢).

وعلة خلق هذه العجائب التي لا تحصى ولا تعد تكمن في ضرورة تدبر

الإنسان فيها، ليزداد إيماناً وتقوى، وارتباطاً وتقرباً إلى خالقه عز وجل **﴿سنريهم آيٰتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنّه على كل شيء شهيد﴾**.

وتعجبني عبارة بعض الحكماء عن القرآن والكون، إذ يقولون: «الكون هو القرآن المفتوح، والقرآن هو الكون المقروء»، وفحواها أن مدارسة كتاب الله، وتفقه معانيه، والاستزادة من أسراره، تفتح أمامك أبواب الكون، فتجول في أبعاده السحيقة بعقلك ومشاعرك الإيمانية، لترجع بعد ذلك إلى ذاتك، وأنت تقول: سبحان من أتقن صنع السموات والأرض وما فيها ومن فيها **﴿ومن آيٰته خلق السّموٰات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾** (الروم: الآية ٢٢).

وهكذا فالمسلم لا يعترف بغير الله تعالى خالقاً ومدبّراً، والدراسات العلمية الإسلامية حول هذا الموضوع كثيرة، منها (الله يتجلى في عصر العلم: تأليف مجموعة من علماء أجانب).(كبرى اليقينيات الكونية: محمد سعيد رمضان البوطي) (الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي) (قصة الإيمان: نديم الجسر) (الله: سعيد حوى).

ب ـ الوحدانية: قال تعالى:

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ (الأعراف: ٥٩).

﴿وإلىٰ عاد أخاهم هوداً. قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره أفلا تتقون﴾ (الأعراف: ٦٥).

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً. قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم...﴾. (الأعراف: ٧٣).

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً. قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم...﴾. (الأعراف: ٨٥).

﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً، فقال لأهله: امكثوا إني آنسْت ناراً، لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاها نودي: يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ (طه: ٩ ـ ١٤).

﴿وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم. أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله؟ قال: سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به. أن اعبدوا الله ربي وربكم. وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة: ١١٥ ـ ١١٨).

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول، إلا نوحي إليه: أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء: ٢٥).

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين. وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تَمُوتنّ إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت. إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعْبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ـ إلٰهاً واحداً ـ ونحن له مسلمون﴾. (البقرة: ١٢٩ ـ ١٣٢).

فالله تعالى هو الواحد الأحد، الأول والآخر، الظاهر والباطن، الرحمن الرحيم، لا شريك له في الملك، فهو سبحانه وتعالى مستغن عن غيره في تدبير ملكوت السمٰوات والأرض ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذُل وكبره تكبيراً﴾ (الإسراء: ١١١).

والسبب في استحالة وجود شريك ـ تعالى الله عن ذلك الشرك علواً كبيراً ـ

هو ضمان النظام الكوني وبقاؤه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحنٰ الله رب العرش عما يصفون﴾** (الأنبياء ٢٢).

وعلى هذا الأساس، اعتبر الإسلام الشرك جرماً عظيماً في حق الله تعالى، وهو رأس الكبائر كلها، فلا يغفر للمشرك إلا إذا تاب توبة نصوحاً **﴿إن الله لا يغفر أن يشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء ومن يشرك بالله فقد افترىٰ إثماً عظيماً﴾** (النساء: ٤٨).

روى مسلم عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه».

وروى أحمد عن رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال، قالوا بلى يا رسول الله، قال الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل». روى أبوداود عن أبي أسامة قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال: لا شيء له فأعاده ثلاث مرات يقول: لا شيء له ثم قال: إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه».

وروى النسائي عن عبادة عن رسول الله ﷺ قوله: «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى».

وروى مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك بما أنزلت على رسولي؟ فقال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت بما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال، فلان قارىء وقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعْك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم

وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك. ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

جـ ـ الحاكمية: وهي الصفة الأساسية الثالثة: التي يجب على المسلم أن يكون قوي الإيمان بها، ومعناها: ألا حكم، ولا سلطان، ولا تشريع، إلا حكم الله تعالى وسلطانه وتشريعه، بحيث لا تستمد قوانين تنظيم الحياة من غير الشريعة الإسلامية الغراء، لأنها تحمل في طياتها اليقين كل اليقين.

فالمجتمع الذي يؤمن أفراده وموجهوه بالله رباً لا حاكماً هو مجتمع مشرك، يؤمن ببعض الإسلام ويكفر بالآخر، معتبراً إياه قد ناسب عصر الرسول ﷺ فقط، أما هذا العصر فله شؤون أخرى، ومشاكل أشد تعقيداً، وظروف خاصة به. ولهذا نرى رجال القانون في الأمة العربية يأخذون كل ما هب ودب من تشريعات الجاهلية المعاصرة، وأحكامها الوضعية الواهية، ضاربين بالتشريع الإلهي السماوي عرض الحائط **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عمّا يعملون﴾**.

بناء على هذا، يعد من احتكم إلى غير الله فاسقاً وكافراً، قال تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** (المائدة: ٤٤)، وقال: **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾** (النساء: ٢٠ ـ ٢١)، وقال تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا**

تسليما﴾ (النساء: ٦٥). وقال: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ (المائدة: ٤٩).

وقد وصف الله المنافقين بقوله:

﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعْنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون﴾ (النور: ٤٧ ـ ٥٢).

ومن استهزأ بحكم من أحكام الإسلام، فهو منافق خالص النفاق، قال تعالى: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ (التوبة: ٦٥). وقال تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن يُعف عن طائفة منكم نُعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ (التوبة: ٦٤ ـ ٦٦) وقال تعالى: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ (الأنعام: ١٦٥).

فهذه هي ـ إذن ـ المبادىء الأساسية الثلاثة لقول (لا إله إلا الله)، وبها يمكن أن ندرك إدراكاً كلياً إجمالياً خاصية التصور العقائدي، التي تميز المجتمع الإسلامي عن غيره من سائر المجتمعات الأرضية.

٢ ـ المعاملات الاجتماعية: وهي مختلف التبادلات ذات الطابع الاجتماعي، والتي تجلي حركية الأفراد وأعمالهم فيما بينهم، وقد يكون بعضها إيجابياً مفيداً، جالباً الخير الكثير للناس، لكن معظمها سلبي، وذلك لا نراه إلا في المجتمعات الجاهلية.

أما في المجتمع الإسلامي فالأمر يختلف، بحيث يتوخى من المعاملات بين الأفراد طاعة الله تعالى أولاً، وتحقيق الخير العميم على المستوى العام ثانياً. والجانب الثاني مرتبط بالأول ارتباطاً مرجعياً، أي أنه يستمد منه التعاليم والتوجيهات والإيحاءات المختلفة.

وقد حرص الإسلام أشد الحرص على توضيح قضيّتين رئيسيتين لهما ارتباط وثيق بمسألة العلاقات الاجتماعية، وهما:

أ ـ نوعية العلاقات الاجتماعية ذات طابع إسلامي خالص، بحيث لا يسمح بتاتاً بإنشاء أي علاقة، تستمد أصولها أو شعاراتها أو خصائصها من الفكر الجاهلي، والمجتمع الجاهلي، والنظم الجاهلية.

ب ـ تحديد هذه العلاقات الاجتماعية في إطار الإصلاح والتهذيب والتطوير الحقيقي، وهذا التحديد ـ بطبيعة الحال ـ خاضع لنظام الإسلام وروح الشريعة السمحة.

ولا يفهم من تحديد العلاقات، وتقييد نوعيتها، معنى الجمود والانغلاق والتقوقع، وإنما المراد هو مجرد التوجيه الحسن، لكيلا تختلط الأمور أو تضطرب الأحوال الاجتماعية، كما هو سائد في كل مجتمع جاهلي. إلى جانب هذا، فقد سمح الإسلام لكل فرد عاقل، أن يقتبس، ويطور، ويتفتح، في الأطر الإسلامية، تبعاً لملابسات العصر والظروف المستجدة، إذ لا يمكن بتاتاً ـ وهذا من قبيل المستحيل ـ أن تكون كل النماذج الاجتماعية الإسلامية في كل زمان ومكان، نسخاً مكرّرة مطابقة للأصل القديم.

وقد سئل الأستاذ مالك بن نبي عقب إحدى محاضراته السؤال التالي: كيف نستطيع أن نعيد مجدنا وحضارتنا من جديد؟ فقال للسائل: لا يطرح السؤال هكذا، إنما الصيغة الصحيحة هي: كيف نتمكن من بناء حضارة عصرية ومجتمع سليم، استناداً إلى المقومات الحضارية الإسلامية التي قام عليها مجتمع الرسول ﷺ؟

إذن لا بد أن نعرف المقومات الاجتماعية الثابتة التي حدّدها الإسلام،

لنجعلها مقاييس أساسية لإنشاء كل علاقة يحتاج إليها الناس.

٣ ـ **الروح الاجتماعية**: إن موضوع العلاقات الاجتماعية لا تستقيم حالها، ولا يصلح أمرها، إذا كانت إطاراً فارغاً، خلواً من الروح الاجتماعية التي يغرسها الدين الإسلامي في نفوس الأفراد. وبعبارة أخرى، إن قضية العلاقات مظاهر خارجية في الميدان الاجتماعي، لا بد أن تنبعث من بواطن الأفراد الصافية.

ولهذا لا يجوز أن نقلل من شأن الروح الاجتماعية، لأنها منبع كل حركة اجتماعية، وكل نشاط اجتماعي، وكل خدمة اجتماعية. ولو تأملنا ملياً المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية، وهي الفترة المكية، لوجدنا العناية الروحية والقلبية في المرتبة الأولى، لأن القلب يحفظ الأصول الباطنية للعلاقات الاجتماعية، ويديم حركتيها، وينشط فعالياتها المختلفة.

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نصوص عدة، تحث المسلمين على أن يؤمنوا بصلاحية كل علاقة اجتماعية إسلامية، ويعملوا على نشرها، وبث معانيها وأسرارها في كل النفوس، لضمان بقائها واستمراريتها ودوامها في المجتمع الإسلامي من جهة، ولدعوة غير المسلمين إليها، عسى أن تجد فيهم آذاناً صاغية، وقلوباً متفتحة، وعقولاً محبة للحقيقة من جهة أخرى.

فإذا كانت المجتمعات الجاهلية تعنى عناية كبرى بالعلاقات الاجتماعية التي هي مجرد مظاهر لا غير، فإن الإسلام يعطي الأولوية للروح التي تحملها ذوات الأفراد، لأنها ـ كما قلنا ـ مصدر كل نشاط اجتماعي، وكل حركية اجتماعية.

هذا، وإن العلاقات الاجتماعية قد يختلف بعضها من الناحية الشكلية، لأن الروح الاجتماعية هي هي، لا تقبل تطوراً ولا تغييراً، لأن طبيعتها كلها إسلامية.

٤ ـ **الثبات أو الأصالة**: من خصائص المجتمع الإسلامي ومميزاته ثبات أصوله، وأصالة أسسه التي ينبني عليها، وفي هذا يشترك الإنسان مع الكون اشتراكاً تاماً، فكما أن للشموس والكواكب نواميس، دقيقة تخضع لها، وكما أن للمجموعات

الشمسية والمجرات الكونية مسارات معلومة وحركة دائبة محسوبة أزلاً فكذلك الشأن بالنسبة للإنسان: ذلك الكائن المتناهي في الصغر، أمام ضخامة هذا الكون الكبير، وسعة هذا العالم الذي لا يعلم حدوده إلا بارئه عز وجل.

فكيف يسمح الإنْسان لنفسه أن يخالف طبيعة النظام الكوني؟ وهل الاتصاف بالعلمية يعني مخالفة قوانين النظام العام، أم السير وفقها، لتحقيق غايات الوجود الإنساني؟

إن هذين السؤالين يوحيان بالإجابة الواضحة، الناصعة، ألا وهي ضرورة خضوع الإنسان لنظام دقيق، كي تستقيم حياته، وتنتظم أحواله كلها، ويحقق بالتالي غرض وجوده، ويعرف كنه كينونته في هذا العالم، ثم إن نقيض النظام الذي هو الفوضى يعرض الوجود الإنساني للانهيار والضياع والإفلاس.

من هذا المنطلق العلمي الصحيح، نلفي الإسلام حريصاً كل الحرص على إقامة حياة معتنقيه، على أسس نظامية متينة، لا تعرف تبدّلاً، ولا تسمح بأيّ تغيير، ولو كان ضَئيلاً يسيراً، فدرجة الثبات هنا مطلقة، وإن كان هذا يتصف بالصرامة، فإن الغاية تتمثل في المحافظة على جوهر حياة الإنسان، وعلاقته بخالقه عزّ وجلّ.

ومن ثم تتوحد الوجهتان: وجهة الإنسان، ووجهة الكون، وتنصهران في بوتقة واحدة، هي طاعة الله سبحانه، والخضوع لأمره والسير وفق القوانين الربانية، والنواميس الإلهية الضابطة.

نستخلص من هذا، أن المجتمع الإسلامي ـ وهو يراعي هذا الأصل الأصيل، وهذا الركن الركين ـ يحافظ على شخصيته ومقوماته الأساسية ومسيرته الصحيحة. بينما تضيع المجتمعات الجاهلية في أجواء الفوضى، ودوامة الصراعات والتناقضات، ومعترك التغييرات الحيوانية، التي لا يقصد منها إلا إفساد الحياة، من أجل إشباع بِضْعِ شهوات إشباعاً فوضوياً.

٥ ـ التطور أو التفتح: هذه الخاصية الخامسة من خصائص المجتمع الإسلامي،

تابعة للسابقة وخادمة لها، وخاضعة لمعاييرها: فلا تطور بدون أصول، ولا تغير بدون أسس تحفظه من كل زيغ وانحراف ونأي عن جادة الصواب.

وقد يبدو لسطحيي التفكير وجود تناقض بين الثبات والتطور، أو الأصالة والتفتح، لكن حقيقة الأمر غير ذلك، ويمكن توضيحها في النقطتين التاليتين:

أ ـ إن الفرق بين الجانبين شكلي، ذو طابع لغوي لا يتجاوز هذا الحد.

ب ـ يُرادُ بالثابت ما أقره القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وإجماع العلماء، بينما يتمثل المتغير في جزئيات وقضايا تفصيلية معاشية، تختلف وظروف الحياة التي تتباين من عصر لآخر.

وقد يذهب من يدّعي لنفسه التقدمية مذهباً غريباً، هو أقرب إلى الضلال والزيغ منه إلى المنطق السليم والفكر العلمي: وذلك حينما يزعم أن الإسلام يحاول إخضاع العقل لنصوص جامدة، ولا يسمح له بالبحث والتنقيب عن الحقائق، وتطوير العلوم تطويراً صحيحاً.

إن هذا الزعم يتنافى وطبيعة الإسلام التي لا تسمح بالبحث والدراسة والاستكشاف فقط، بل تحث العقل البشري على ذلك حثًا كبيراً يقول الله تعالى: **﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾** (الإسراء: ٣٦).

وإن الإسلام إذا دفع العقل إلى الأمام، فإنه لا يتركه تائهاً في مفاوز الجاهلية، يخْبط خبط عشواء، وإنما يضعُه في مساره العلمي الصحيح، لينتج ويبدع إبداعاً مفيداً، يعود بالخير العميم على الإنسانية كلها. فالعقل في الإسلام علمي، لا يتعدى حدوده، محاولاً أن يتحدى نصوص القرآن والسنة، إن مجاله هو المحسوس الذي يدرك بالحواس وبمساعدات الحواس العلمية: من أجهزة دقيقة، ومجاهر الكترونية، وهلم جراً. وذكرنا غيرما مرة أن البحوث العلمية تعدّ أبواباً، تنفتح للإيمان ومعرفة حقيقة الوجود والتأمل في بعض مظاهر قدرة الله تعالى.

وهكذا فالمجتمع الإسلامي ثابتُ الأصول، متطور الفروع، كالشجرة الباسقة

التي لا تتنكر لأرضها، ولكنها في نفس الوقت تستفيد من الهواء المتجدد، وأشعة الشمس المتتابعة على توالي الأيام ومر الشهور.

٦ ـ الإيجابية العالمية: إن المجتمع الإسلامي ليسَ متقوقعاً جامداً، منغلقاً على نفسه وشخصيته وحضارته، لأنه ما عرف هذا في نشأته الأولى، ولا في النصوص اليقينية التي يعتمد عليها في عملياته البنائية.

وإن خاصية التطور والتفتح متلاحمة مع هذه الخاصية: الإيجابية العالمية ومرادنا من معنى التلاحم هو أن المجتمع الإسلامي يعطي لغيره كما يأخذ منه، ولهذا فخاصيّة التطور أو التفتح تعني أخذ ما هو حسن، يخدم المقاصد الإسلامية العامة، أما خاصية الإيجابية العالمية فهي تقابل العطاء الحضاري بكافة مجالاته وفروعه، والتاريخ شاهد على ذلك.

ويمكن أن نقول باختصار: إن إيجابية المجتمع الإسلامي تتلخّص في عملية الدعوة الإسلامية التي يكلف بها كل مسلم، قادر قدرة علمية على التبليغ، وتوصيل رسالة السماء، إلى أقصى أصقاع العالم، بغية توسيع رقعة الإسلام وإعادة الخلافة الإسلامية من جديد، لأن في هذا قوة المسلمين قاطبة، يقول الله تعالى: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾ (المنافقون: ٨).

وإن رسول الله ﷺ بين أصول الدعوة كما وردت في القرآن الكريم، فشرحها في أحاديثه الشريفة، وقام بها خير قيام، وطبقها أحسن تطبيق، لتكون نموذجاً عملياً صالحاً لصحابته الكرام، وقد حدث فعلاً التأسي بسيرته العطرة في هذا المضمار، فكانت النتيجة الطيبة أن قام المجتمع الإسلامي الراشد الذي صار نواة قوية لحركة إسلامية عالمية، عمّت أنوارها عدداً لا يحصى ولا يعد من المجتمعات الجاهلية آنذاك وقد دخلت هذه الأخيرة في كنف الإسلام، لما وَجدتْهُ فيه من رحمة وتسامح ومحبة وعدالة وإخلاص.

هذه هي ـ إذن ـ خاصية الدعوة التي يجب أن يتميز بها المجتمع الإسلامي، لتظهر إيجابيته العالمية، وفعاليته الحضارية المرتقبة.

٧ ـ **مواجهة المجتمع الجاهلي**: إن الدعوة الإسلامية تتطلب من المجتمع الإسلامي أن يواجه كل التحديات التي تقوم بها المجتمعات الجاهلية المعاصرة، لأن الصراع العالمي صراع من أجل البقاء والسيطرة ودحر كل نقيض لكونه يقوم بعمليات العرقلة.

ففي هذا الجو المكهرب، يتحتم على قادة الفكر الإسلامي، وذوي الأقلام الملتزمة، أن ينتبهوا إلى متطلبات المرحلة الراهنة، ليحددوا الأعمال والواجبات الضرُورية التي من شأنها إيقاف الغزو الجاهلي، بل تحدي كل قواه المختلفة وملاحقتها حتى عقر ديارها. ومن جملة المطالب التي يجدر بالأديب أن يضمنها انتاجه الفني شيئان متلازمان ومتكاملان في آن واحد، هما:

أ ـ الاتصال الاجتماعي الخارجي: أي الاحتكاك بكافة المجتمعات وأمم العالم في كل بقعة من بقاعه، ودراسة أحواله وإحصاء مشاكله، وتقديم الحلول الناجعة على ضوء الإسلام، وفي أسلوب علمي عصري، ليكون همزة وصل بيننا وبين غيرنا.

والاتصال ضروري لنا، لسببين: الاستفادة أولاً من المبتكرات التي حققتها أمم العالم الصناعية، لتستحيل قوة منيعة لصالحنا.

وثانياً إفادة غيرنا بما نملكه من أسس الإسلام الحضارية، التي تتفرد دون غيرها بالصلاحية. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ أبوالأعلى المودودي ما معناه: إذا كان الغرْبيون أساتذة لنا في علوم المادة فإننا نحن أساتذتهم في علوم الروح والإنسانية والأخلاق.

ب ـ العزلة الشعورية: إن المجتمع الإسلامي لا بد أن يتميز أفراده ـ وهم قائمون بالدعوة إلى الله ـ بمناعة قوية، تحول دون ذوبانهم في مجتمعات العصر، ثم إن هذه المناعة يجب أن تفوق قوتها كل قوى الجاهلية وتحدياتها، ولن يظهر هذا وجوداً، ولن يتحقق في واقع الحياة، إلا إذا تلاحمت الأرواح مع تعاليم الإسلام، وتمثلت القلوبُ التوجيهات التربوية الربّانية جميعها.

إن حديثنا السابق عن أهم المقومات الكبرى التي لا يتصور قيام مجتمع إسلامي بدونها، ينجم عنه سؤال أساسي هو: ما الأهداف التي يتوخاها الإسلام، ويسعى حثيثاً نحو تحقيقها، من خلال إقامته المجتمع الإسلامي؟ أو ما المقاصد التي يصبو إليها المسلم من خلال حياته الاجتماعية؟

في الإسلام أهداف ومقاصد اجتماعية، يجب على الأديب أن يعرفها إجمالاً وتفصيلاً، كي يحققها ويجليها في عالم الأدب والفن، وأهمها ما يلي:

١ ـ **حفظ الدين**: من واجبات المجتمع الإسلامي حماية الدين من كل دجل، ومحاربة البدع والخرافات التي من شأنها أن تفسد العقول، وتشوّه العقيدة الإسلامية، وما أكثرها في العالم العربي، حيث الجهل، وغياب الدين وعلمائه، وانصراف الأدب إلى أغراض بذيئة وموضوعات سخيفة، همها إفساد الأخلاق، وتحطيم الضمائر، ونشر الرذيلة في كل مكان.

إن المجتمع الإسلامي يحمل على عاتقه حفظ تعاليم الدين الحنيف، كما هو مكلف بنشرها في أوساط الشبيبة الناهضة، ليكسبها حصانة روحية، تحميها من أفانين الضلال والانحراف والخروج عن جادة الصواب.

وإذا كانت غاية المجتمع الإسلامي هي إقامة ركائز الدين في كل زاوية من زواياه، وفي كل موطن من مواطنه. فإن هذا لا يدل إلا على خدمة الإنسان من الوجهة العقائدية المعنوية، لأن الإنسان هذا كائن مفطور على التدين، والتوجه نحو الخالق عز وجل، من خلال التدبر في مخلوقاته. ولهذا حرص الإسلام أشد الحرص على تلبية هذه الحاجة الباطنية، وإشباع هذا الدافع الروحي النبيل.

بينما نجد المذاهب الجاهلية تتنكر لهذا المبدأ وهي تختلف فيما بينها في هذا التنكر: فالشيوعية تذهب إلى أقصى حد في محاربتها إياه محاربة لا هوادة فيها، فهي تعتبر الدين خرافة قديمة، يجب استئصالها. لهذا فقد سنت قوانين وأحكاماً صارمة في هذا الشأن، لتقويض كل ما يمت بصلة إلى الدين، والتاريخ المعاصر خير شاهد على ما نقول، ويكفينا دليلاً إبادة الملايين من المسلمين في

روسيا، من أجل إقامة الدولة الشيوعية السوفياتية.

أما النظم الرأسمالية، فهي تعطي الحرية لكل الأديان، فمن أراد اعتناق إحداها فهو حر، ومن أراد الإلحاد فهو حر أيضاً، فلا إكراه، ولا إجبار ولا فرض. وقد يخيل لغيرالعقلاء أن هذه الحالة طبيعية، يجب أن تكون البديل الحقيقي الصالح، مكان الشيوعية الظالمة التي تحاول فرض تعاليمها فرضاً، بعد عملية غسل الأدمغة من أي فكرة دينية: طوعاً أو كرهاً.

لكن النظرة العميقة توصلنا إلى الحقيقة التالية: إن النظم الرأسمالية، بهذه الحيلة الماكرة، تحاول أن تقنع الناس بصلاحيتها، مدّعية أنها تحمي حرية الإنسان وشخصيته واختياراته، لكن حقيقة الأمر هي أنها لا تبالي باتساع رقعة الأديان أو انحسارها، بل هي تحاربها بطرق غير مباشرة كثيرة، منها: الإباحية، الأفلام الجنسية، القصص الغرامية، فلسفات الإلحاد، معارض العري، وهلم جراً.

ففي هذه الأمم الجاهلية: الشيوعية منها والرأسمالية، لا يجد الإنسان مجالاً صالحاً، وميداناً صحيحاً، يحقق فيه دافع تدينه، ويشبعه إشباعاً حقيقياً، اللهم إلا المجتمع الإسلامي المنشود الذي يحذو حذو مجتمع الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ففيه يستقر ضمير الإنسان، ويهنأ باله، وتجول روحه في رحاب الإيمان والتقوى والإخلاص.

٢ ـ **حفظ النسل**: هذا الميدان هام جداً في مجال الإنسانيات، لهذا نجد ألاعيب الماسونية والشيوعية تلقى في إطارها رواجاً كبيراً، وآذانا صاغية، ونفوساً راضية، وسلطات مستعدة لتطبيقها وتنفيذها خير تنفيذ.

وقد وقف الإسلام لمثل هذه المخططات، متحدياً إياها، مبرزاً نتائجها الوخيمة التي ينتظرها أعداء الإنسانية بلهف وشغف، ويعملون بكل جهودهم على إيجادها والوصول إليها. ويتجلى تحدي الإسلام لذلك كله، ببناء اجتماعي متين، قائم عل تشجيع النسل، والعناية بتربية الأولاد، وإعداد أجيال قوية، بدل هذه

الأجيال العربية الهزيلة المائعة الضائعة في دوامة الغرائز والشهوات.

وإن المبدأ الإسلامي في مسألة حفظ النسل له أبعاد حضارية عديدة، منها:

أ ـ إيجاد قوة بشرية كبيرة تكون مهمتها البناء الاجتماعي في كافة مجالاته: العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، فما أحوجنا إلى علماء اقتصاد وتكنولوجيا واختصاصيين في الكيمياء والفيزياء وكافة علوم العصر.

ب ـ إيجاد قوة بشرية كبيرة، تمثل اليد العاملة التي تنفّذ المخططات الاقتصادية خير تنفيذ، جاعلة رقيبها الأكبر الله سبحانه وتعالى.

جـ ـ تكوين جيوش قوية، تحمل أعباء كثيرة، ومسؤوليات عسكرية ذات طابع حضاري، منها: حماية حدود الوطن الإسلامي الكبير المرتقب، الدفاع عنه في حالة هجوم يشنه عدوّ ما، استرجاع فلسطين والأراضي المغتصبة، حماية الدعوة الإسلامية والأقليات الإسلامية المظلومة في كل موطن.

هذه الحاجيات الاجتماعية الثلاث وغيرها تلقى من الإسلام عناية فائقة، لا مثيل لها في الإيديولوجيات الأرضية، والمذاهب الجاهلية الهدامة. والأدهى والأمر أن النسل في النظم البشرية قد تضعضع أمره، وساءت أحواله، وانتقلت المشكلة هذه إلى العالم العربي، كالسرطان الذي يسري خطره في أعضاء الجسم، وقد كان هذا بفعل التقليد الأعمى، والتبعية الخطيرة.

ولا بأس، أن نذكر بعض النتائج الوخيمة التي عمت بلواها في هذا العصر بخاصة، من جراء محاربة عادة زيادة النسل، وتفشي عوامل إفنائه، وعلل ضعفه المستمر، وهي كالتّالي:

أ ـ انتشار الأمراض الجنسية بين الزناة والزانيات، وارتفاع نسبها يوماً بعد آخر، حتى إن وسائل الطب المعاصر لم تُجدِ نفعاً في الحد منها، فضلاً عن القضاء عليها. وهذا يهدد النسبة الكبرى من الشباب الطائش، الذين عقدت عليهم آمال عظام، وأمنيات كبيرة، وأهداف حضارية شتى. فالأمة التي تكون هذه أحوالها، ويكون هكذا شبابها، لهي أمة ضائعة سريعة الانهزام، فالذبول فالزوال.

ب ـ تفضيل الـزنـا على الزواج: تفشت هذه الفكرة بين شباب العالم كله، ولا أستثني منه الشباب العربي، لكونه تعلم تَعَلُّماً مادياً غَرْبياً، وإن هو عرف الإسلام، فإنـه لم يعرف عنه إلا صوراً مشوهة، ألصقت به لغاية دنيئة، هي إخفاء أنواره، والقضاء على سراجه المنير.

على كل، فاليهـودية العـالمية ـ بكل ما تملكه من وسائل الإعلام وأساليب الدعاية الجاهلية ـ نجحت أيّما نجاح في إقناع الشباب المنحلّ بأنّ الزنى أفضل من الزواج، من حيث إنه لا يحمّل الشخص مسؤولية ما، كما هو الحال بالنسبة للزواج الذي يتطلب من الزوجين بذل مجهودات مستمرة: مادية ومعنوية.

وشكلت النفسيات وفق هذا الاتجاه، واصطبغت بصبغته، فأضحى الناس لا يفكرون في الزواج إلا النزر القليل منهم، بل إن هذا النزر لا يفكر معظمه فيه حتى يمضي شبابه كله في العلاقات الجنسية المحرمة، وهكذا، فالمجتمع الذي يشجع هذه الحالة، أو يغض الطرف عنها، فإن مصيره جلي، وهو قلة عدد أفراده، وتناقص عدد المواليد، بالنسبة للوفيات، تناقصاً فاحشاً.

وهـذه هي علة ذهـاب معظم الدول المصنعة إلى تشجيع النسل بمختلف الأساليب الممكنة، مخافة اضمحلالها الكمي أمام غيرها.

لكن المـلاحـظة الأساسية فيما تفعله هذه الأمم، لتشجيع النسل، هي أن التـدابير المختلفـة التي اتخذتها، ليست ذات أصول حضارية، وأسس صلبة، لكونها عبارة عن تشجيعات مادية لا غير، وهذا لا يكفي ليكون حافزاً قوياً، يدفع الإنسان المادي الذي يفضّل حريته واستقلاليته على الارتباطات الأسروية.

إن الإسلام هو الصّراط السويّ، الذي يضمن للمجتمع قوة في نسله وزيادة في عدد أفراده، وتحسناً كيفياً في قدراته البشرية.

جـ ـ تفشي الشذوذ الجنسي في كل من الجنسين: جنس الرجال على حدة (عمل قوم لوط) وجنس النساء (السحاق). والأعجب والأغرب أن العديد منهم يتبجحون

بما يفعلون، وينشرونه في مجلات وجرائد وأفلام كأنه تحرر، وكشف علمي وتقدم حضاري، وتطالعنا الأخبار من حين لآخر، بأن الشاذين والشاذات جنسياً يطالبون حكوماتهم، بالسماح لهم بإنشاء أحزاب سياسية، على غرار الأحزاب الأخرى. وهذا والله انحطاط ما وراءه انحطاط! هذا ولم ينج الشذوذ الجنسي من الأمراض الفتاكة التي استعصت على الأطباء، فحاروا فيه حيرة كبيرة. وقد نشرت جريدة لوموند الفرنسية نبأ مفاده: أن مظاهرة قام بها اللواطيون الأمريكان في مدينة نيويورك، يطالبون حكومتهم بتخصيص ميزانية، لإنقاذهم من أخطر مرض ناجم عن اللواط، وهو (السيدا)، لكن أن يتجنبوا اللواط فلا.

د ـ الإجهاض: تفضل الفتيات المسميات بـ «التقدميات» عملية الإجهاض على الحمل وإنجاب الأولاد، لما يترتب عن هذا من مسؤوليات، تحول دون حريتها الجنسية والإباحية المتاحة للجميع. والإجهاض هو إسقاط الجنين في أشهره الأولى، وقد استغل الطب الحديث أبشع استغلال، في تقديم المساعدات الجمة للزانيات اللواتي يشعرن بالحمل، وهذا مؤشر خطير من مؤشرات انهيار الحضارة والقيم الإنسانية.

هـ ـ استعمال حبوب منع الحمل: تستعمل الزانيات والمتزوجات أيضاً حُبوباً طبية، تقضي على البويضة، وتعرقل وظائف المبيضين في الجهاز التناسلي للمرأة، وذلك من أجل تحديد النسل، ومنع إنجاب الأولاد، وانتشرت هذه الحبوب، وكثرت أنواعها، إلى درجة أن معظم الفتيات يتعاطينها، ويحملنها في حقائبهن ومحافظهن كي يبقين زانيات، يباشرن العمليات الجنسية بارتياح تام وحرية مطلقة!!.

و ـ كثرة الأولاد غير الشرعيين: وهذه بلية اجتماعية كبرى، تهدد أمن كثير من دول العالم، وقد أثبتت الإحصائيات والوثائق أن عدد أولاد الزنى في تزايد مستمر. والأخطر هو أن معظم الأفراد المكونين لعصابات الإجرام هم أولئك الذين لا يعرفون آباءهم وأمهاتهم. فالإجرام إذن عملية انتقامية موجهة ضد المجتمع الجاهلي، الذي يرونه مسؤولاً مسؤولية كبيرة عن حالتهم الاجتماعية، لكونه سمح

بل شجع على أن يظهروا إلى الوجود بدون أصول أسروية.

ي ـ ظهور قيم ومعايير تتناسب والنتائج سالفة الذكر، لتكون أصولاً للإباحية العمياء، والحيوانية الجامحة، فتصير بالتالي فلسفة يستهلكها الشباب، ويقنعون بها ضمائرهم ونفوسهم، إذا هي أبدت في يوم مَا نقداً أو أظهرت لوماً.

ومن الكتب الإسلامية الهادفة التي تخصصت في هذا المجال، وتابعت الموضوع متابعة علمية تفصيلية، كتاب لأبي الأعلى المودودي، عنوانه «حركة تحديد النسل»، وهو كتاب قيم لما يتضمنه من إحصائيات ووثائق وتغطية علمية شاملة ودقيقة للظواهر الخطيرة سالفة الذكر.

٣ ـ حفظ النفس: إذا كانت الجاهلية المعاصرة تهدر حقوق الإنسان، ولا تبالي بحق حياته، فإن الإسلام قد حافظ عليه وعلى حقوقه، منذ أربعة عشر قرناً، مقدماً نموذجاً مثالياً فريداً من نوعه لم يخطر، ولن يخطر مثله ببال عقول الفلاسفة والمفكرين إلى يوم الدين.

وأمامنا بعض الأمثلة المعاصرة التي تنبئنا عن ضياع حق النفس والحياة:

أ ـ النتائج الخطيرة التي نجمت عن الحربين العالميتين، وهي إبادة عشرات الملايين من البشر من مختلف بقاع الأرض.

ب ـ **أثر القنبلتين النوويتين اللتين ألقيتا على مدينتين يابانيتين هما: هيروشيما وناغازاكي، وما زالت تأثيراتهما باقية، يتوارثها جيل عن جيل.**

جـ ـ **المذابح الجماعية الرهيبة التي ارتكبتها الثورات الشيوعية، ابتداء من روسيا إلى أوروبا الشرقية، وقد أباد الشيوعيون عشرات الملايين، ليقيموا علمهم مرفرفاً على جبل من الجماجم البشرية. والمسلمون بطبيعة الحال على رأس القائمة السوداء، لأنهم يمثلون النقيض الحقيقي للشيوعية الحمراء الظالمة.**

د ـ **المذابح الجماعية في المستعمرات التي ارتكبها الاستعماريون، مجربين مختلف الأسلحة الجهنمية الفتاكة، وأحدث المبيدات البشرية: من قنابل هيدروجينية وبكتيريولوجية وكيماوية وغيرها.**

هـ ـ الارتفاع الفاحش والرهيب في نسب جريمة القتل في العالم، وبخاصة في شماله المصنَّع، وهذا يدلّ على سوء الأحوال الاجتماعية والأخلاقية هنالك، لكن هذه المشكلة الخطيرة انتقلت إلى العالم الجنوبي، وهي أيضاً في ارتفاع مستمر يريد اللحاق بنظيره الآخر.

و ـ العداء ضد السود في أمريكا، مع أنهم يحملون الجنسية الأمريكية، إذ يقتلون شر قتلة، ويمثل بهم شر تمثيل، يندى له جبين الإنسانية وهذا هو الوجه الحقيقي الوحشي للحضارة الأمريكية المزعومة، التي يلهث وراءها كثير من المفكرين العرب، فضلاً عن الشباب.

هذه بعض المظاهر المعاصرة، والأمثلة الحاضرة التي تبين لنا أن الأنظمة البشرية الفوضوية، لا تعير أهمية لحق أساسي من حقوق النفس البشرية، وهو حق الحياة، فهي تهدر لأدنى سبب ولأتفه علة.

لكن الإسلام دين الله هو الوحيد الذي يحفظ حق الحياة، ويحمي نفس الإنسان من كل أسباب القتل وصنوف الإجرام، وأنواع الاعتداء والتعذيب، وقد وضع تشريعات دقيقة وصارمة في هذا الشأن جعلت غايتها وقاية الإنسان من كل شر، فقتل الفرد الواحد هو بمثابة قتل للناس جميعاً، من جهة أنه يفتح باب الإجرام، ويطلق العنان للثأر الجاهلي يقول الله تعالى: ﴿**إنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون**﴾ (المائدة: ٣٢).

فالقاتل يجب أن يقتل أمام ملأ من الناس، ليكون رادعاً لمن تُسول له نفسه ذلك، وعبرة لمن يعتبر يقول تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب لعلّكم تتّقون**﴾.

إن الأدب العربي المعاصر لم يعتن بهذه المشكلات الاجتماعية التي تتعلق بقضايا حفظ الدين والنسل والنفس، بل كان يعكسها عكساً سلبياً، وهو يتعَمّد في ذلك، كي يحطم معنويات الشباب باسم التقدمية والتحرر ومحاربة الرجعية.

٤ ـ إرساء دعائم الحرية والإخاء والمساواة: هذه القيم الاجتماعية الثلاث لا تجد حقيقتها إلا في الإسلام، أما في النظم البشرية فهي محرّفة ومشوهة، وبما أن كل ما يُشَوَّهُ يفقد خصائصه وطبيعته، فإن هذه القيم لا تتجاوز حدود الشعارات الفارغة، والخطب الرنانة التي توظف لخداع الجماهير والشعوب.

ولنلق نظرة سريعة على المنعكسات الجاهلية لهذه القيم فيما يلي: في المنظور الشيوعي تعرف الحرية على أنها حرية الدولة والحزب، فهما اللذان يسيطران على مقاليد الأمور، ويوجّهان المجتمع قاطبة. أما الأفراد فلا حرية لهم في تصرفاتهم، ولو كانت أشد ارتباطاً بحياتهم الخاصة، خشية عدم إحداث تناقض بين الطرفين. وهكذا يتحوّل هؤلاء الأفراد إلى قطيع من الماشية، مطأطئي الرؤوس، لا يجوز لهم إبداء رأي أو اقتراح، فما وجدوا إلا للانقياد والخضوع، أما عقولهم فينبغي أن تكبل وتشكل تشكيلاً، ليس أحسن وأفضل من تشكيل الآلة.

أما الإخاء والمساواة، فلا يتجاوزان صورتهما اللغوية، والخطب والمقالات والمحاضرات، التي تنشأ إنشاء، من أجل ذرّ الرماد في العيون: فالناس كلهم من الوجهة النظرية إخوة متساوون، أما في الواقع الاجتماعي فالطبقات واضحة وضوح الشمس في وسط النهار، بحيث تكتشف أشياء غريبة إن دَلت على شيء فإنما تدل على الوحشية الشيوعية المسلطة على الشعوب المضطهدة، ترى الدخل يختلف من فئة إلى أخرى اختلافاً خيالياً: ففئة الحزبيين تشكل طبقة رأسمالية مترفة، بينما يظهر غيرها في حالة من الفقر المدقع، والبؤس البئيس. ولكن لا اعتراض، ولانقد، ولا إبداء رأي.

هذا في الجانب الشيوعي، أما في الجانب الرأسمالي فإننا نسجل ما يلي:
أ ـ يضمن حق الحرية المطلقة لكل الأفراد ضماناً تاماً، مع وضع حدود شكلية، عدمها خير من وجودها، لأن الاختلاف الطبيعي بين الفرد والآخر ولّد منافسات كبيرة، فالقوي صار يأكل الضعيف، ويستولي على الملكيات ويبتز الأموال بكل وسائل التحايل. ومن هنا ظهرت الطبقات الاجتماعية، وتفاقم أمرها، واختلف الدخل من فئة لأخرى اختلافاً فاحشاً.

ولإسكات الغضب الذي يتأجج في نفوس المستضعفين، أنشأ النظام الرأسمالي مصالح اجتماعية، تكون بمثابة مسكنات للأعصاب، لكن أن تكون الحلَّ الجذري للمشكلات الاجتماعية، فلا. وما يلفت النظر هو أن الأموال كلها في أيدي فئة قليلة من الرأسماليين: أرباب المصانع الضخمة، والبنوك الكبيرة، ذات الفروع الكثيرة في جل بقاع العالم.

والعجيب أن من أسباب الأزمات الاقتصادية والمالية في العالم، التركيبة الرأسمالية، والفلسفة البراجماتية التي تقوم عليها، وإن نفوذ اليهود بخاصة في هذه الميادين الخطيرة لا يجوز إنكاره، لأن الإحصائيات التي تتتبع هذه المسألة تخبرنا أنهم يجيدون الاطلاع على كل أمر ذي بال، لَهُ مساس بنشاطاتهم وتحركاتهم وأهدافهم العالمية.

وأريد أن أنبه أخيراً إلى أن المبادىء الثلاثة التي تفتخر بها الثورة الفرنسية (الحرية، الإخاء، المساواة) هي شعارات جوفاء، وضعت لِتُضَلّلِ الإنسان، وتسحر لبّه، وتشل تفكيره النقدي الصحيح.

هذه هي الأطر الجاهلية التي تحتضن المبادىء الإنسانية شر احتضان، أما إذا انتقلنا من محيط ظلمات الجاهلية إلى رحاب الإسلام ونوره، فإننا نجد كل ما تحلم به البشرية التي تتقلب الآن في آلامها ومصائبها الحاضرة طالبة الخلاص منها.

ومن توجيهات الإسلام أن العبودية ليست لحزب سياسي، ولا لدولة، ولا لفلسفة، ولا لفئة، وإنما هي لله الخالق عز وجل ﴿**وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**﴾ (يس: ٦١)، وإنّ حقيقة العبودية ليست هي القيام بالشعائر التعبدية فقط، كما ساد هذا المفهوم في عصور الانحراف عن الإسلام، وإنما هي طاعة الله في كل أمر من أمور الحياة، والانقياد لتعاليم الدين الحنيف، لأنها ما أنزلت على رسول الله ﷺ إلا لخيري الدنيا والآخرة.

والإسلام لا يفرق بين هذا وذاك، فكل الناس ـ على الرغم من الاختلافات

العرقية، واللغوية والدينية ـ سواسية كأسنان المشط، كما ورد ذلك عن رسول الله ﷺ، والأفضل عند الله هو الأتقى والأكثر التزاماً بأوامر الله تعالى، أما المقاييس الـوضعية: من مال، وسمعة، وشهرة، وانتماء سياسي، وغيرها فلا وزن لها في الإسلام ولا اعتبار.

يقول الله تعالى: **﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** (الحجرات: ١٣).

والإسـلام لا يعتـرف بالانتمـاءات القـومية والعنصـرية والقبلية، إذ الانتماء الحقيقي هو ما يربط بدين الله تعـالى، لا غير. روى التـرمذي عن أبي هريرة: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرْء بأنفه، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء وإنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب» وروى مسلم والتـرمذي عن جندب: «من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية».

إن الله تعالى خلق الناس من التراب، فهل يمكن للتراب أن يكون مقياس تفاخر وتفاضل بينهم؟ لا شك أن العاقل ينكر هذا كله، معترفاً فقط بمعايير الإسلام الصحيحة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وأمامنا نصوص تبين لنا حقيقة كُلّ من الأخوة والمساواة، اللتين لا تبرزان وجوداً إلا في المجتمـع الإسـلامي **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله. إن الله يحب المتوكلين﴾** (آل عمران: ١٥٩)، **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** (الشورى: ٣٨)، وروي عن رسـول الله ﷺ أنه قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى»، رواه البخاري، ويقول رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا عبدالله ورسوله» رواه البخاري، ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا له تبجيلاً: «من سره أن يتمثـل له الـرجـال قيامـاً فليتبوأ مقعده من النار» أبوداود والترمذي، ويقول أيضاً: «كلكم راع وكلم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول

عن رعيته. والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته»، رواه الشيخان بلفظ البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما. ويقول أيضاً: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» رواه مسلم وأبوداود، ويقول أيضاً: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث... وإن أربع فخامس أو سادس» متفق عليه، ويقول أيضاً «مثل المؤمنين في توادهم،. وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» متفق عليه. ويقول أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» رواه الشيخان.

فالمساواة في الإسلام حقيقة تتجاوز النصوص إلى الواقع المعاش، وإن سيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة رضوان الله عليهم خير دليل على واقعية التعاليم الإسلامية، بعامة، وواقعية الإخاء والتكافل والمساواة بصورة خاصة.

★ ★ ★

ونعدُ من بين الأهداف الاجتماعية النبيلة التي يتضمنها الإسلام ما يتعلق بالحقوق والواجبات ذات الطابع الاجتماعي، ويمكن تصنيفها وفق التقسيم التالي:

أ ـ القسم العائلي:

١ ـ **حقوق الوالدين**: وهي طاعتهما في غير معصية الله تعالى، وخدمتهما وبخاصة إذا بلغا الكبر، والتحدث معهما بكل أدب وهدوء، وإعانتهما في كل شؤونهما، وعدم رفض طلباتهما التي تكون ضمن دائرة طاعة الله تعالى، والإنفاق عليهما وبخاصة في أحلك الظروف.

فهذه الواجبات لا تستطيع أن تؤدي عشر معشار ما قام به الوالدان تجاه أولادهما، يوم كانوا صغاراً محتاجين إلى الرعاية الكاملة.

قال تعالى: ﴿**وقضى ربّك ألا تعبدوا إلا إياه. وبالوالدين إحساناً. إما يبلغن**

عنـدك الكبـر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما. وقل لهما قولاً كريماً﴾ (الإسراء: ٢٣).

وأخـرج الشيخان: «جاء رجل فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال أبوك».

وأخـرج أبـوداود عن أسماء قالت: «قدمت علي أمي وهي مشركة فاستفيت رسول الله ﷺ، فقلت: قدمت علي أمي وهي راغبة أفأصل أمي قال: نعم صلي أمك» وأخرج أبوداود عن عمرو بن السائب أنه بلغه: «أن رسول الله ﷺ كان جالساً فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام الرسول ﷺ فأجلسه بين يديه» وأخرج أبوداود: «أن رجلاً قال يا رسول الله: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: نعم: الصلاة عليهما والاستغفار لهمـا وإنفـاذ عهـدهمـا من بعـدهما وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما وإكرام صديقهما». وأخرج الترمذي «رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد».

وعلى الوالدين واجبات تجاه أولادهما، تجمعها الرعاية المادية والمعنوية، أو التربية الإسلامية بكافة فروعها ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله. ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد. وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك بالله. إنّ الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه. حملته أمه وهناً على وهن. وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك. إليّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما. وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إليَّ. ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله. إن الله لطيف خبير. يابني أقم الصلاة. وأمر بالمعروف وانه عن المنكر. واصبر على ما أصابك. إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعر خدّك للناس.

ولا تمش في الأرض مرحاً. إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ (لقمان: ١١ - ١٧).

أخرج الترمذي عن رسول الله ﷺ: «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن»، «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع»، وأخرج أبوداود عن رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة».

٢ ـ حقوق الزوجة والزوج:

(لا أورد ـ من الآن نصوصاً أخرى، راجياً البحث عنها في مواطنها).

للزوجة حقوق على الزوج أهمها:

أـ الإنفاق عليها في كل الأحوال.

ب ـ معاشرتها بالمعروف وعدم إلحاق الأذى بها.

جـ ـ إعانتها في شؤون البيت، لفعل الرسول ﷺ.

د ـ تعليمها مبادىء الدين الإسلامي على الأقل.

هـ ـ ترغيبها وترهيبها بأسلوب حسن بعيد عن الفظاظة والخشونة.

وللزوج حقوق على الزوجة، أهمها:

أ ـ حفظ العرض والشرف.

ب ـ العناية بشؤون البيت.

جـ ـ تربية الأولاد تربية إسلامية.

د ـ طاعة زوجها في غير معصية الله تعالى.

هـ ـ أن تلقاه بوجه طليق بشوش، كي ينسى أتعاب العمل ومشقات الحياة وتكاليفها.

و ـ ألا تخرج من بيتها بغير إذنه.

٣ ـ حقوق أفراد العائلة:

عناصر الأسرة هي الزوج والزوجة والأولاد، في حين أن العائلة دائرتها أوسع، تضم دوائر أسروية صغرى، على رأسها الجد والعجوز. ولا يشترط في هذا:

الارتباط المكاني، أي التواجد في دار كبيرة، إنما الشرط الأساسي المطلوب هو الرباط الروحي الذي يتجسد في تبادل الزيارات وديمومتها.

ومن الواجبات التي يجب أن يقوم بها الفرد تجاه أفراد عائلته الكبيرة وأقاربه ما يلي:

أ ـ الإنفاق على المحتاجين والفقراء منهم.

ب ـ المداومة على الزيارة لتفقد أحوالهم.

جـ ـ الإصلاح بين المتخاصمين منهم.

د ـ أن تتعرف عليهم وعلى أصلك العائلي.

هـ ـ ألا تقاطعهم لما في ذلك من إثم كبير.

و ـ تبادل الهدايا لأنها علامة مادية على المحبة والمودة.

ب ـ القسم الاجتماعي الكبير:

يضم غير أفراد الأسرة والعائلة: من جيران، وأباعد، وغير المسلمين، وسنرى حقوق هذا القسم فيما يلي:

١ ـ حقوق الجار:

لقد أوصى الإسلام كثيراً على حقوق الجوار، بناء على مبدأ الروح الجماعية، التي تمثل العمود الفقري للمجتمع الإسلامي المنشود، ومن هذه الحقوق:

أ ـ عدم إلحاق أيّ أذى بالجار، سواء أكان في مال أوعرض أو ولد أو زوجة.

ب ـ القيام بكل أعمال البر والصلة والمعروف.

جـ ـ الدفاع عنه وحمايته من كل سوء.

د ـ حماية بيته وعرضه أثناء غيابه.

هـ ـ النصح له إذا استنصحه، ودعوته إلى مكارم الإسلام، مع مراعاة المناسبات والظروف.

و ـ السعي في حاجته إذا افتقر إلى معين.

٢ ـ الحقوق الاجتماعية العامة:

لا يمكن هنا أن نتتبع كل هذه الحقوق بشكل تفصيلي، فمحلها الدراسات

الاجتماعية الإسلامية التي تخصصت فيها، لكن نذكر هنا أهمها، لتكون معالم أساسية لغيرها، وهي:

١ ـ الدعوة إلى الله، والإرشاد إلى أعمال الخير والصلاح.
٢ ـ تقديم النصيحة، ومراعاة الشخص والمناسبة والحالة النفسية.
٣ ـ إلقاء السلام ورده.
٤ ـ المصافحة.
٥ ـ عيادة المريض واتباع الجنازة.
٦ ـ إجابة الدعوة.
٧ ـ تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى.
٨ ـ عدم إفشاء سره.
٩ ـ حمايته من كل مكروه.
١٠ ـ إعانة الضعيف والسعي في قضاء حاجته.
١١ ـ اجتناب الظن والتجسس والتنافس والتحاسد والتباغض والتدابر والظلم والتحقير والخذلان.
١٢ ـ عدم إلحاق الضرر بأي شخص: في ماله أو عرضه أو ولده أو فرد من أفراد عائلته.
١٣ ـ بذل الجهد في فك أسره إن كان أسيراً عند العدو.
١٤ ـ إتقان كل عمل مهما كان ضئيلاً.
١٥ ـ عدم الغش والخداع والكذب.
١٦ ـ ألا يتجاوز حدود الجواز الشرعية.
١٧ ـ الوفاء بالوعد وإنجاز المطلوب في الوقت المحدد.
١٨ ـ القدرة على العمل وتوفر شروط الكفاءة والعلم.

٣ ـ الحقوق الاجتماعية الخاصة:

وهي تتعلق بغير المسلمين، وهم الرعايا الأجانب الذين لا ينتمون إلى الدين الإسلامي وقد يكون منهم مواطنون، وفي هذه الحالة يسمون بـ (أهل الذمة). وقد ألفت كتب في هذا الشأن، وخصصت فصول في كتب الفقه، تتعرض بالتحليل

لحقوق وواجبات هذه الطائفة، وأذكر من هذه الحقوق ما يلي:

١ ـ لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين (قاعدة عامة).

٢ ـ الوفاء بالمعاهدات التي بينهم وبين المسلمين.

٣ ـ ألّا تتجاوز الالتزامات المالية الحدود الشرعية المعلومة.

٤ ـ عدم الاعتداء: من قتل، وضرب، وإهانة، وظلم.

٥ ـ عدم مضايقته في أمر دينه، وأن يكون الجدال معه بأسلوب حسن.

٦ ـ إذا أسلم سقطت التزاماته المالية، وكلف بالتزامات المسلم المالية.

إن الأديب المسلم يجب أن يضمّن نتاجه الفني هذه الأهداف الاجتماعية النبيلة، دون أن يغفل المسائل، التي توصل الإنسان إليها، والتي تمهد للمجتمع الطريق نحوها. وقد فصّل الإسلام تفضيلاً دقيقاً، فلم يترك مقفلاً ولا عويصاً إلا بيّنه وشرحه. ولا بأس أن نشير هنا إشارات موجزة، تجلّي لنا دور الوسائل الاجتماعية، في تحقيق الأهداف الإنسانية المنشودة.

وفيا يلي بعض هذه الوسائل التي يستند إليها المجتمع الإسلامي، في تطوير علاقاته وروابطه، وحماية بنيته وكيانه من كل سوء:

١ ـ دور الشعائر التعبدية:

قد يفهم بعض الناس من الصلاة والصيام والزكاة والحج أنها مجرد حركات روتينية، وأعمال مكررة محفوظة، لا حياة فيها، لكن هذا المفهوم باطل من أساسه، لأن هذه الشعائر التعبدية التي فرضها الله عز وجل على المسلمين، لها أهداف جمة ومقاصد عدة، أود أن أوضح منها ما له علاقة بالاجتماعيات، وذلك فيما يلي:

أ ـ أهداف الصلاة الاجتماعية:

١ ـ لقد فرقت السنة النبوية الشريفة بين صلاة الفرد وصلاة الجماعة، للأولى درجة واحدة، وللثانية خمساً وعشرين درجة، وهذا يدل دلالة واضحة على ضرورة الاجتماع، للتعارف والتحاب، وتبادل الآراء، وتفقد أحوال الحاضرين

والغائبين. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم شديدي التطبيق لهذه الأمور لأنهم أدركوا القيم الروحية للصلاة، وفقهوا أبعادها الاجتماعية علماً وعملاً.

٢ ـ وللصلاة هدف اجتماعي تغييري، يتمثل في تغيير النفوس، ورفعها دوماً إلى قمة العلى والصفاء والإخلاص، وجعلها تكره كل منكر، وتمقت كل فحشاء، إلى درجة أن الصلاة لا يكون لها فضل ونور، إذا لم تؤد وظيفتها الاجتماعية التغييرية هذه.

٣ ـ والصلاة مناجاة المؤمن لربه، يتلقى في أجوائها التعليمات السماوية المختلفة، لتطبيقها كل يوم، على المستوى الاجتماعي. وبهذا تكون الحياة الاجتماعية مرآة لنوعية الصلاة: فإذا ما وجدت المجتمع صالحاً، فاعلم أن صلاحه دليل على صلاح الصلوات التي تقام، أما إذا كانت أحواله طالحة فاسدة، فإن هذا علامة على فراغ الصلاة من روحياتها، وتمسك الأفراد بشكلياتها.

أهداف الزكاة الاجتماعية:

١ ـ الزكاة ركن في الإسلام كبير، يربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، فلا تبقى الفروق واسعة بين الأغنياء والفقراء.

٢ ـ وتوزيع أموال الزكاة يقوي أواصر القربى بين أفراد المجتمع، ويزيل عوامل الحقد والضغينة، ويقضي على الحسد والبغضاء، فتتآلف النفوس، وتتحاب القلوب، ويصير البعيد قريباً.

٣ ـ هذا، وإن الزكاة تحل مشكلات اجتماعية عديدة، وإن نظرة في مصاريفها لتنبئنا أنها ـ فضلاً عن مجالات العدالة الاجتماعية الأخرى الكثيرة ـ تغطي كافة احتياجات المجتمع الإسلامي، يقول الله تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل**﴾.

٤ ـ وللزكاة دور كذلك في تفتيت الثروات التي تمتلكها فئة الأغنياء، كي لا تبقى محصورة فيهم ﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾.

جـ ـ أهداف الصيام الاجتماعية :

١ ـ إن الصيام يذكر المؤمنين بالفقراء والمساكين، ويفرض عليهم أن يعيشوا بعضاً من أحوالهم، فيذوقوا مرارة الجوع التي تلازم الفقير والمسكين معظم أيام السنة وبهذا الأسلوب العملي، يتم الارتباطان: الوجداني والاجتماعي بين الغني والمحتاج.

٢ ـ يقضي الصيام على الأخلاقيات الاجتماعية الجاهلية، لأنها تشل العلاقات بين الناس، وتعكر صفو الروح الاجتماعية في قلوبهم.

٣ ـ شهر رمضان بخاصة تدريب عملي على خليقة الصبر، وهي ضرورة خلقية واجتماعية في آن واحد، لأن الصبر يفيد ويؤتي ثماراً طيبة في مجالات اجتماعية كثيرة: في مكان العمل، في الإدارة، في الشارع، في المصنع، وهلم جراً.

د ـ أهداف الحج الاجتماعية :

١ ـ يقوي الحج الروابط والعلاقات بين مجتمعات عديدة، تحت شعار الإسلام، وهذه مقدمة ضرورية لنشأة المجتمع الإسلامي الكبير، في مجال الواقع السياسي، بعد أن تهيأت النفوس، واستعدت الأرواح، واقتنعت العقول.

٢ ـ التدرب العملي على الخصال الخلقية، ذات الأبعاد الاجتماعية.

٣ ـ أهمية التوعية الاجتماعية التي يقوم بها دعاة كبار في موسم الحج.

هذه ـ باختصار شديد ـ أهم الأهداف الاجتماعية للشعائر التعبدية الأربعة (الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج) ومن أراد الاستزادة، فعليه بالرجوع إلى الدراسات الإسلامية الهادفة.

ولكن ما ينبغي ملاحظته هنا هو أن الأدب العربي المعاصر خلو من هذه القيم الإسلامية، لا يعتني بها، ولا يعيرها اهتماماً في التربية والتوعية الاجتماعيين، معتقداً أن القيم الاجتماعية الجاهلية، والمعايير الوضعية الأرضية، هي التي تحقق السعادة الحقيقية، وتجلب النفع العام للبشرية.

بيد أن هذا الاعتقاد هو محض خرافة وأغلوطة، يراد من ورائها إبعاد الإسلام عن واقع الإنسان المعاصر، وإحلال الفكر المادي محله. هذا، وإن البديل الفاسد يزيد الطين بلة، ويعقد المشكلات، ويولد معضلات جديدة، لم تخطر ببال الناس.

وقد نجد إشارات أدبية إلى هذه الوسائل الاجتماعية الإسلامية، المتمثلة في الشعائر سالفة الذكر لكن أصحابها يجعلونها تخدم أهدافهم الدنيئة، ومنها: تشويه الشعائر الإسلامية، وربطها بشخصيات أدبية كبيرة السن، أو معقدة نفسياً، واتخاذها علامات على رجعية الفكر والسلوك. فهذه الأشكال التضمينية خطيرة جداً، لكونها تحدث هوة سحيقة بين الشباب المتعطش إلى الثقافة الملتزمة، وتعاليم الإسلام الخالدة.

٢ ـ المؤسسات الاجتماعية:

وهي كل المؤسسات التي تبث التعاليم الصحيحة، وتنشر الوعي الاجتماعي الإسلامي، بغية إنقاذ المنحرفين من مبادىء الرذيلة من جهة، وتبصير جاهل الحقيقة بها تبصيراً كافياً وصحيحاً من جهة أخرى. وكنا قد أشرنا في فصل مضى إلى أهمها، لكن لا بأس هنا أن نركز على بعض أبعادها وأدوارها الاجتماعية، فيما يلي:

أ ـ الأسرة: هي الميدان الاجتماعي الصغير الذي ينشأ فيه الإنسان نشأته الأولى، فيأخذ المبادىء الأخلاقية والاجتماعية الضرورية. وإن الأم لتلعب دوراً كبيراً في هذه التنشئة المطلوبة، لغياب الأب معظم ساعات النهار عن المنزل، مرتبطاً بضرورات المعاش ومتطلبات الأسرة.

بناء على هذا، يحث الإسلام المؤمنين كلهم على العناية بهذه النواة الاجتماعية الأساسية، إذ هي التي توجه المجتمع وفق أحوالها، وطبيعتها التي تكون عليها: فإن كانت صالحة كان المجتمع كذلك، وإلا فلا.

وبين الأسرة والمؤسسات الاجتماعية الأخرى نقاط التقاء، تمثل مظاهر

التفاعل وتبادل التأثير بينها. فإذا روعيت فيها شروط الانسجام والوحدوية التربوية، فإن النتائج تكون مرضية، جالبة السعادة للفرد والمجتمع معاً. وبهذا الأسلوب فقط يتأسس المجتمع الصالح، وتتكون الأمة الحضارية، وتتحسن أحوال الشعب الواعي بقضاياه المصيرية.

وللأسرة النموذجية برامج دقيقة، وطرائق تربوية، فيها الأصول الثابتة التي لا تتغير، والشكليات الفنية والوسائل المستحدثة التي تتناسب وعصرها الذي أبدعها، وبيئتها التي أحدثتها. وإن هذا التمييز في البرامج والطرائق بين جانبيها: الثابت والمتطور، يؤدي بنا إلى القول بضرورة استثمار النصوص الإسلامية كلها، في تحديد طبيعة وخصائص الأول، وترك الثاني لاجتهادات المختصين والعلماء، شريطة أن يتماشى والروح الإسلامية، ومقاصد الشريعة الغراء.

هذا، ونرى التفكير في أمر الأسرة ينبغي أن يكون جاداً، لما نشاهده ونسمعه اليوم عن الأوضاع الاجتماعية السيئة، التي نجمت عن الانحرافات الأخلاقية والسلوكية التي قصمت ظهر الأسرة.

ولا بد أن يتوب الأدباء العرب عن ذنوبهم الكثيرة، التي لو كشفت لهم، لرأوها قد بلغت عنان السماء، وكدرت مياه الأرض، وأحالت لونها إلى السواد القاتم. وما علة هذا إلا سموم كتاباتهم التي أفلست الأسر، وأبادت الأرواح الخيرة، وأذابت الطهارة النفسية، وأصابت بالشلل كل محاولات الإصلاح.

نستنتج إذن أن المسيرة الحقيقية للأدب مستقبلاً، هي رفض كل مذهب وضعي، وفلسفة بشرية، والاعتماد فقط على البديل الإسلامي، في تحديد المضامين الأدبية بعامة، ومضامين الأسرة بخاصة.

ب ـ المدرسة: هي البيئة النظامية والإدارية والتعليمية التي تهتم بتربية الأجيال، وتعليم الأفراد تعليماً صالحاً، وتنشئتهم التنشئة الإسلامية الراشدة. وإذا كانت التربية الأسروية تكسب الفرد المبادىء الأولى، في الأخلاق والاجتماع: نظرياً وممارسة، فإن التربية المدرسية تتميز بالتعمق فيها، وتدعيمها تدعيماً علمياً، وذلك

لا يحصل إلا بإيراد البراهين الساطعة والأدلة القاطعة.

ولكن الشرط الإسلامي الأساسي هو إبعاد التناقضات، ذات الطابع الأخلاقي والاجتماعي، بين مؤسستي الأسرة والمدرسة. وهذا يكون بإيجاد الموافقات التربوية، وتحديد مظاهر الانسجام بينهما. وفي هذا الإطار يجب أن يجتهد العلماء المختصون في قضايا التربية، لدراسة هذا الموضوع الحساس مراعين أموراً كثيرة، منها: الشريعة الإسلامية، ملابسات المجتمع الخاصة، عاداته وتقاليده، بنية الأسرة، ظروف العصر، العلوم التربوية الحديثة، احتياجات الأمة في كافة الميادين، وهلم جراً.

وهذا الذي نقترحه كفيل بحل المشكلات والتناقضات الاجتماعية الخطيرة، التي نجدها متفشية اليوم في جميع أنحاء العالم العربي، ولكن إن لم نأخذ المسألة بجد وعناية، ولم تصف النيات، فإن المعضلات ستزداد تفاقماً، وستتعقد شيئاً فشيئاً، لتصبح سرطاناً لا يتخلص منه إلا بالاستئصال.

ولا شك أن أساليب التعاون بين الأسرة والمدرسة لكثيرة جداً، ووسائل رفع المستوى التربوي بينهما عديدة، تتطلب توضيحها، وتحديدها، وتفهيمها لأرباب الأسر والمشرفين على التعليم، كي يوحدوا جهودهم التربوية، ويصبوها في بوتقة واحدة، لأن في التوحيد قوة وفعالية، وفي التشتت سلبيات كثيرة.

ومن العادات التربوية التي ينبغي أن نحافظ عليها، ونعطيها صبغة إسلامية، شيئان هامان هما:

١ ـ ربط المواد العلمية والأدبية والاجتماعية بالمبادىء الإسلامية، في إطار وحدة فكرية كبرى، حتى لا تحمل عقول الناشئة متناقضات ثقافية، ولا تستوعب خليطاً من المفاهيم، ينقض بعضها البعض الآخر.

وإن أحوال التعليم العربي ـ على ضوء هذه النظرة ـ سيئة للغاية، لأنها ارتبطت ثقافياً وإيديولوجياً بالشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي، فاستحالت مدارسنا أسواقاً رائجة لبضائع الفكر البشري، ومعامل لتجارب الجاهلية العمياء.

٢ ـ العناية بمواد التنشيط، ومنها: المسرحية، المجلة المدرسية، الحفلات، الأناشيد، الجولات. ولا بد أن تكون هذه المواد وسائل لنشر الوعي الإسلامي وغرس الروح الإيمانية في نفوس النشء الصاعد. وهذا يتم بأن تعقد ملتقيات هادفة، تحدد لهذه المواد برامج جيدة، ومناهج راشدة، وكتباً أنيقة، تتضمن الموضوعات المفيدة ـ لا غير ـ للفرد والمجتمع.

ولا يجوز أن يستهان بمواد التنشيط، لأنها همزة وصل بين التلميذ والمجتمع، وصورة نموذجية للعمليات التي تجري في واقع الحياة، ونافذة واسعة يطل منها على محيطه الحقيقي.

جـ ـ المسجد: هو بيت الله الذي يلتقي فيه المؤمنون، ليتوجهوا نحو قبلة واحدة، في صلاة واحدة، متحركين حركات متناسقة واحدة لا اختلاف بينهم فيها. وإذا اعتبرنا المسجد مؤسسة اجتماعية، فليس معنى هذا أننا رفضنا المصطلح الإسلامي، وأبدلناه بمصطلح عصري جديد، إنما القضية هي تحديد البعد الاجتماعي، عن طريق تسميته بهذا المصطلح لا غير.

والنظرة التاريخية الفاحصة في سيرة الرسول المصطفى ﷺ تصور لنا مدى أهمية المسجد في الإسلام، إذ أنّ أول عمل قام به رسول الهدى ﷺ، حين هاجر إلى المدينة المنورة، هو بناء المسجد، وذلك لأهداف كثيرة، تنقسم وفق الدوائر التالية: دائرة الروح، دائرة الثقافة والتعليم، دائرة الاجتماعيات، الدائرة العسكرية، الدائرة الاقتصادية، الدائرة القضائية، الدائرة السياسية.

ومن الأهداف الاجتماعية للمسجد ما يلي:

١ ـ ربط المسلمين بصلاة جامعة، خمس مرات كل يوم.

٢ ـ ربطهم بصلاة الجمعة مرة كل أسبوع.

٣ ـ ربطهم بصلاة العيدين: عيد الفطر، عيد الأضحى.

٤ ـ تفقد أحوال الأفراد الاجتماعية، أثناء هذه اللقاءات الروحية.

٥ ـ تلقي وتفهم التعاليم الاجتماعية الإسلامية، بواسطة الدروس والخطب الملقاة.

٦ ـ حل المشكلات الاجتماعية المختلفة، تحت إشراف إمام المسجد أو عالم أو داعية.
٧ ـ العناية بقضايا الأسرة نظرياً وعملياً، كعقد الزواج والطلاق والميراث.
٨ ـ الإرشاد الاجتماعي للأفراد المنحرفين، وتخصيص حلقات تعليمية لهم، وحل مشكلاتهم الخاصة.

هذه أهم المسائل الاجتماعية التي إن قام بها كل مسجد، عمّ الخير الأمة كافة، وانقشعت ظلمات الشر عنها.

د ـ وسائل الإعلام: وهي الإذاعة، والتلفزة، والجريدة، والكتاب.

هذه الوسائل ألصق بالمجتمع من غيرها، من جهة كونها تتميز بالتعميم والشمولية، والإحاطة والنفوذ في كل مكان وموقع: في القرية، في الدشرة، في قمم الجبال.

بناء على هذا الاعتبار الكبير الذي أعطي لوسائل الإعلام، اهتمت كل دول العالم بها، لمقاصد: على رأسها الأغراض السياسية. ونقول بصراحة: إن كل دولة تفرض على وسائلها الإعلامية أن تعنى بالدعاية الصالحة لسياستها ونظامها بأقصى الجهود الممكنة، وهذه الظاهرة واضحة أكثر في دول العالم الثالث المتخلف، إلى درجة أن كل دولة من هذه لا تستمد بقاءها من اقتصادها المنحط، ولا من قوتها العسكرية الواهية، بل من الدعاية لسياستها، وترويج شعاراتها في أوساط الشعب ليتم تخديره، ومن ثم ربطه بالسلطات الحاكمة.

وهكذا يتضح لنا أن وسائل الإعلام سلاح قوي ذو حدين: يسخر إما في الخير، وإما في الشر. لهذا يكون من الحتمي أن تحلل منافعها، وتحصى أهدافها النبيلة، وتوضح الوسائل الصالحة التي تسهل لها تحقيق هذه الأهداف والمنافع.

وأود الآن التركيز على أهدافها الاجتماعية فيما يلي:
١ ـ نشر البرامج الاجتماعية الهادفة، ذات الطابع الثقافي: من محاضرات، وندوات، وغيرها.
٢ ـ تقديم أفلام تحل مشكلات اجتماعية، شريطة خلوها من مواطن الإثارة،

وأسباب تهييج الشهوات.

٣ ـ استيراد الأفلام من الخارج، بعد مراقبتها، وتمييز الجيد فيها من الرديء.

٤ ـ العناية بالمسلسلات العلمية والتاريخية الهادفة.

٥ ـ تقديم تحقيقات دقيقة وشاملة حول مشكلات المجتمع الحالية، لتنبيه الأفراد إلى أسبابها، ومظاهرها، ونتائجها، والحلول الصحيحة لها.

٦ ـ تغطية البرامج لكل ميادين المجتمع: المسجد، المصنع، الشارع، المدرسة، الأسرة، الريف، وهلم جراً.

٧ ـ تبصير الأجيال الصاعدة بالأحوال السيئة الخطيرة، التي تتميز بها المجتمعات الجاهلية، كي يولّد هذا التبصير في العقول وعياً إسلامياً قوياً، وينشىء في النفوس حصانة متينة، تحفظها من كل انحراف خلقي واجتماعي وفكري.

٨ ـ إبعاد كل وسائل اللهو: كالغناء الفاحش، والموسيقى، وفنون اللعب المحرمة شرعاً، لأننا نريد مجتمع جد، لا يضيع أوقاته في ما لا يعني.

هذه الأهداف الاجتماعية لا وجود لها في البرامج الإعلامية العربية، لبعدها عن الإسلام وارتباطها الشديد بواجهة من واجهات الجاهلية المعاصرة.

هـ ـ العقوبات الاجتماعية الإسلامية:

من الوسائل التي تحمي المجتمع من كل انحراف، وتغرس القيم الخلقية والاجتماعية في نفوس الأفراد نظام العقوبات الذي سنته الشريعة الغراء، وحدده الرسول ﷺ في سنته العطرة، بكل أقسامها: القولية والفعلية والتقريرية.

ولا يخلو مجتمع ما من السلطة القضائية، لأنه يرى فيها حماية لمصالحه، وصيانة لحقوق أفراده. ولا مبالغة إذا قلنا: إن التاريخ القديم قد أثبت أن نظماً قانونية وقضائية ـ ولو كانت بدائية ـ ظهرت مع ظهور الإنسان، وصاحبته في الكهوف والغابات، ومغارات الجبال ومفاوز الصحارى. وهذا الاكتشاف التاريخي لا يعني صحة تلك النظم، ولا صلاحية تلك القوانين، إذ هي نسبية، بحيث أن الظلم أرجح فيها من العدل، لا لشيء إلا لأن مصدرها العقل البشري الضعيف، الذي نأى عن الشرائع السماوية، وأعرض عن أقوال الرسل السابقين، بل إن أرباب تلك

النـظم والقوانين وسدنتها قد تعرضوا لأولئك الرسل بصنوف من الأذى والتعذيب والقتل، فكانت النتيجة الخزي والعار والفساد في الأرض، وهتك الأعراض وسفك الدماء. وقد عانت البشرية من نتائج الانحراف عن هدى السماء، وما زالت تعاني منه إلى يومنا هذا، فلم ينفعها التطور العلمي، ولا المدنية التكنولوجية العصرية.

إن أي مجتمع إذا ابتغى السلامة من المشكلات، وإصلاح أحواله، وسعادتي الدنيا والآخرة، وجب أن يستوحي قوانينه وتشريعاته من دستور الإسلام، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من العزيز الرحيم.

ولا بد أن يطلع المسلم بعـامـة، والأديب والنـاقـد بخاصة، على النموذج الاجتماعي الفريد من نوعه، الذي ظهر في عهد الرسول محمد ﷺ، واستمر في عهـود الخلفـاء الراشدين رضوان الله عليهم، ليجدوا الصور التطبيقية الصحيحة لتعـاليم السمـاء، والنتـائـج المثـالية التي لم تحلم بها عقول الفلاسفة قاطبة. والـدراسات حول هذا الميدان التاريخي الإسلامي الثري ما زالت تترى، مبينة جوانبه الكثيرة، بأسلوب علمي حديث، بغية إقناع الناس أن هناك فروقاً واسعة، بين قوانين الأرض العفنة، والشريعة الإسلامية الغراء.

هذا، وإن المجتمع السليم يستعين بوسيلتين كبيرتين، للحفاظ على مقوماته، وحماية أسسه، ألا وهما:

١ ـ الضبط الأخلاقي: وهو نشر التوعية الخلقية والأدبية والسلوكية، وتعميقها على كافة المستويات الاجتمـاعية للأمة: الأسرة، المؤسسات الإدارية والصناعية، المدرسة، الجامعة، المسجد، وغيرها.

وسمي هذا النمط بـ (الضبط)، لأنه يضبط سلوك الأفراد، ويقّومه وفق المعايير الاجتماعية السائدة تقويماً نظرياً وعملياً.

ويتميز الضبط الأخلاقي باستمراريته، وشموليته، وإحاطته بكل مراحل حياة الإنسان، من طفولته إلى شيخوخته.

وقد ذكرنا في فصل (الأدب والأخلاق) مسألة الضمير الجمعي، فقلنا إنه مجموعة القيم الخلقية التي يكتسبها الفرد من أوساط المجتمع كلها، ويشارك في هذه العملية التربوية والخلقية الناس كافة: الأبوان، الأجداد، الجيران، المعلمون، الدعاة، الأئمة، الشيوخ، المارة، وغيرهم كثير.

وقد نجم عن هذه الميزة ميزة كبرى - وبخاصة في المجتمع الإسلامي - هي ابتعاد معظم أفراد المجتمع عن عالم الإجرام، إلا تلك الفئة القليلة التي تعدّت الحدود، ولم تعترف نفسياً ولا سلوكياً بأخلاقيات المجتمع وعاداته.

ب - الضبط القضائي: وهو حماية المجتمع من كافة أنواع الإجرام، ومتابعة المجرمين وملاحقتهم، ودراسة أحوال الإجرام. وكل هذا لتحقيق ثلاثة أغراض نبيلة هي:

١ - المحافظة على كيان المجتمع وشخصيته المعنوية.

٢ - منع تفشي الإجرام، وبخاصة المبتدئين، وإعادة تكييفهم الخلقي والاجتماعي، ليعودوا أعضاء صالحين للأمة، يوجهون طاقاتهم نحو النفع العام، بعد أن كانت معاول هدم خطيرة.

والمؤسسات التي تعنى بهذا الميدان هي: مؤسسات الأمن المدني، مؤسسات الأمن الريفي، والمحاكم القضائية.

ويمكن القول بأن عملية الضبط القضائي ما هي إلا تكملة لعملية الضبط الخلقي، ومن ثم فهي حالة استثنائية، لأنها تتكلف بالأوضاع الشاذة، المتميزة باللاتكيف الاجتماعي.

وتبرز هنا ملاحظتان هامتان، لهما علاقة وثيقة بعالم الأدب، هما:

١ - لقد ظهر فن أدبي جديد في الغرب الرأسمالي، يسمى بـ (الأدب البوليسي)، وخطورته لا تقل عن خطورة الأدب الجنسي المنحل. وعلة هذا أن الكتاب المولعين بهذا الفن يدّعون أن نتاجهم الذي يكتبونه يعد سلاحاً اجتماعياً وخلقياً فعالاً، لمقاومة كافة أنواع الإجرام، زاعمين أنهم يصورون فيه أسبابها ونتائجها الخطيرة التي تترتب عليها.

إن هذا الادعاء أو الزعم هو كلمة حق، أريد بها باطل. وبعبارة أوضح، إن هؤلاء الكتاب يهدمون مقومات مجتمعاتهم، بأساليب ملتوية، تتمثل أولاً في تصوير مظاهر الإجرام تصويراً حسناً، يجذب نفوس الشباب إليها، كما يجذب المغناطيس الحديد.

وتتمثل ثانياً في الوقوف طويلاً أمام الجريمة ذاتها، بتحليل كل جوانبها، ووقائعها، وملابساتها التي صاحبتها، بشكل تفصيلي، دون الاكتفاء باللقطات الخاطفة الموحية. وبهذا يظهر أمامنا بوضوح تام كيف يحاول (الأدب البوليسي) تعليم الشبيبة أفانين الإجرام، وفنيات الاعتداء، وطرق ارتكاب المحرمات والممنوعات.

وتتمثل الأساليب الملتوية ثالثاً في إظهار المجرم في مظهر بطولي، فهو في تسلسل أحداث القصة كلها يتجاوز الحواجز جميعها، بما أوتي من حيل خارقة للعادة، ويتفوق بقدراته الهائلة على إمكانيات وقوى رجال الشرطة والمخابرات. ويكفي أن ندرس الأسلوب القصصي، لنكتشف أن الألفاظ والتراكيب المتخيرة، تهدف كلها إلى إبراز المواقف البطولية التي يتصف بها المجرم.

وإذا كنا نلفي القصة في بعض الأحايين تنتهي باعتقال المجرم أو قتله، فإن هذا لا يكفي لردع وتخويف من تسوّل له نفسه الانتساب إلى عالم الإجرام والانحراف، والسبب هو أن القارىء قد ارتبط بأحداث القصة كلها، وتفاعل مع مواقفها كلها، وبالتالي فماذا تجدي تلك الخاتمة التي تكون غالباً مقتضبة جافة، عليها مسوح من الحزن، كأن القاص يريد أن يعبر لنا عن إشفاقه على المجرم، وتأسفه على النهاية التي صارت لغير صالحه.

ب ـ أما الملاحظة الثانية، فهي العناية بترجمة القصص البوليسية الأجنبية إلى العربية، ليقرأها شبابنا الفتيّ، وهذه ـ والله ـ مأساة أخلاقية واجتماعية، تعرّض القوى الحية للأمة للضياع والتلف والاضطراب، فتنقلب أمور حياتها رأساً على عقب، ويستحيل الحق باطلاً والباطل حقاً.

ولم يكتف أدباء هذا الفن عندنا بالترجمة، بل نهجوا نهج أمثالهم الغربيين، متتبعين بشكل حرفّي أساليبهم في التصوير والتعبير والتضمين، ضاربين القيم الحقيقية عرض الحائط. لهذا صار من اللازم إعادة النظر في هذا الركام: الركام المترجم والركام المكتوب بالعربية، وطرحه في سلة المهملات، ومحاربة أعداء الأمة: مواطنين كانوا أم أجانب، وقطع كل السبل التي يسلكونها من أجل تحقيق أهدافهم الدنيئة، ووضع الأسس النقدية الصالحة ذات المنطلقات الإسلامية، لتكون ركائز قوية لأدب هادف، يخدم الأمة، ويثقف أفرادها، ويربيهم تربية إسلامية راشدة، تؤتي ثمارها حاضراً ومستقبلاً.

وإذا كانت الآداب الأجنبية تصور جل العقوبات التي تواضعت عليها المجتمعات هنالك، وتبين جزئياتها، وتوضح تفصيلاتها، وتجلّي أهدافها، فإنه يجب على الأدباء الملتزمين بالقيم الإسلامية أن يتحدوا هذه الجاهلية العمياء، فيضمنوا نتاجهم الفني أنواع العقوبات الاجتماعية الإسلامية، مبينين أهدافها البناءة، حتى يكون لدى القراء وعي كامل بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وإدراك كاف لضعف غيره من المذاهب الأرضية المادية وإفلاسها الشامل.

ولا بأس هنا أن نقدم بعض الإشارات الموجزة حول أهداف العقوبات الإسلامية من الوجهة الاجتماعية، متجنبين كل تفصيل، لأن محله كتب الفقه والدراسات التشريعية الإسلامية المعاصرة.

من هذه الأهداف الاجتماعية ما يلي:

١ ـ إصلاح نفس الإنسان وتقويمها، وإشعارها بمسؤوليتها أمام الله تعالى دنيا وآخرة.

٢ ـ إبعاد الأفراد عن المحرمات، لكونها تلحق أضراراً خطيرة بالمجتمع.

٣ ـ مراعاة التوازن الطبيعي بين حقوق الفرد وحقوق الجماعة، فلا ضرر ولا ضرار.

٤ ـ إشعار الإنسان بأن الأضرار التي يلحقها بالمجتمع ستمسه وأولاده بطريقة غير مباشرة، إذ فساد المجتمع يؤدي حتماً إلى الإضرار بكل من ينتسب إليه.

٥ ـ العقوبات الإسلامية تكره العصاة على ترك أعمالهم الشيطانية، بعد عدم

اتعاظهم بالدروس والملاحظات والنصائح .

٦ ـ محاربة الدوافع النفسية الخاصة بكل جريمة، وجعل العقوبة تتماشى وطبيعة الجريمة. فمثلاً إن الجريمة الناجمة عن دافع اللذة، تقابلها عقوبة تتميز بالألم الذي هو نقيضها.

٧ ـ إن جريمة الزنى تختلف نفسياً من غير المحصن إلى المحصن، لذا فالعقوبة مختلفة في هاتين الحالتين: فغير المحصن يجلد وينفى، بينما المحصن يرجم. وسبب رجم الثاني هو أنه مثل سيء، لم يمنعه الزواج من إفساد المجتمع، فما بقيت إلا عقوبة الاستئصال، كي لا تفسد الأعراض، وتنحط الأخلاق، وتضيع الأنساب. والإسلام بهذا أشد حرصاً من غيره على حماية أصل الإنسان ونسبه وعرضه.

٨ ـ عقوبة القاذف (وهو الكذب والاختلاق) وشارب الخمر هي الجلد، لأنه يولد آلاماً جسدية، من شأنها أن تجتث الآلام النفسية (وهي دوافع القذف وشرب الخمر) من أصولها.

٩ ـ عقوبة السرقة تقطع عوامل الجشع والطمع في أملاك الغير، حتى لا تنشأ عناصر طفيلية في المجتمع، تعيش بعرق الناس في الثراء والغنى، وتقلق أمنهم وراحتهم، وتهدد المصالح الاقتصادية العامة.

وإن الإحصائيات القضائية قد أثبتت على المستوى العالمي فشل العقوبات الوضعية بشكل ذريع، بل إن علماء القانون حائرون أمام ظاهرة تزايد عدد السراق المودعين في السجون، ولكن ما أكثر نسبتهم خارجها.

١٠ ـ وإن في القصاص عدلاً حقيقياً، لأنه يقابل بالمثل، فيقتل القاتل، ويجرح الجارح، ويضرب الضارب، وهلم جراً.

١١ ـ هناك جرائم كثيرة، تختلف باختلاف الزمان والمكان، لهذا لم تنص عليها الشريعة الإسلامية، بل تركت للسلطة القضائية، لتحدد العقوبات المناسبة لها. وتسمى هذه العقوبات بالتعازير، التي تبدأ بالنصح، وتنتهي بالقتل، مروراً بتعازير كثيرة. ويشترط فيها أن تتضمن عوامل الاستصلاح والحماية والتأديب.

هذه بعض المقاصد الاجتماعية التي تهدف إليها العقوبات الإسلامية، وقد رأينا أن نذكرها، كي يعرف الأدباء أن الشريعة الغراء ما وجدت إلا لخدمة الفرد والمجتمع معاً، ووقايتهما من كل شر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى قصدنا من هذا العرض الموجز لها، أن يتبع الفهم تطبيقات أدبية وفنية، تساعد على نشر الوعي الصحيح، والثقافة الهادفة المطلوبة، في أوساط شبيبتنا الناهضة.

ويستحسن أن يتضمن المجال الأدبي، إلى جانب تصوير العقوبات الشرعية، تصوير العقوبات الطبيعية الفطرية، وهي النتائج الحتمية التي تترتب عن كل مخالفة لقانون من القوانين الربانية، دون تدخل أي سلطة من سلطات المجتمع. والسر في هذا هو أن الله تبارك وتعالى ما حرّم شيئاً إلا لأنه يجر وراءه ضرراً.

وقد يعرف العقل البشري أضرار بعض المحرمات، لكن تغيب عنه أضرار بقيتها، لنسبية قدراته وأحكامه وتحليلاته. كما قد يدرك بعض الأضرار الناتجة عن محرم واحد، ويبقى غيرها يعمل في الخفاء. والمهم ـ سواء أأدركنا علة محرم أم لم ندركها ـ هو تجنب ما نهانا الله عنه، وفقاً لمنهج التلقي للتنفيذ.

وفيما يلي بعض العقوبات الطبيعية للجرائم البشرية:

١ ـ إن تفشي الإجرام يهدد أمن البلاد، ويجعل حقوق الأفراد والجماعات على شفا جرف هار.

٢ ـ إن زيادة الإجرام في مجتمع ما تؤدي حتماً إلى تضعضع في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، ولهذا فالتناسب بين الطرفين عكسي.

٣ ـ كذلك تسوء الأخلاق، وتضيع القيم، وتتلاشى المعايير، فتصير مجرد حكايات لا رصيد لها في واقع حياة الناس. وهذا هو النفاق بعينه.

٤ ـ كما تتغلغل شيئاً فشيئاً العناصر المفسدة الطفيلية في الأجهزة الإدارية وغيرها، فتعيث فيها فساداً، وتزيد الطين بلة، وتستغل ظاهرة البيروقراطية لقضاء مصالحها الخاصة، وتحقيق أطماعها الشيطانية.

٥ ـ إن جريمة القتل تجعل حياة الإنسان لا قيمة لها، بل عدمها خير من وجودها، إذا هي عرقلت مخططات المجرم الدنيئة.

٦ ـ كما أنها تجعل المجتمع لا يعرف أمناً ولا استقراراً، بل اضطراباً وقلقاً وخوفاً من كل شيء، في كل أحواله وأوقاته. وهذا ينعكس انعكاساً سلبياً خطيراً، على المردودية الاقتصادية والاجتماعية.

٧ ـ أما الخمر، فهو يعرض شاربه لحالات الاضطراب الكثيرة والدائمة، في مختلف مناحي حياته، وفي كل تصرفاته وسلوكه وتفكيره، ومعاملاته وعلاقاته الأسروية والاجتماعية.

٨ ـ يفقد شارب الخمر، إرادته وقواه وطاقاته الإنتاجية شيئاً فشيئاً، كما تسوء أخلاقه، وينعدم فيه الانضباط المطلوب.

٩ ـ يعد شرب الخمر على رأس العوامل التي تسبب حوادث المرور، وقد أثبتت الإحصائيات أن ١٣٪ من عدد الحوادث عالمياً مردها إلى ارتكاب هذا المحرم.

١٠ ـ شرب الخمر يورث للأولاد والأحفاد أمراضاً خطيرة، وحالات جسمانية سيئة للغاية، وضعفاً عقلياً، وميلاً إلى الإجرام.

١١ ـ وتولّد هذه الظاهرة الخطيرة ـ بالنسبة للمدمن ـ أمراضاً مستعصية، منها: ارتفاع ضغط الدم، عسر الهضم، احتقانات المعدة، أمراض الكبد، انفجار شرايين الدماغ.

١٢ ـ وهناك أضرار عدة على مستوى الفرد والأسرة، منها: ضعف الفعالية، ضياع المال، تفشي الفقر، خراب البيوت بالطلاق وتشرد الأطفال، انعدام الوازع الخلقي والمحاسبة النفسية، انتشار العداوة والبغضاء، وأحياناً تنتج جرائم متولدة عن شرب الخمر: كالجرح والقتل.

١٣ ـ أما جريمة السرقة، فهي تنشىء تدريجياً طبقة اجتماعية كبيرة من السراق الطفيليين، الذين يشكلون عناصر سلبية، على حساب القوى الاجتماعية الحية المنتجة.

١٤ ـ كما تنتشر عادة الكسل والخمول، وتفضيل وسائل الكسب غير المشروعة على وسائله المشروعة.

١٥ ـ تضيع الحقوق المالية للأفراد والجماعات بسرعة وبكثرة، فتصير عائلات هؤلاء فقيرة، تمد أيديها إلى الناس.

١٦ ـ ينتشر الخوف والهلع، وتتعقد وسائل الحماية والصيانة، فتتعقد بالتالي المعاملات والمبادلات.

وقائمة العقوبات الطبيعية والفطرية للجرائم البشرية طويلة جداً، نكتفي بما ذكر أعلاه، ليكون صورة واضحة، تنفع الأدباء والنقاد، في تقويم النتاج المكتوب حتى الآن، وفق أسس صحيحة، وتحديد المسيرة الأدبية الحقيقية مستقبلاً.

طرق التضمين الفني:

بعد أن تعرفنا على أهم القضايا الاجتماعية التي يجب على الأديب والناقد أن يدركها إدراكاً صحيحاً، ويستزيد من المعلومات حولها، في إطار القيم الإسلامية ومعايير التعاليم الربانية، وبعد أن أكدنا على ضرورة العناية بمشكلات المجتمع على المستوى الأدبي، وبعد أن أشرنا إلى الانحرافات العديدة، التي وقعت فيها الفنون الأدبية الأجنبية، فتبعها الأدب العربي المعاصر في ذلك، نقول: إن الأديب يجب أن يفكر من جديد، في طرق التضمين الفنية الصحيحة التي تجدي نفعاً، في عملية التوعية والإرشاد والتوجيه، ويعيد النظر في أساليب الكتابة الأدبية، وطرائقها المختلفة ليميز الخبيث من الطيب.

وفيما يلي أهم طرق التضمين الفني، التي لا ينبغي أن يستغني عنها الأدب الملتزم بالقضايا الاجتماعية العادلة:

١ ـ التضمين الفني المباشر: ويغلب وجوده في فن المقالة الأدبية وفن الشعر، لأن هذين الفنين يعكسان الأفكار بطريقة مباشرة، أي أن القارىء حينما يطلع على ما كتب فيهما، يجد نفسه أمام المضامين، دون ما حاجة إلى أن يسلك نحوها مسالك ملتوية كثيرة، فما عليه إلا أن يفهمها ويعي مقاصدها، فالشاعر يتحاور مع قارىء شعره، ويناجيه، ويطلعه على مشاعره وخلجاته النفسية، كأنهما صديقان حميمان، يعرف كل منهما الآخر معرفة كاملة. وبهذا الانكشاف النفسي والاتصال الشعوري، يلتقي القارىء النص الشعري، فيتفهم معانيه، ويعرف مواقفه معرفة واضحة.

وكذا الشأن بالنسبة لكاتب المقالة الأدبية، فهو يعرض آراءه ومواقفه عرضاً فنياً مباشراً، معتمداً على منهج الاستدلال والبرهنة اعتماداً وسطاً، دون أن يغرق مقالاته في الجفاف العقلي، والبرودة المنطقية.

٢ ـ **التضمين القصصي**: وهو عرض القضايا ـ ومنها الاجتماعية ـ عرضاً قصصياً، وبديهي أن هذه الطريقة غير مباشرة، تختلف عن طريقة المقالة الأدبية والقصيدة، فإذا كان الشاعر والمقالي يعرضان مواقفهما عرضاً مكشوفاً، فإن القاص يستخدم في مجاله الفني الخاص عنصر الشخصية، وذلك بأن يحدث صراعاً بين مواقف متضاربة، يوزعها على شخصيات، لتنتهي أحداث القصة بتغلب شخصية أو أكثر على البقية. وطبيعي أن الذي حاز على قصبة السبق هو ذاك الذي يمثل مواقف القاص. فأنت ترى معي كيف أن أسلوب القصة يفضل هذا المسلك غير المباشر. وسر هذا ـ كما أوضحناه في فصل: الفنون الأدبية ـ هو تلك الطرافة التي تتحلى بها القصة، والحيوية التي تأخذ بالألباب، وتشد النفوس إلى الأغراض المراد تحقيقها، والمواقف التي يبتغي إقناع القارىء بصحتها وصلاحيتها معاً.

٣ ـ **التضمين المسرحي أو التمثيلي**: وهو أيضاً عرض غير مباشر للقضايا المختلفة، لا تكاد تختلف عن أسلوب العرض القصصي، اللهم إلا في موضوع الشخصية: السلبية، والشخصية الثابتة والشخصية النامية. بينما نلفى في المسرحية تسمية أخرى، هي: الممثل، ويعرف بأنه ذلك الشخص الذي يمثل دوراً ما، ويناصر موقفاً ما، في إطار أحداث المسرحية.

وأركز هنا على المسرحية الممثلة لا المكتوبة، لأن سر جمال الفن المسرحي يكمن في تمثيلها بصورة خاصة، بعكس الفن القصصي الذي يتحلى بميزات الجمال، من خلال أساليبه الخاصة، التي تترك القارىء يتخيل الأحداث، وصراع الشخصيات، ونمو المواقف، إلى درجة أن مخيلته تنسيه عالمه الواقعي الرتيب لتفتح أمامه أبواب عالم جديد في علاقاته وتصرفاته ومعاملاته، ولو كان العالم المتخيل هذا قد استمد من الواقع بعض العناصر المألوفة. لأن القدرة الفنية

القصصية تتمثل في إجراء تحويرات في المألوفات لتستحيل ظواهر جديدة، ذات جاذبية نفسية مؤثرة.

هذه أهم أدب الطرائق الفنية العامة للتضمين، وهي التي تشترك فيها جميع آداب العالم، مع وجود فروق جزئية بين أدب وآخر، وبين أديب وغيره. بيد أن هذه الفروق تدل على تميز النتاج الأدبي بخاصية التنوع، مما يضمن له التطور نحو آفاق مستقبلية أحسن.

لقد تبين لنا أخيراً ـ من خلال صفحات هذا الفصل ـ أن الأديب الصالح هو ذاك الذي يجعل نصب عينيه خدمة القضايا الاجتماعية، وتنظيف المجتمع، وترقيته مما هو عليه إلى الأحسن والأفضل، وتخليصه من كل العيوب والمخاطر التي تهدد أمنه وسلامته، وشخصيته المعنوية.

ولن يتم هذا المسعى النبيل، إلا إذا روعيت المقاييس والتوجيهات الإسلامية، في كل الكتابات الأدبية، وكانت رؤى الأديب والناقد ومواقفهما الاجتماعية مستمدة من تعاليم السماء، وبهذا فقط يكون لديهما وعي صحيح، يجعلهما عارفين بإفلاس المواقف الجاهلية كلها بدون استثناء.

﴿أقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ من سورة العلق.

فهرس الموضوعات